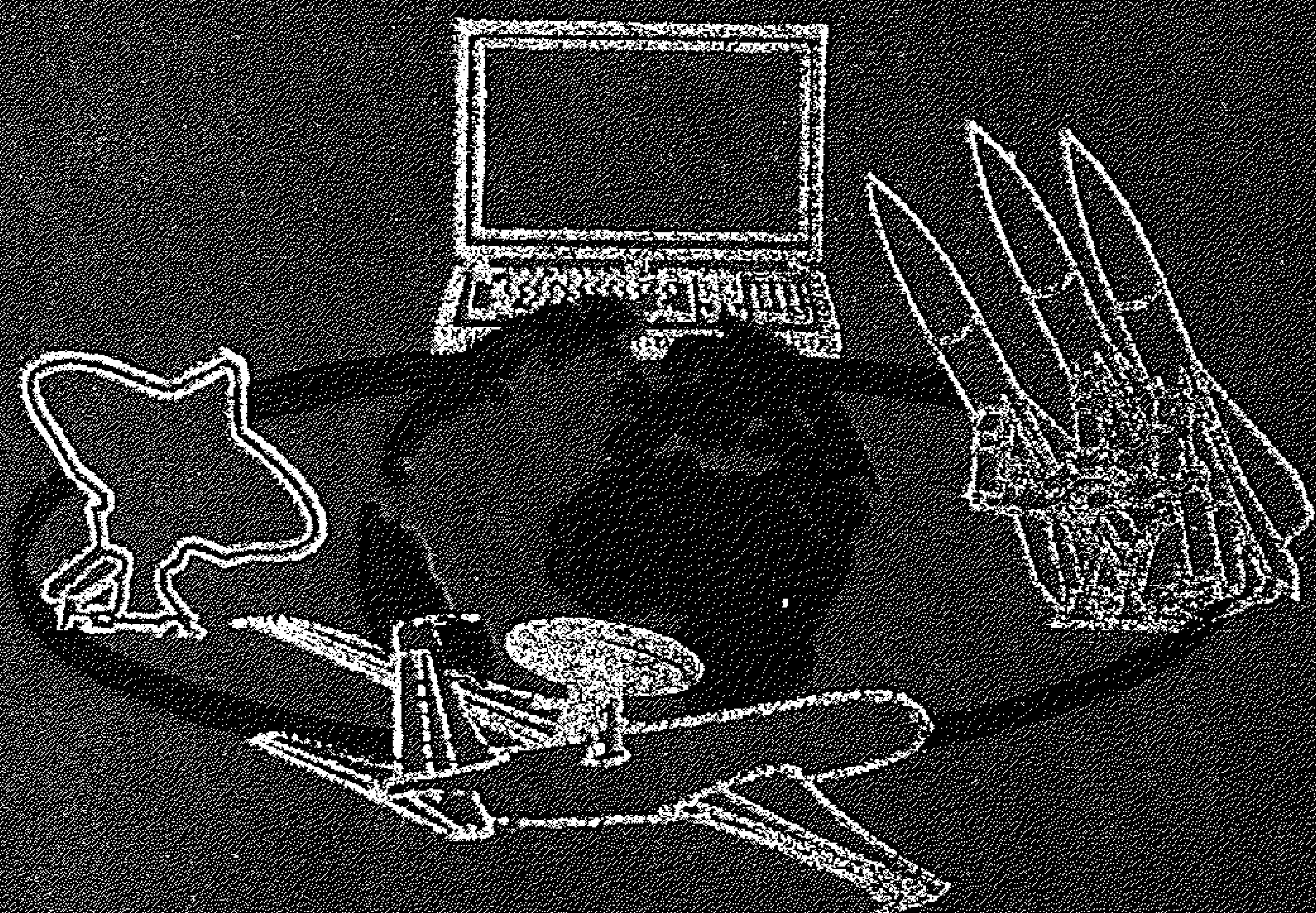
موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم



NOBILIS

موسوعة عالم المخابرات

كلّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

الإستخبارات الإسرائيليّة (٣)

أسعَد مفرِّج

ولجَنة من البَاحثين

موسُوعَة

عَالَــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارات في العَالَم

الجزء السَّادس عشَر

الإستخبَارات الإسرَائيليَّة (٣)

NOBILIS
MAISON D'EDITION

إسم المَجموعَة : عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم

إسم الكِتَاب : الإستخبَارات الإسرَائيليَّة (٣)

الجِزء : السَّادس عشَر

المؤلِّف : أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مَكَان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

الحقبة السّادسة من تاريخ الموساد

الموساد في عهد ناحوم عدموني

في اليوم الخامس من الحرب التي شنّها إيرييل شارون على لبنان، أصيبت تطلّعات شارون في ما يتعلّق بمؤسّسة المخابرات الإسرائيليّة بضربة عنيفة، فقد قُتل صديقه الجنرال "كوتي آدم" في المعركة في العاشر من حزيران ـ يونيو ١٩٨٢. وبذلك مات المرشّح الأوّل لرئاسة الموساد.

رحل آدم، لكنّ الوقت كان قد حان لاستبدال إسحق حوفي الذي ظلّ في منصبه لمدّة ثماني سنوات. ولجأ بيغن لاستشارة حوفي نفسه. وفي السابع والعشرين من حزيران ـ يونيو أوصى رئيس الوزراء مجلس الوزراء بتعيين "ناحوم عدموني"، نائب حوفي رئيسًا للموساد. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يقع فيها الاختيار على ضابط في سلك الموساد ليكون رئيسًا له. وتمشّيًا مع قيود الأمن التقليديّة، لم يعلَن إسم عدموني.

وصف العالمون ببواطن الأمور في الموساد ناحوم عدموني بأنّه شخص يصعب تصنيفه، فهو عاديّ، ومدير بيروقراطيّ غير متألّق، ولكنّه يتّسم بالإتزان والتصميم.

كان عدموني يبلغ من العمر ٥٣ سنة، وقد تعلّم في أميركا، وأمضى ثمانية وعشرين عامًا كعميل سرّي في مواقع متقدّمة خارجيّة ومتعدّدة. فلقد شقّ عدموني طريقه بنفسه عبر الصفوف.

كان والدا عدموني مهاجرَين متوسّطي الحال من بلدة تقع بالقرب من "غدانسك" في بولندا، وفي فلسطين غيّرت الأسرة لقبها من "روتباوم" إلى "عدموني". وكان والد عدموني هو المهندس المعماريّ الذي صمّم منتزهات القدس، وعاشت أسرة ناحوم عدموني الذي ولد في القدس عام ١٩٢٩، في حيّ "ريهافيا" الأنيق الذي لا يبعد عن فندق "الملك داود" الفاخر. وقد أخرج هذا الحيّ نسبة كبيرة من الزعماء اليهود قبل عام ١٩٤٨، وحتّى بعد ذلك التاريخ جاء من الحيّ نفسه مسؤولون حكوميّون ووزراء وأساتذة جامعات وضبّاط جيش وعاملون في المخابرات...

في مقتبل شبابه، خدم ناحوم عدموني في "الهاغاناه". وفي فرع المخابرات التابع لها الذي كان يعرف باسم "شاي"، وبعد انتهاء حرب ١٩٤٨، ذهب إلى الولايات المتّحدة لدراسة العلاقات الدوليّة في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. وهناك عمل في إحدى مدارس الأحد اليهوديّة، وكراع لمعبد يهوديّ. واشتغل أيضًا في مصنع ينتج الأرديـة الرسميّة للقوّات المسلّحة الأميركيّة. وفي كاليفورنيا، التقى بالمرأة التي تزوّجها، وعاشا أسعد أحلامهما خلال الخمس سنوات التي أمضياها على الشاطئ الغربيّ.

كانت تلك هي الحقبة الوحيدة في حياة عدموني كرجل بالغ، التي استطاع أن يهرب خلالها من ضغوط الحرب السريّة ضدّ من تحاربهم إسرائيل. وتمنّى عدموني أن يصبح دبلوماسيًّا، لكن لدى عودته إلى إسرائيل، عمل كمدرّس في الأكاديميّة الخاصّة التابعة لمؤسّسة المخابرات في القدس. وكان ديفيد كيمحي، الذي

سيصبح في ما بعد منافسه على رئاسة الموساد، يقوم أيضًا بالتدريس في الأكاديميّة نفسها.

إثر ذلك، أصبح من الطبيعيّ أن يقوم الموساد بتجنيد عدموني ونقله من صفوف المدرّسين إلى كتائب العاملين. وأمضى عدموني ثلاثة عقود في القسم السياسيّ الخاصّ بالاتّصالات التابع للوكالة السريّة، في مراكز تبدأ من واشنطن وحتّى إثيوبيا. وشارك في جميع مشروعات التعاون مع وكالة المخابرات المركزيّة على مدى أعوام، وكان خبيرًا في الدبلوماسيّة البديلة التي تقوم بها الموساد نيابة عن إسرائيل. ولكن عندما يتعلّق الأمر بالتحرّكات السريّة ضدّ أعداء الدولة اليهوديّة، فإنّ خبرته العمليّة كانت ضئيلة نسبيًّا في هذا المجال.

لم يكن عدموني مغامرًا ولا قاتلاً، لكنّه كان جديرًا بثقة رؤسائه، وحاز احترام الجميع بفضل اجتهاده.

في هذه الحقبة قامت منظّمات يهوديّة هدفها الإستيلاء على المسجد الأقصى في القدس، أشهرها "منظمة حركة الاستيلاء على المسجد الأقصى"، و"منظّمة المخلصون لجبل البيت".

أمّا "منظّمة حركة الاستيلاء على المسجد الأقصى"، فمنظّمة علنيّة تأسّست عام ١٩٨٦، تهدف إلى إزالة المسجد الأقصى لأنّه "أقيم على هيكل سليمان". ثمّ إقامة الهيكل الثالث مكان المسجد الأقصى. وتتّجه إلى الهدف خطوة خطوة بتكرار العدوان على المسجد حتّى يصبح العدوان أمرًا روتينيًّا لتتمّ العمليّة الأخيرة، فلا يكون لها الأثر النفسيّ عند العالم الاسلامي كما كان ليحدث لو تمّ الإستيلاء على المسجد فجأة. وتهدف أيضًا إلى طرد العرب وإقامة حدود لاسرائيل بقوّة السلاح. وترى أنّ أراضي إسرائيل بحدودها الجديدة عبارة عن جزء من الأراضي اللبنانية حتّى ميناء طرابلس، ومعظم

سوريا، وجزء من العراق، وكلّ الأردن، وجانب من الكويت، وشبه جزيرة سيناء حتّى قناة السويس وخليج السويس. تزعّم هذه المنظّمة الحاخام "لينفغر" يساعده الحاخام "يسرائل إرائيل".

وهناك منظّمات تعمل في ظل الحكومة الاسرائيلية، لها ممثّلون في الكنيست مثل منظّمة "المخلصون لجبل البيت". هذه المنظّمة تهدف إلى الاستيلاء على المسجد الأقصى. ويتزعّمها "تمرسون سولومون"، ويقودها "يهودا بيرغ". و"حركة تسومت" التي يقودها "رافائيل إيتان". و"المشمونيون" وهي من الشباب المتطرّف الذي أدّى الخدمة العسكريّة، وتقوم بمواجهة الطلبة العرب في الأراضي المحتلة، وتملك أسلحة وذخائر وقنابل، وكانت تعمل لنسف قبّة الصخرة. وحركة "بش" الطلاّبية في جامعة حيفا. و"التخنيون". و"منظّمة كاستل" في القدس وتل أبيب. ومنظّمة "متسادا" في بئر سبع. وقد قامت المنظّمات الفاشيّة الطلاّبية الصهيونيّة بهجمات دمويّة إرهابيّة ضدّ الطلاّب العرب وتنظيماتهم الطلاّبية في الجامعات.

وتتفق كل المنظمات الارهابية على هدم المسجد الأقصى وطرد العرب من الأراضي المحتلة وإقامة حدود توسعيّة جديدة لإسرائيل[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص١١٩.

الموساد وتفجير مقرّ المارينز في بيروت

كان مدير الموساد "ناحوم عدموني" شديد التشكيك بمقاصد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط. وبينما استمرّت واشنطن في إظهار التزامها المعلن بإسرائيل، أبقت وكالة CIA خطّ الاتّصال الخلفيّ الذي أنشأه إيسر هاريل وألن دالاس بين الموساد والـ CIA مفتوحًا. لكنّ عدموني كان يشكو من تفاهة المعلومات التي يستقيها من ذلك المصدر.

فقد كان رئيس الموساد قلقًا إزاء تقارير تلقّاها من عملاء الموساد ومتطوّعيها المرموقي المكانة في واشنطن. لقد اكتشفوا أنّ اجتماعات سريّة تعقد بين مسؤولين رفيعي المستوى في وزارة الخارجيّة الأميركيّة وزعماء عرب على صلة برئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة ياسر عرفات، جرى في خلالها بحث وسائل الضغط على إسرائيل لتكون أليَن عريكة إزاء المطالب الفلسطينيّة. وأبلغ عدموني زميله رافي إيتان أنّه بات يشعر أنّه ما عاد يعتبر الولايات المتّحدة "صديقًا لوقت الضيق". وعزّز هذا الموقف حادث سيهزّ ثقة أميركا بمناعتها أكثر من أيّ حادث وقع منذ حرب فيتنام.

في آب ـ أغسطس ١٩٨٣، اكتشف عملاغ الموساد أنّ هجومًا قيد التخطيط يستهدف القوّات الأميركيّة في بيروت التي تتمركز هناك كقوّة لحفظ السلام بعد الانسحاب الاسرائيليّ من العاصمة اللبنانيّة إثر اجتياحها لها في عام ١٩٨٢. وتمكّن العملاء من التعرّف إلى شاحنة من نوع "مرسيديس" تحمل نصف طنّ من المتفجّرات.

ووفقاً للاتفاقات السريّة كان يتوجّب على الموساد أن تنقل هذه المعلومات إلى وكالة CIA، لكنّ موظّفي الموساد تبلّغوا في اجتماع عقد في مقرّ الجهاز المطلّ على جادة الملك شاول في تلّ أبيب أنّ مهمّتهم هي "ضمان استمرار مراقبتنا للشاحنة. أمّا في ما يتعلّق بالأميركيّين "اليانكي"، فليس من شأننا حمايتهم. وبإمكانهم أن يراقبوا ما يعنيهم. إنّنا إذا تجاوزنا الحدّ في خدمة اليانكي فسنكون كمن يأتي بالدبّ إلى كرمه"...

وفي ٢٣ تشرين الأوّل ـ أوكتوبر ١٩٨٣، كان عملاء الموساد يراقبون عن كثب بينما كانت الشاحنة تسير مسرعة إلى داخل مقرّ كتيبة مشاة البحريّة ـ المارينز الأميركيّة الثامنة المتمركزة في الناحية الغربيّة من بيروت، وقد قُتل في الحادث مائتان وواحد وأربعون جنديًّا من مشاة البحريّة.

ويروي الضابط السابق في الموساد "فيكتور أستروفسكي" أنّ ردّ الفعل في الدوائر العليا في جهاز الموساد كان:

"أرادوا أن يحشروا أنفهم في مشكلة لبنان... فليدفعوا الثمن[1]".

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠) ص١٠٠ ـ ١٠١.

تَجَوُزاتُ المُوسَاد في الدُّوَل الأفريقيَّة

كانت ثمانينات القرن العشرين حقبة مزدهرة من عمر مغامرة الموساد الكبرى في أفريقيا.

حتّى أواسط ستّينات القرن العشرين، كانت الاستخبارات البريطانيّة وحدها من بين سائر استخبارات دول العالم ناشطة في أفريقيا الوسطى. ومنذ ذلك التاريخ، أخذت الاستخبارات الصينيّة CSIS، والاستخبارات السوفياتيّة KGB، والموساد الاسرائيليّة، تتغلغل في تلك المنطقة. وكان لكلّ من تلك الأجهزة برنامجه وهو التغلّب على الجهاز الآخر، وكان الموساد من أبرز العاملين في هذا المضمار. ووفقًا للمعلومات المتوافرة، كان في ذلك التاريخ حوالى اثني عشر من عملاء الموساد ينتشرون على طول خطّ الاستواء من دار السلام على المحيط الهنديّ إلى فريتاون على شاطئ الأطلسيّ. وكان هؤلاء العملاء الشبّان من ذوي اللياقة البدنيّة العالية، وقد زُوّدوا بعدد ضخم من جوازات السفر المزيّفة. وبالإضافة إلى تدريباتهم المعتادة، تعلّم هؤلاء مبادئ الطبّ والجراحة الميدانيّين لتمكينهم من البقاء على قيد الحياة في الأدغال حيث يواجهون الأسود والفهود المفترسة ورجال القبائل المعادين.

بدأت مغامرة الموساد في أفريقيا عقب استيلاء فيديل كاسترو على الحكم في كوبا عام ١٩٥٩ وشروعه في تصدير ثورته. وكان أوّل نجاح أصابه كاسترو في هذا المضمار عندما جنّد أحد أتباعه "جون أوكيلو" فنقله من الأدغال إلى هافانا حيث أُخضع

لدورة تدريبيّة قصيرة في حرب العصابات، ثمّ طلب إليه أن يذهب ويستولي على جزيرة "زنجبار" الصغيرة قرب ساحل أفريقيا الشرقيّ.

كان أوكيلو ضخم البدن وصاحب شكل مرعب، ما ساعده على إلقاء الرعب في قلوب أفراد شرطة الجزيرة الصغيرة، فسهل عليه إخضاعها. وتمكّن جيش أوكيلو من الرعاع من فرض سيطرته القاسية على جمهور الناس الذين لم يتوفّر لهم من السلاح سوى البدائيّ منه كالأدوات المستخدمة لحصاد التوابل التي اشتهرت بها زنجبار. وأصبحت الجزيرة نقطة انطلاق كاسترو لغزو البرّ الأفريقيّ. وكانت جالية من أصول صينيّة تقيم في ميناء دار السلام، وقد تنبّهت حكومة بيكين إلى ما يجري هناك ممّا جاء في التقارير التي كان هؤلاء يرسلونها إلى بلدهم الأم. ورأت الصين في الثورة الجديدة فرصة ثمينة تمكّنها من تمتين نفوذها في القارّة الأفريقيّة، فأمرت جهاز استخباراتها بإنشاء فرع له في المنطقة، وتقديم كلّ الدعم الممكن لرجال الثورة.

في هذه الأثناء، شرع كاسترو بتنفيذ عمليّة واسعة النطاق لإعطاء حركة التحرير السوداء الناشئة طابعًا كوبيًّا. وكانت البؤرة ميناء الدار البيضاء على الساحل الغربي الأفريقي. ففي هذا المرفأ كانت السفن تفرّغ الأسلحة الكوبيّة وتنقل في طرق عودتها إلى هافانا طلاّب التدريب على حرب العصابات الذين كانوا يتجمّعون من أنحاء أفريقيا الوسطى. وسرعان ما صارت الاستخبارات الصينيّة تشارك في اختيار هؤلاء المتطوّعين.

كانت إمكانيّة وجود آلاف الثوريّين المسلّحين المدرّبين على مسافة ساعات قليلة من إسرائيل تقضّ مضاجع السياسيّين وأجهزة الاستخبارات فيها. لكنّ إسرائيل لم تشأ أن تستثير جيش المقاتلين هذا طالما لم يتعرّض أمنها مباشرة للخطر حتّى لا تدخل في مواجهة معهم، ولانشغالها التامّ في المواجهة مع العرب، فقرّرت تجنّب التورّط في

نزاع مكشوف مع الثوريّين السود. فأمر رئيس المخابرات يومذاك مائير عميت عملاء الموساد في أفريقيا بأن يتنبّهوا جيّدًا لما يجري على ألاّ يقحموا أنفسهم عمليًّا. غير أنّ الصورة تبدّلت مع وصول الـ KGB. فقد جاء الروس يحملون عرضًا يصعب على الثوريّين رفضه، وهو فرصة التدرّب في جامعة باتريس لومومبا في موسكو. فهناك سيتدرّبون على أيدي أبرع المدرّبين في فنون حرب العصابات وكيفيّة استخدامها لمساعدة المحرومين والمستضعفين. وعلى سبيل الدعاية قدّم جهاز KGB الثوريّين العرب على أنّهم بعض أبرز الخرّيجين من جامعة باتريس لومومبا.

أمام هذا الواقع الجديد، عزّز الموساد قوّته من العملاء الأفارقة بفرق اغتيال. وصدرت أوامر رئيس الجهاز آنذاك مائير عميت القاضية باستخدام كلّ وسيلة ممكنة لتخريب العلاقات بين الروس ومضيفيهم الأفارقة من جهة، وبين الـ KGB والمخابرات الصينيّة من جهة ثانية، وبقتل الثوريّين العرب كلّما سنحت الفرصة، وبتعزيز العلاقات مع الثوريّين الأفارقة بقطع الوعود لهم بمساعدة إسرائيليّة لحركاتهم تتجاوز فنون حرب العصابات، ومساعدة منظّماتهم على تأمين الاعتراف بشرعيّتها السياسيّة. وفي المقابل، طلب الاسرائيليّون ضمانة بألاّ تتعرّض إسرائيل ومصالحها لأيّ هجمات تشنّها تلك المنظّمات.

على مقربة من فندق "نورفولك" الراقي في نيروبي يقع نادي الواحة المعروف باسم "أويْسيس" الذي كان المربع المفضّل لرجال الأعمال في كينيا منذ وقت طويل. وقد تحوّل ذلك النادي إلى خليّة لكسب تأييد الثوريّين الأفارقة. وكان الليل يمضي في مناقشات طويلة مؤدّاها أنّ الإرهاب غير المدعّم بالدعاية سلاح فاسد الذخيرة، وأنّ هناك حاجة للتمسك بالغاية الأساسيّة وهي تحقيق الحريّة وإقامة الاستقلال. وداخل جوّ النادي الخانق كانت المؤامرات تحاك، والصفقات تعقد، والأهداف تعيّن لعمليّات إعدام

وتدمير. فكان بعض الضحايا يتعرّضون للقتل بينما كانوا يقودون سيّاراتهم على إحدى الطرق الترابيّة، ويُقتل آخرون في أسرّتهم. ومرّة يكون الضحيّة عميلاً للـ KGB، ومرّة أخرى جاسوسًا للاستخبارات الصينيّة... وكان كلّ فريق يتّهم الفريق الآخر بجرائم لم يرتكبها في الواقع سوى عملاء الموساد.

كان مائير عميت قد أطلع عملاء الموساد على ما عرفه عن الاستخبارات الصينيّة. من ذلك أنّ خبرة الجهاز في التجسّس تمتدّ إلى ما يزيد على ٢,٥٠٠ سنة مضت. وقد بقي قرونًا عدّة جهازًا يعمل في خدمة الأمبراطور ويتجسّس على الرعايا. ولكن في عهد "ماو تسي تونغ" ثمّ "دنغ هسياوبنغ" اتّجه جهاز جمع المعلومات السريّة في الصين وجهة جديدة كحال مؤسّسات أخرى في البلاد، وبدأ جهاز الاستخبارات الصينيّة يوسّع شبكته عبر المحيط الهادئ إلى الولايات المتّحدة وأوروبّا والشرق الأوسط وأخيرًا أفريقيا. وكانت هذه الشبكات تُستخدم لأغراض تتجاوز التجسّس، فهي أيضًا قنوات رئيسيّة لتهريب المخدّرات وتبييض الأموال. وإذ إنّ نصف إنتاج العالم من الأفيون يزرع على عتبة جمهوريّة الصين الشعبيّة، في "المثلّث الذهبيّ" الذي أضلاعه تايلاند ولاوس وميانمار، تعاون جهاز الاستخبارات الصينيّة مع عصابات المثلّث لتهريب المخدّرات إلى الغرب. ولمّا كانت هونغ كونغ أحد أبرز مراكز العالم لتبييض الأموال، فقد وجدت الاستخبارات الصينيّة فيها الغطاء المرجوّ لإخفاء أرباحها من تهريب المخدّرات. وكانت هذه الأموال تُستخدم في تمويل عمليّات ذلك الجهاز في أفريقيا. ومنذ سنة ١٩٦٤، جرت تلك العمليّات بإشراف المدير العام للاستخبارات الصينيّة "كياو شي"، وهو رجل طويل القامة محني الظهر يعشق الكونياك الفرنسيّ والسيكار الكوبيّ، وكان يتزعّم شبكة تضمّ مئات الجواسيس، وبتصرّفه موازنة خاصّة بالرشوة والابتزاز لا تضاهيها إلاّ موازنة الـ KGB. وتمتلئ معسكرات العمل الإلزاميّ

في وسط الصين بمن تجرّأوا على معارضة "كياو". وفي الملفّ الذي أعدّه الموساد عن كياو وصفٌ لرجل تتكوّن حياته المهنيّة بمجملها من مناورات تتّصف بالدهاء والقمع.

وُضعت نشاطات جهاز الاستخبارات الصينيّة في أفريقيا بإشراف الكولونيل "كاو لينغ" الذي كان قد حقّق شهرة واسعة في الجهاز أثناء عمله في النيبال والهند. وجُعل مقرّ كاو لينغ في زنجبار وهناك عاش حياة ترفل بالبذخ، وقد اتّخذ لنفسه سلسلة من النساء الأفريقيّات الشابّات عشيقات. وكان يتحرّك في أفريقيا الوسطى كوحش كاسر، ويختفي أسابيع عدّة كلّ مرّة. وكلّما زار نيروبي أُحييت له الحفلات الصاخبة في نادي "أويْسيس" فيمتلئ المكان بالدخان الطيّب الرائحة المنبعث من حزمات عيدان الجسّ الصينيّ، وتتوزّع المآكل اللذيذة المستوردة من الصين، وتظهر البغايا الافريقيّات بثوب "تشونغ سام" الضيّق المشقوق من جانب، وتُطلق الأسهم الناريّة وبرامج الرقص والغناء المستقدمة من هونغ كونغ.

وسّع كاو لينغ عمليّاته ليس فقط في عرض أفريقيا بل وشمالاً نحو الحبشة وجنوب اليمن ومصر. فكان يمدّ الثوّار في هذه البلدان بمبالغ ضخمة من المال لشنّ الهجمات على إسرائيل. ذلك أنّ الاستخبارات الصينيّة قد اعتبرت إسرائيل بيدقًا تحرّكه واشنطن وبالتالي فهي هدف مشروع لمن سمّاهم كاو لينغ "مقاتلي الحريّة عندي".

قرّر عميت أنّ على الموساد منازلة الاستخبارات الصينيّة. فعمد أوّلاً إلى تخريب مؤامرة صينيّة لقلب نظام "هيستنغ باندا" الموالي للغرب في ملاوي. وأتبع ذلك بإخطار السلطات الكينيّة بحقيقة حجم الشبكة الصينيّة العاملة لديها. وقد أظهرت حكومة نيروبي في ما بعد عرفانها بالجميل فمنحت القوّة الجويّة الاسرائيليّة حقّ العبور في أجواء كينيا لتنفيذ مهمّتها في مطار "عنتيبي" في أوغندا. وجرى إغلاق نادي "أويْسيس" وترحيل أصحابه الصينيّين الذين زعموا بإصرار أنّهم ليسوا سوى رجال أعمال. وكان ترحيلهم

من حسن حظّهم، فقد بقي عدد من عملاء الاستخبارات الصينيّة إلى الأبد في أفريقيا، إذ قتلهم عملاء الموساد بوحشيّة وخلّفت جثثهم في الأدغال لتكون طعامًا للوحوش الكاسرة. وكلّما جدّ الصينيّون في محاولاتهم الانتقام في بلدان أفريقيّة أخرى، ازدادت قسوة الموساد في مواجهتهم. فكانت فرق الاغتيال الاسرائيليّة تهاجم عملاء الاستخبارات الصينيّة أينما أنشأوا فرعًا. ففي غانا صُرع عميل صينيّ بينما كان يخرج من أحد الملاهي الليليّة برفقة صديقه. وفي مالي قُتل عميل آخر في انفجار سيّارة مفخّخة. وفي زنجبار، التي بقيت الاستخبارات الصينيّة تعتبرها جوهرة التاج، أتى حريق على شقّة سكنيّة يقيم فيها عناصر من الجهاز الصينيّ. وفي إحدى رحلاته الميدانيّة نجا كاو لينغ نفسه بأعجوبة من الموت عندما دفعته غريزته إلى تبديل سيّارته في برازافيل في الكونغو، وقد انفجرت السيّارة الأخرى التي كان من المفروض أن يستقلّها بعد دقائق وقُتل سائقها. وفي زامبيا أوثق عميل صينيّ إلى شجرة وتُرك طعامًا للأسود. وبينما كان "كوامي نكروما" حاكم غانا الموالي للصين في زيارة رسميّة إلى بيكين، أشرف الموساد على تنظيم الانتفاضة التي حقّقت هدفين، فأطاحت بنكروما ودمّرت البنية التحتيّة للاستخبارات الصينيّة في البلاد.

استمرّت حرب الموساد الاستنزافيّة المميتة ضدّ الاستخبارات الصينيّة في أفريقيا ثلاث سنوات، وامتدّت في طول القارّة وعرضها. ولم يظهر أيّ من الجانبين رحمة. فعندما صرع فريق اغتيال صينيّ ضابطًا للموساد في الكونغو ألقموه للتماسيح وصوّروا لحظاته الأخيرة في الماء على شريط أرسلوه إلى رئيس فرع الموساد هناك. وكان الردّ قيام رئيس الفرع شخصيًّا بإطلاق صاروخ على المبنى الذي تشغله الاستخبارات الصينيّة ما أدّى إلى مقتل ثلاثة عملاء صينيّين... وأخيرًا أبلغت الاستخبارات الصينيّة الموساد، عبر وسيط هو رئيس زائير موبوتو، بأنّها لا ترغب

في استمرار القتال، بل إنّ للجانبين مصلحة مشتركة في اجتثاث النفوذ الروسيّ في القارّة الأفريقيّة. وتطابق هذا النهج مع سياسة الموساد إزاء القوى العظمى جميعًا، والتي عبّر عنها مائير عميت أفضل تعبير بقوله الشهير: "إنّ التفريق بينهما يساعد إسرائيل على البقاء".

وفيما كانت الاستخبارات الصينيّة والموساد يتقاتلان، كانت الاستخبارات الروسيّة قد تقدّمت أشواطًا في تبنّي خطط كاسترو لتثوير أفريقيا على الطريقة الكوبيّة. فاجتمع قادة الـ KGB والمكتب السياسيّ للحزب الشيوعي السوفياتي في الكرملين واتّفقوا على أن تتعهّد روسيا تقديم العون المالي للاقتصاد الكوبي بمجمله. وأدّت الشروط إلى ارتهان بلد يبلغ عدد سكّانه سبعة ملايين نسمة للاتّحاد السوفياتيّ. وبالمقابل وافق كاسترو على أنّ طريق موسكو الشيوعيّ، وليس طريق بيكين، هو ما يوافق أفريقيا ويلائم ظروفها. كما وافق على استقبال خمسة آلاف مستشار يتولّون تدريب جهاز الأمن الكوبيّ DGI على طرق العمل في أفريقيا.

في هذه الظروف، أظهر عميت امتنانه لعرض الاستخبارات الصينيّة التعاون في مواجهة العدوّ المشترك: الاستخبارات الروسيّة. وبدأ الصينيّون يمدّون الموساد بما لديهم من معلومات مفصّلة عن المنظّمات العربيّة العاملة في أفريقيا وخارجها. وقد قتلت الموساد بعضهم بطرقها المعهودة كالسيّارات المفخّخة والمتفجّرات المزروعة في غرف الفنادق. وفي إحدى الحوادث أخفى الموساد قنبلة في مرحاض يستخدمه أحد المستهدفين، وكان يعاني من إسهال مَعدي حادّ يصيب بعض زوّار الكونغو، فتطاير نصف جسمه الأسفل قطعًا عند شدّ حبل السيفون في أحد فنادق الخرطوم.

وفى الموساد بالجزء المتعلّق به في إطار الاتّفاق مع الصينيّين، فأطلع الاستخبارات الصينيّة على أنّ موسكو تعتزم تقديم صفقة مساعدات ماليّة ضخمة

لإحدى أفقر دول العالم: الصومال. فسارعت بيكين إلى تقديم عرض بضعفي الصفقة. كذلك ساعد الموساد الصين في السودان حيث أقامت موسكو رأس جسر لها بالتعاون مع حكومة الرئيس نميري العسكريّة. وعندما رفض الديكتاتور السوداني رهن نفسه كليًا للروس، أعدّ هؤلاء له انقلابًا، فأبلغ الموساد الاستخبارات الصينيّة بالأمر، فأطلع هؤلاء النميري الذي طرد جميع الديبلوماسيّين السوفيات وأوقف برامج المساعدات من الكتلة السوفياتيّة.

بعدما أوقع الموساد بين عملاقي الشيوعيّة، شقّ الموساد طريقه إلى قلب أفريقيا. وحوّل الاسرائيليّون اهتمامهم إلى جهاز المخابرات الإفريقي الوحيد، الذي اعتبره الإسرائيليّون صديقًا، وهو مكتب أمن الدولة "بوس" ذراع جهاز الأمن المرعب في جنوب أفريقيا. وكان "بوس" صنو الموساد في اعتماده الابتزاز والتخريب والتزوير والخطف واستجواب السجناء والحرب النفسيّة وأعمال القتل. وكحال الموساد كان لـ"بوس" كامل الحريّة في طرق معاملته لخصومه. وسرعان ما أصبح الجهازان حليفين حميمَين غالبًا ما عملا بالتناغم والتوافق. وقد نشطا في أنحاء العالم الأفريقيّ من خلال تفاهم سريّ عقد بين رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير ونظام بريتوريا. وكانت النتيجة الأولى لهذا الاتّفاق تصدير اليورانيوم الخام من جنوب أفريقيا إلى مفاعل ديمونة الاسرائيليّ. وقد نُقلت الشحنات على رحلات طائرات العال الاسرائيليّة من جوهانسبورغ إلى تلّ أبيب، وسُجّلت على بيانات الرحلة على أنّها معدّات زراعيّة. وسافر علماء جنوب أفريقيا إلى مركز مفاعل ديمونة النوويّ في إسرائيل، فكانوا الأجانب الوحيدين الذين أُطلعوا على الغرض الحقيقيّ من المنشأة. وعندما أجرت جنوب أفريقيا اختبارًا لقنبلة نوويّة بسيطة على جزيرة نائية في المحيط الهندي، كان العلماء الاسرائيليّون حاضرين لمراقبة الانفجار. وفي عام ١٩٧٢ اجتمع عازر

وايزمن، وكان أحد كبار المسؤولين في وزارة الدفاع الاسرائيليّة، مع رئيس الوزراء "بي دبل يو بوثا" في بريتوريا للمصادقة على "تفاهم" جديد. ووفق ذلك التفاهم تُهرع كلّ من الدولتين إلى نصرة الدولة الأخرى في حال تعرّضها لهجوم وحاجتها إلى المساعدة العسكريّة. وأمدّت إسرائيل جيش جنوب أفريقيا بكميّات كبرى من الأسلحة الأميركيّة الصنع، وحصلت بالمقابل على إذن باختبار القنابل النوويّة الأولى التي أنتجها مفاعل ديمونة في موقع ما في المحيط الهادي.

في هذا الوقت، تعمّقت العلاقة بين الموساد و"بوس". وبالإضافة إلى اتّباع الأساليب الوحشيّة في استجواب الموقوفين، وهي أساليب لم ينفطم عنها عملاء "بوس"، جاء مدرّبو الموساد بسلسلة من الأساليب الأخرى التي اختبروها في لبنان وأماكن أخرى: الحرمان من النوم، التقنيع، إرغام الموقوف على الوقوف على حائط لمدّة طويلة، عصر الأعضاء التناسليّة، وتشكيلة من صنوف التعذيب النفسيّ من التهديد بالقتل إلى الإعدامات المصطنعة... ورافق ضبّاط الموساد وحدات "بوس" في رحلاتهم إلى بلدان أفريقيّة سوداء مجاورة في مهامّ تخريبيّة. وعلّم قتلة الموساد الجنوب أفريقيّين كيف ينفّذون الاغتيالات من دون أن يخلّفوا آثارًا مربكة. وعندما عرض الموساد العثور على قادة المؤتمر الوطني الأفريقي ANC المقيمين في المنفى في بريطانيا أو أوروبّا حتّى يتمكّن "بوس" من قتلهم، لاقى العرض ترحيبًا. لكنّ حكومة بريتوريا نقضت الاقتراح لخشيتها من فقدان ما كانت تتلقّاه من دعم من أوساط سياسيّة محافظة في لندن.

كان هاجس الموساد و"بوس" اعتقادهما بأنّ أفريقيا تتمايل يسارًا نحو ثورة لن تلبث أن تجتاح بلديهما. ولاتّقاء حدوث ذلك، أباح الجهازان لنفسيهما استخدام كلّ وسيلة. كان كلّ منهما يتغذّى من خوف الآخر، ولذا لم يظهرا هوادة. وكانا على قناعة راسخة

بأنّهما وحدهما يعرفان كيف يتعاملان مع الأعداء. وهكذا أصبح "بوس" والموساد أشرس جهازي استخبارات خارجيّة في أفريقيا.

لم تطمئنّ واشنطن إلى مثل هذا التحالف، وخشيت وكالة CIA من أن يؤذي ذلك الجهود التي تبذلها لتعزيز سيطرتها على القارّة السوداء. فتحرُّر أفريقيا من الاستعمار في أوائل الستّينات ولّد اهتمامًا جديدًا بأفريقيا في داخل الوكالة الأميركيّة، تولّدت معه زيادة هائلة في النشاطات السريّة التي ترعاها. وأُنشئ قسم خاصّ بأفريقيا داخل بنائيّة الوكالة، وبحلول عام ١٩٦٣ كانت فروع للـ CIA قد أقيمت في كلّ بلد أفريقيّ. ومن أوائل من عملوا في أفريقيا "بيل بكلي" الذي قضى نحبه في لبنان بعد اختطافه على أيدي جماعات مسلّحة. وقبيل اختطافه ذكر بكلي أنّ تلك الحقبة التي أمضاها في أفريقيا "كانت بالفعل أوقاتًا عصيبة، "فكان الجميع يتنافسون على النفوذ، وقد وصلنا متأخّرين واعتبرنا الموساد دخلاء". وفي واشنطن بذلت وزارة الخارجيّة جهودًا سريّة لا تنقصها الجديّة لتحجيم النفوذ الاسرائيليّ في أفريقيا. فسرّبت معلومات مفصّلة عن نقل عدّة مئات من اليهود من جنوب أفريقيا إلى الشمال لمساعدة إسرائيل في خلال حرب السويس. وقطعت عشرون دولة أفريقيّة سوداء علاقاتها الدبلوماسيّة مع إسرائيل. وكان بين تلك الدول نيجيريا، حيث قطع العلاقات يهدّد بتوجيه ضربة قويّة إلى إسرائيل التي تتلقّى ستّين في المئة من احتياجاتها النفطيّة من نيجيريا مقابل أسلحة أمدّتها بها الولايات المتّحدة. ولكن على الرغم من قطع العلاقات الدبلوماسيّة فقد وافق رئيس الوزراء إسحق شامير على الاستمرار في تسليح نيجيريا سرًّا مقابل استمرار تدفّق النفط النيجيري إلى إسرائيل. ووصف بكلي ذلك بأنّه "مثال نموذجيّ للسياسة الواقعيّة". وكان المثال الآخر يتعلّق بتدعيم الموساد موقف شريكها المخلص "بوس". ففي أعقاب الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ عثر الموساد على كميّات ضخمة من

الوثائق التي تشي بالعلاقات القائمة بين منظّمة التحرير الفلسطينيّة و"المؤتمر الوطني الأفريقي"، شاغل "بوس" الدائم، وقد أحيلت المواد الجرميّة إلى "بوس" الذي عمد عملاؤه إلى اعتقال وتعذيب المئات من عناصر "المؤتمر".

كما تمكّن الموساد من الإيقاع بين الصينيّين والروس في عهد رئاسة مائير عميت للموساد، وأخذ الموساد يسبّب مضايقات كثيرة للـ CIA الأميركيّة ولجهاز المخابرات البريطاني MI 6 ، ووكالات استخبارات أوروبيّة أخرى تعمل في القارة الأفريقيّة، وذلك في عهد رئاسة ناحوم عدموني للموساد (١٩٨٢ ـ ١٩٨٩). فكلّما هدّد أحد هذه الأجهزة سلطان الموساد عمد هذا الأخير إلى فضح نشاطاته. ففي كينيا أقدم الموساد على تفجير عميل بريطانيّ، وفي زائير دمّر شبكة فرنسيّة، وفي تانزانيا تسبّب تسريب الموساد معلومات سريّة إلى صحافيّ محليّ بإجهاض عمليّة كانت تعدّها الاستخبارات الألمانيّة... وعندما حاول أحد قادة المقاومة الفلسطينيّة أبو نضال، الذي دبّر محاولة اغتيال السفير الاسرائيلي في بريطانيا "شلومو أرغوف" في ٣ حزيران ـ يونيو ١٩٨٢، أمام فندق "دورشستر" في لندن، اللجوء إلى السودان، وَعد الموساد النظام بمليون دولار مقابل القبض عليه حيًّا أو ميتًا. وفي النهاية انتقل أبو نضال إلى بغداد.

استغلّ الموساد القوميّة الأفريقيّة الناشئة في عدد كبير من البلدان. ويقول "ياكوف كوهين"، وهو أحد العملاء الذين عملوا في عدد من هذه البلدان: "إنّنا أمدّيناهم بقدرة استخباراتيّة ساعدتهم على التفوّق على المعارضة. وفي بلدان مثل نيجيريا، أدّى الصراع القبلي إلى اشتعال الحرب الأهليّة. وكانت سياستنا التعاون مع كلّ من يرغب بالتعاون معنا. ومكّننا ذلك من معرفة كلّ ما يحدث في البلد. وكنّا نرفع التقارير إلى مسؤولينا كلّما لحظنا أيّ تبدّل في المواقف، مهما يكن ضئيلاً، من شأنه أن يمسّ إسرائيل". وكان كوهين قبل انتقاله إلى أفريقيا قد أظهر تفوّقًا في المهامّ السريّة التي

أوكلت إليه في مصر وبلدان أخرى. وللتمويه على شخصيّته أخضع الموساد كوهين لعمليّة جراحيّة لتغيير شكل وجهه وبصورة خاصّة أنفه. وعندما خرج من المستشفى لم تتمكّن زوجته من التعرّف إليه وإلى أنفه إلاّ بصعوبة.

في رأس سنة ١٩٨٤ ورد في التقرير الاستخباراتيّ اليوميّ الذي يتلقّاه ناحوم عدموني نبأ عن وقوع انقلاب عسكريّ في نيجيريا دبّرته جمعيّة سريّة عسكريّة يتزعّمها لواء يدعى "محمّد بهاري". كان أوّل سؤال طرحه رئيس الوزراء شامير هو عن مصير إمدادات النفط النيجيري إلى إسرائيل بعد الانقلاب. غير أنّ أحدًا لم يكن يعلم. وطوال اليوم بُذلت جهود ملحّة للاتّصال بالنظام الجديد ولكن من دون جدوى. وفي اليوم الثاني لتسلّمه السلطة أذاع بهاري قائمة بأعضاء الحكومة السابقة المتّهمين بأنواع مختلفة من الجرائم. وكان على رأس القائمة "عمرو ديكو" وزير النقل المقال الذي اتُّهم باختلاس عدّة ملايين من الدولارات من أرباح مبيعات النفط من خزانة الدولة. كان ديكو قد فرّ إلى خارج البلاد ولم تنجح الجهود المضنية التي بُذلت للعثور عليه. فرأى عدموني أنّ الفرصة سانحة، فسافر إلى العاصمة النيجيريّة لاغوس بجواز السفر المفضّل لدى الموساد للمهمّات السريّة، وهو جواز سفر كنديّ. واستقبله بهاري في وقت متأخّر من الليل واستمع منه إلى عرض كان قد حظي بموافقة رابين: في مقابل ضمانة بعدم قطع إمدادات النفط عن إسرائيل، يعمل الموساد على العثور على ديكو وإعادته إلى نيجيريا. وسأل بهاري: "هل يتمكّن الموساد من تعيين المكان الذي خبّأ فيه ديكو ما سرقه من أموال"؟ فقال عدموني إنّ المال لا بدّ أن يكون قد أودع في حسابات مصرفيّة سويسريّة مرقّمة، وسيكون من المستحيل التعرّف إليها إلاّ إذا وافق ديكو نفسه على الكشف عن تفاصيلها. وابتسم بهاري لأوّل مرّة في خلال اللقاء. فمتى أعيد ديكو إلى نيجيريا فلن تُعدم الحكومة النيجيريّة وسيلة لجعله يكشف عن التفاصيل

المطلوبة. وسأل بهاري أخيرًا: "هل يُرضي الموساد أن تتعاون مع أجهزة الأمن النيجيريّة ولا تدّعي الفضل في القبض على ديكو إذا تمكّنت من العثور عليه"؟ ووافق عدموني، فلن يجني الموساد مجدًا من عمليّة ستكون غاية في السهولة.

وسرعان ما أُعلنت تعبئة "جواسيس شظف العيش" الإسرائيليّين بقيادة رافي إيتان في أنحاء أوروبّا. وأُرسل عملاء الموساد ليلقوا شباكهم في الحيّز الممتدّ من إسبانيا إلى السويد. واستُنفر المتطوّعون لخدمة الموساد في عشرات البلدان. فطُلب من الأطبّاء التنبّه في حال احتياج ديكو إلى العناية الطبيّة أو استشارة جرّاح تجميل لتغيير ملامحه. وراح بوّابو الفنادق في المرابع التي كان ديكو يرتادها في "سانت موريتز" و"مونتي كارلو" يحدّقون النظر علّهم يعثرون عليه. وصدرت التعليمات إلى موظّفي وكالات تأجير السيّارات من مدريد إلى ميونيخ لإبلاغ من يلزم إذا استأجر سيّارة. وطُلب من المتطوّعين العاملين لدى جميع شركات بطاقات الائتمان التدقيق في ما إذا كان استخدم أيًّا من بطاقاته. وحفظ النادلون أوصاف ديكو عن ظهر قلب، وحفظ الخيّاطون مقاسات ثيابه، وصانعو القمصان مقاس ياقته، ووزّعت على صانعي الأحذية من روما إلى باريس تفاصيل مقاس رجل ديكو للأحذية المصنوعة بناء على الطلب التي كان يستعملها. وفي لندن طُلب من "روبرت ماكسويل" أن يرصد السمع أثناء اتّصاله بالديبلوماسيّين الأفارقة الواسعي الاطّلاع لما يتهامسون في شأن مكان ديكو. وكغيره من المتطوّعين، عيّن ماكسويل نقطة الهدف المركزيّة.

بعد مضيّ سبعة أشهر بالضبط على فرار ديكو من لاغوس عاد إلى الظهور. ففي ٣٠ حزيران - يونيو ١٩٨٤، كان عميل للموساد يقيم في لندن يقود سيّارته في شارع "كوينز واي"، وهو زقاق متفرّع من "بييز ووتر"، حين لمح شخصًا تنطبق عليه أوصاف عمرو ديكو. كان يبدو أكبر سنًّا وأكثر نحولاً ممّا وُصف له، لكنّه كان هو

بوجهه العريض وعينيه السوداوين اللتين لم تعاودا النظر إلى سيّارة العميل الذي ما إن عثر على مكان لركن سيّارته حتّى ترجّل منها وسار على قدميه ليتعقّب ديكو إلى منزل قريب من شارع "دورتشيستر تيراس". وأخطر العميل عدموني على الفور فأمر بأن يقتصر العمل في ذلك الوقت على إخضاع المنزل للمراقبة على مدار الساعة. وهكذا طوال الأيّام الثلاثة الأولى من تمّوز - يوليو ١٩٨٤ داوم عميلان على مراقبة ديكو باستمرار. وفي الوقت نفسه حوّل النيجيريّون سفارتهم في لندن قاعدةً للتحضير لعمليّة اختطاف ذات شبَه عظيم بعمليّة اختطاف الاسرائيليّين لـ"أدولف أيخمان". وفي خروج على المألوف أُسند دور رئيسيّ في العمليّة إلى شخص من خارج الموساد، وهو طبيب تخدير يتمتّع بسمعة جيّدة يدعى "ليفي آري شابيرو"، يعمل مديرًا لوحدة العناية الفائقة في مستشفى "حشرون" في تلّ أبيب. وكان شابيرو قد جُنّد على يد "ألكسندر باراك"، وهو عميل للموساد استصرخ وطنيّة الطبيب فوافق على السفر إلى لندن، وعلى إنفاق الألف دولار التي كان باراك قد قدّمها له ليدفعها ثمنًا لمعدّات طبيّة بينها مخدّر طبّي وأنبوب يدخل في القصبة الهوائيّة. أمّا التعليمات الأخرى فسوف تُعطى له في لندن. ورفض شابيرو تقاضي المال عن الخدمات التي سيقدّمها.

كان عميل موساد آخر هو "فليكس أبيثول" قد وصل إلى لندن في رحلة قادمة من أمستردام في ٢ تمّوز - يوليو ونزل في فندق "راسل سكوير"، وكان أوّل أمر أصدره إلى الفريق النيجيري "يوسفو" هو استئجار شاحنة نقل صغيرة، فاختار أحد رجاله واحدة لونها أصفر فاتح لامع. ولعلّه عند هذا الحدّ بدأت تتكشّف تفاصيل الخطّة. ففي وقت متأخّر من ليل ٣ تمّوز - يوليو حطّت طائرة شحن من طراز "بوينغ ٧٠٧" تابعة للخطوط الجويّة النيجيريّة في مطار "ستانستد" على بعد ٣٠ ميلاً شمال شرقي لندن. وكانت الطائرة قد أقلعت من لاغوس وهي فارغة، وأبلغ قبطانها سلطات المطار بأنّه

جاء لينقل حقيبة ديبلوماسيّة من سفارة نيجيريا في لندن. وإلى جانب الطـاقم كـان علـى الطائرة عدد من رجال الأمن النيجيريّين الذين عرّفوا بأنفسهم صراحة وقالوا إنّهم مكلّفون بحراسة الحقيبة. وقد أُخطرت الشعبة الخاصّة في شرطة سكوتلانديارد بوجودهم.

كانت في الشهر السابق قد صدرت مزاعم عدّة عن تهديدات يطلقها نظام لاغوس العسكريّ ضدّ المنفيّين النيجيريّين في لندن. فطُلب من رجال الأمن النيجيريّين عدم مغادرة المطار. وفي ما خلا عدّة زيارات قاموا بها إلى مقهى المطار، فقد بقوا طوال الوقت على متن الطائرة.

صباح اليوم التالي خرجت الشاحنة الصفراء من مرآب في "توتنغ هيل غيت" الذي كان أحد النيجيريّين قد استأجره. وكان "يوسفو" يقود الشاحنة. وكان مختبئًا في المؤخّرة الدكتور شابيرو وإلى جانبه صندوق، وبقرب شابيرو كان باراك وأبيثول، ورجلان نيجيريّان. وعند الظهر حدّد قبطان الطائرة النيجيريّة في مطار ستانستد موعدًا للمغادرة إلى لاغوس الساعة الثالثة من بعد الظهر. وذكر بيان الرحلة أنّ الشحنة مؤلّفة من صندوقين من الوثائق مرسلَين إلى وزارة الخارجيّة في لاغوس. وأشار البيان إلى أنّ الصندوقين مشمولان بالحصانة الديبلوماسيّة. وقبيل الظهر سارت الشاحنة الصفراء على الطريق العام ورُكنت خارج المنزل في "دورتستر تيراس". وبعد قليل ظهر عمرو ديكو الذي كان في طريقه لتناول الغداء مع أحد الأصدقاء في مطعم قريب. ومن النافذة أطلّت سكرتيرته الخاصّة "إليزابيت هاينر" لتراقبه. وحالما ابتعدت انفتح الباب الخلفيّ للشاحنة وأمسك رجلان داكنا البشرة السيّد ديكو وحشراه داخل مؤخّرة الشاحنة. وقد تمكّن بالكاد من إطلاق صيحة قبل أن يقفزا خلفه وتنطلق الشاحنة بأقصى سرعة". وحين استعادة السكرتيرة وعيها اتّصلت برقم الطوارئ.

وخلال دقائق حضر رجال الشرطة وفي أعقابهم الكوماندور "وليم هاكلسبي" من فرقة مكافحة الإرهاب التابعة لشرطة سكوتلانديارد. وإذ ارتاب في ما حدث، أبلغ كلّ الموانئ البحريّة والجويّة. ورأى هاكلسبي أنّ للموقف صعوباته الخاصّة. فإذا كان النظام النيجيريّ قد خطف ديكو، فإنّ الحادث سيثير قضايا سياسيّة شائكة. فجرى إبلاغ وزارة الخارجيّة وكذلك مقرّ مجلس الوزراء بالحادث، فصدرت الأوامر لهاكلسبي باتّخاذ ما يراه مناسبًا من إجراءات. في هذا الوقت، وصلت الشاحنة الصفراء بعيد الثالثة عصرًا إلى ميناء الشحن في مطار ستانستد. فأبرز يوسفو جواز سفره الديبلوماسي النيجيري لمأموري الجمارك في المطار فراحوا يراقبون تحميل الصندوقين على متن الطائرة. ويذكر أحد المأمورين، ويدعى "تشارلز مورو"، أنّه "كان في أحد المستوعبين ما أثار ارتيابي. ثمّ سمعت صوتًا يصدر من أحدهما. فقلت لنفسي: ليذهبوا إلى الجحيم. إنّ الحصانة الديبلوماسيّة لن تمنعني من معرفة ما في الداخل". فجرى إنزال الصندوقين من الطائرة ونُقلا إلى حظيرة طائرات من دون اكتراث باحتجاجات "يوسفو" الغاضب وتذرّعه بالحصانة الدبلوماسيّة. في الصندوق الأوّل عُثر على عمرو ديكو موثوقًا وغائبًا عن الوعي من تأثير المخدّر، وكان يجلس إلى جانبه الدكتور شابيرو وفي يده حقنة أعدّها ليزيد من جرعة التخدير لديكو. وكان في بلعوم ديكو أنبوب حُشر في القصبة الهوائيّة لتجنيبه الاختناق من تقيّئه. أمّا في الصندوق الثاني فعُثر على باراك وأبيثول.

عندما قُدّم العميلان للمحاكمة زعما بإصرار أنّهما من المرتزقة ويقومان بمهمّة بتكليف من مجموعة من رجال الأعمال النيجيريّين الذين يريدون إعادة ديكو إلى بلاده لمحاكمته. وجرى استئجار أحد أشهر المحامين البريطانيّين وأغلاهم أجرًا: "جورج كارمن"، للدفاع عنهما. وفي ختام مرافعته أبلغ كارمن إلى المحكمة أنّه "من الجائز أن

يكون التفسير الأكثر منطقيّة هو أنّ الاستخبارات الاسرائيليّة لم تكن بعيدة عـن العمليّـة بأكملها"... غير أنّ الادّعاء لم يقدّم أيّ دليل من شأنه أن يشير إلـى تـورّط الموسـاد. وتُرك ذلك الأمر للقاضي ليقوله في حكه، فأبلغ هيئة المحلّفين "أنّ إصبع التـورّط يتّجـه بصورة مؤكّدة إلى الموساد".

حُكم على باراك بالسجن لمدّة أربعة عشر عامًا، وعلـى كلّ مـن الدكتـور شـابيرو وأبيثول بعشر سنوات. وحُكم على "يوسفو" بالسجن لمدّة اثني عشر عامًـا. وقد أُفرج عن الجميع في ما بعد لحسن السلوك، وجرى ترحيلهم بهدوء إلى إسرائيل. وكما هو الحال بالنسبة لآخرين سبقوهم في خدمة الموساد، اتّخذ الجهاز تدابير تقضي ببقائهم في الظلّ فلا يردّون على الأسئلة المزعجة مـن نـوع هل لا يـزال الدكتـور شـابيرو الـذي حنث بقسم أبيقراط بهذه الصورة الفاضحة يمارس الطبّ؟ ولمصلحة من؟

بنتيجة تلك العمليّة أبلغ جهاز MI 5 البريطاني رئيس الموساد ناحوم عدمونـي أنّـه إذا حدثت هفوة أخرى فسيُعتبر الموساد جهازًا غير وديّ. في هـذا الوقت كـان رئيـس الموساد يضع خططًا لعمليّـة أخرى تهدف إلـى تذكير البريطـانيّين بمـن هـم الأعـداء الحقيقيّون، وفي الوقت نفسه تُكسبُ إسرائيل بعض العطف[١].

والأهمّ من ذلك كلّه، أنّ النفط النيجيريّ قد استمرّ بالتدفّق إلى إسرائيل.

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص ٢٧٣ ـ ٢٨٦.

شارون في مُواجهَة القذّافي

عندما كان إيرييل شارون وزيرًا للدفاع في حكومة مناحيم بيغن، وفي خلال صيف سنة ١٩٨٢، إذ كان شارون غارقًا في الحرب على لبنان وقوّته تصارع الرمال المتحرّكة في بيروت، وقد وافق مناحيم بيغن على تشكيل لجنة خاصّة للتحقيق في مجزرة مخيّمي صبرا وشاتيلا بالقرب من بيروت التي قضى فيها حوالى سبعمائة من الفلسطينيّين، وكانت تلك اللجنة برئاسة "إسحق كاهان" رئيس محكمة العدل العليا السابق، لتقصّي ما إذا كان للقوّات الإسرائيليّة دخل بفظائع صبرا وشاتيلا. وفي انتظار حكم "لجنة كاهان"، واصل شارون المضيّ قدمًا في مشاريعه الاستراتيجيّة في أماكن أخرى. ورأى فرصة سانحة في أفريقيا لتوجيه لكمة إلى أنف العقيد الليبي معمّر القذّافي المحارب الإسلامي ضدّ الصهيونيّة.

في تلك الحقبة، كانت ولاية إسحق حوفي في رئاسة الموساد تشارف على نهايتها، وكان يتمّ التحضير ليخلفه في منصبه نائبه ناحوم عدموني.

كان الليبيّون متورّطين بنشاط في حرب أهليّة في تشاد التي تقع جنوب شرق ليبيا. وساند القذّافي المتمرّدين ضدّ الحكومة. وإلى الشرق مباشرة من تشاد، كان الرئيس السوداني جعفر النميري يخشى ليبيا، ويبذل أقصى ما في وسعه لمساعدة الرئيس التشادي "حسين حبري" الموالي للغرب.

كان الإسرائيليّون ناقمين على القذّافي، بصفة خاصّة، لأنّه أعاق جهودهم النشطة في بداية الثمانينات لاستعادة نفوذهم في أفريقيا. فقد قام هذا الثوريّ الليبيّ بتهديد

وابتزاز ورشوة رفاقه من الزعماء الأفارقة كيلا يستأنفوا علاقاتهم الدبلوماسيّة مع الدولة اليهوديّة. وقد أدّت الحقيقة التي مفادها أنّه يؤيّد أكثر الجماعات الإرهابيّة تعصّبًا وعنفًا في أوروبّا والعالم العربيّ إلى تجسيد أهميّة الهدف المشترك لإسرائيل والولايات المتّحدة، وهو إضعاف الزعيم الليبيّ كلّما كان ذلك ممكنًا على أمل أن تتمّ الإطاحة به في نهاية المطاف.

كلّف شارون مساعده الجنرال "تامير" شخصيًّا باستكشاف إمكانات القيام بعمل ضدّ ليبيا. وفي تشرين الأوّل ـ نوفمبر ١٩٨٢، اختفى تامير من إسرائيل كعادته المتكرّرة بوصفه مبعوثًا سرّيًّا. فقد طار تامير إلى باريس لعقد اجتماع مع وزير تشاديّ كبير. وناقشا الصراع في شمال أفريقيا، والتهديد بشأن التدخّل المباشر من جانب الجيش الليبيّ.

بدا المسؤول التشاديّ متفائلاً بصدد إمكانيّة قيام قوّات حبري بهزيمة المتمرّدين، لكنّه أعرب عن خشيته من الدخول في معركة شاملة مع قوّات القذّافي. وكانت تشاد تضغط على فرنسا لتلتزم بإرسال الجيش الفرنسيّ، إذا ما تدخّل الليبيّون ودخلوا تشاد من ناحية الشمال.

إستنتج تامير، إستنادًا على كلّ ما سمع، أنّه من الضروريّ أن يكون لإسرائيل وجود عسكريّ صغير في تشاد. وقد سعى إلى الحصول على أفضل النتائج: أن تتحمّل فرنسا عبء إنقاذ حكومة حبري، بينما يمكن لإسرائيل أن تتولّى جزئيًّا على الأقلّ توجيه نكسة إلى القذّافي. واتّفق تامير والوزير التشاديّ في باريس على أن يقوم الأوّل بزيارة "نجامينا" عاصمة تشاد، توصّلاً إلى تفاصيل حلقة اتّصالات سريّة مع إسرائيل. وبعد أسبوعين، تمّ استقبال الإشارة المنتظرة من تشاد، وارتدى تامير ملابس مدنيّة للطيران إلى باريس، ومن هناك طار في رحلة طويلة مضنيّة إلى نجامينا، وهي مدينة

يعيش فيها نصف مليون نسمة، ويبدو عليها دمار حرب شرّيرة حقًا. فكثير من منازل العاصمة التشاديّة تمّ تدميرها، والطرق مليئة بالحفر، والأنقاض منتشرة في المدينة بأسرها. علمًا بأن كلمة "تجامينا" تعني بإحدى اللغات المحليّة "المدينة التي يرتاح فيها المرء"، لكنّ الجنرال الإسرائيليّ لم يذق طعم الراحة. فبعد وصوله مباشرة، هرع إلى قصر الرئاسة للقاء حبري، واستمرّت المباحثات بينهما طوال الليل، وفي الصباح أُخذ الجنرال في جولة لاستطلاع الخطوط الأماميّة للجبهة في الصحراء الشماليّة. واتّفق الجانبان على أن ترسل إسرائيل خبراء عسكريّين إلى تشاد لمساعدة جيشها في الحرب الأهليّة وفي المعركة ضدّ ليبيا. وعاد تامير إلى إسرائيل عن طريق باريس، وقدّم تقريرًا إلى شارون.

ويقول مراقبون إنّه في المرّة التالية، كان الدور على شارون ليسافر. ففي الرابع من شباط ـ فبراير ١٩٨٣، زار شارون عددًا من البلاد الأفريقيّة ليقترح استئناف العلاقات الدبلوماسيّة في مقابل الحصول على مساعدات عسكريّة من إسرائيل. وكانت عشرات الدول الأفريقيّة قد التزمت بقرار منظّمة الوحدة الأفريقيّة الصادر في أواخر سنة ١٩٧٣ والذي يدعو الدول الأفريقيّة لقطع روابطها مع إسرائيل، ردًّا على حرب يوم الغفران أو يوم كيبور، وتماشيًا مع الحظر البترولي الذي تلاها فجعل البترودولارات العربيّة قيمة لم يسبق لها مثيل.

وفي خلال زيارته لإسرائيل، لم يلتق شارون بالرئيس الزائيري "موبوتو سيسي سيكو" فحسب، بل أيضًا بالرئيس التشادي حبري. وتوصّلوا إلى التقاء عقولهم حول الحاجة لمواجهة "التخريب الليبيّ". وفي إيماءة فوريّة إلى تشاد، أهدى شارون إلى حبري شحنة من الأسلحة الخفيفة جاءت بالطائرة من إسرائيل خصّيصًا له. وفي خلال

مدّة زمنيّة قصيرة للغاية، بعث الجيش الإسرائيليّ بوفد يضمّ ١٥ مستشارًا إلى نجامينا من كتيبة سريّة تتمركز بالفعل في زايير.

عندما اكتشف الموساد مهمّة تامير السريّة ودبلوماسيّة شارون الشخصيّة، استشاط ناحوم عدموني رئيس الموساد الجديد غضبًا، فأفريقيا، من الناحية التقليديّة، من اختصاص الموساد، وليست من اختصاص وزارة الدفاع. لكنّ العمليّة بأسرها تمّ تنفيذها من خلف ظهر الموساد، ولم يُبدِ شارون أيّ نيّة تشير إلى اعتزامه إبلاغ الموساد. فشكا عدموني الأمر إلى بيغن رئيس الوزراء، مشيرًا إلى أنّه من الخطورة بمكان أن يتمركز ضبّاط الجيش الإسرائيليّ في بلد نظامه غير مستقرّ، وحيث يمكن للمتمرّدين أن تكون لهم اليد العليا في أيّ وقت. بل إنّ المخاطر كانت أكبر من ذلك، لأنّ المستشارين العسكريّين الإسرائيليّين في تشاد يمكن أخذهم سجناء من قبل القوّات الليبيّة في الخطوط الأماميّة.

دافع شارون وتامير عن غزوتهما الدبلوماسيّة أمام بيغن مؤكّدَين على مميّزات مساعدة الأفارقة المعتدلين والعرب المعتدلين مثل النميري رئيس السودان في محاولة لهزيمة العقيد القذّافي. غير أنّ رئيس الوزراء قد قرّر بأنّ عدموني على حقّ في ما يتعلّق بالمخاطر، وبالإتيكيت البيروقراطيّ الذي يقضي بإشراك الموساد في موضوعات الدبلوماسيّة السريّة. وصدرت التعليمات إلى الضبّاط الإسرائيليّين الخمسة عشر في تشاد بالعودة إلى الوطن[١].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١) ص٣٩٧ ـ ٤٠٢.

خَطفُ المُوسَاد للطائرَة المدَنيَّة الليبيَّة

في صباح يوم صاف من أيّام شهر شباط ـ فبراير ١٩٨٦، انقضّت طائرتان حربيّتان إسرائيليّتان على طائرة خاصّة من طراز "ليرجيت" مسجّلة في ليبيا كانت تطير من طرابلس الغرب إلى دمشق. كانت الطائرة المدنيّة في المجال الجوّي الدوليّ على ارتفاع ثلاثين ألف قدم فوق البحر المتوسّط وتهمّ بالدخول إلى المجال السوريّ. وكان على متنها وفود عائدة من مؤتمر يضمّ منظّمات فلسطينيّة وعربيّة أخرى كان العقيد معمّر القذّافي قد عقده لمناقشة سبل التصدّي لإسرائيل.

أثار منظر المقاتلتَين الاسرائيليّتين وهما تطيران على جانبي طائرة ليرجيت حالة قلق شديد وسط المسافرين الأربعة عشر. فقد شاهد ركّاب الطائرة المدنيّة، الذين عادوا قبل قليل من مؤتمر كانوا فيه ينادون بتدمير إسرائيل، أعداءهم بوجوههم الكالحة يحدّقون بهم. وهزّت إحدى المقاتلات جناحيها في إشارة إلى الطيّار باللحاق بها. وأرفق أحد الإسرائيليّين ذلك بالإشارة بيده إلى الأمام ثمّ إلى أسفل باتّجاه الجليل. وارتفعت أصوات بعض النسوة من الركّاب بالعويل، في حين أسلم بعض الرجال أمرهم لله. كانوا كلّهم يعرفون أنّ مثل هذا العمل القرصاني وارد، وأنّ أعداءهم الملعونين قادرون على مدّ أيديهم واختطافهم من الجوّ.

أطلقت إحدى الطائرتين رشقًا صغيرًا من مدفعها لتحذير قبطان طائرة ليرجيت من التفكير بطلب النجدة من القوّة الجويّة السوريّة التي كانت على مسافة دقائق طيران قليلة. وفيما كانت الطائرة المدنيّة تهبط باتّجاه شمال إسرائيل، كان غير مسافر على

متن طائرة "ليرجيت" يتساءلون عمّا إذا كانوا سينزلون في أحد السجون الإسرائيليّة كردّ فعل انتقاميّ إسرائيليّ. وبينما استمرّت المقاتلتان الإسرائيليّتان في التحليق شبه متلاصقتين حطّت الطائرة المدنيّة المخطوفة في مطار عسكريّ في شمال الجليل. كان بانتظارها فريق من المحقّقين من جهاز المخابرات الإسرائيليّة "أمان". وقد قال لهم الموساد أنّ على متن الطائرة اثنين من أعتى المناضلين في العالم، أبو نضال الشهير ومعادلُه في الشهرة المخيفة أحمد جبريل. ولكن بدلاً من هذين وجد المحقّقون أنفسهم يستجوبون شلّة من الناس المدنيّين ممّن لا ذكر لأيّ منهم في لوائح المطلوبين من قبل إسرائيل. فسُمح للطائرة الخاصّة بالمغادرة وعليها ركّابها.

استمرّت إسرائيل بالزعم بأنّ وراء اعتراضها واختطافها الطائرة المدنيّة احتمال القبض على "إرهابيّين"، أمّا في صفوف الموساد فقد ساد جوّ بوجوب استغلال أيّ فرصة تتاح لخلق الرعب والذعر في أفئدة العرب. وشعر محقّقو أمان ببعض الرضى إذ عرفوا أنّ المسافرين سيعزّزون صورة إسرائيل "التي لا تُقهَر". أمّا "أيهود باراك" رئيس أمان، فقد اعتبر العمليّة مثالاً جديدًا على تسرّع الموساد، وقد أوضح شعوره هذا لناحوم عدموني.

ولمّا كان رئيس الموساد رجلاً لا يحتمل الخطأ أو التوبيخ، فقد مضى يعدُّ لعمليّة لا تقتصر نتائجها على وضع حدّ لاستخفاف محطّات الإذاعة العربيّة بالموساد الذي نزل مستواه إلى حدّ إجبار طائرة مدنيّة عزلاء على الهبوط، بل وضع حدّ أيضًا لانتقادات أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة نفسها للجهاز الذي يرأسه، وطلبها إليه أن يكون على بيّنة من أمره في المرّات المقبلة حتّى لا يُضحك العالم عليهم[1].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٢٨٧ ـ ٢٩٠.

مؤامرة الموساد للإيقاع بين لندن ودمشق

جنّد الموساد لعمليّة الإيقاع بين دمشق ولندن المهارات المختلفة اختلافًا كبيرًا لرجلين أحدهما ضابط موساد خدم في بريطانيا باسم مستعار هو "توف ليفي"، والثاني مخبر فلسطينيّ يُعرف باسم رمزيّ هو "أبو". كان هذا قد جُنّد بعدما ضبطه الموساد وهو يسرق أموال منظّمة التحرير الفلسطينيّة التي كانت بإدارته في إحدى القرى على الحدود الأردنيّة ـ الإسرائيليّة. واستغلّ الموساد خوف "أبو" من انكشاف أمر سرقته إلى زعيم القرية، الأمر الذي كان سيؤدّي إلى موته، فشنّ حملة اضطهاد ضدّه اضطرّته إلى الرحيل إلى لندن بعد تزويده بوثائق مزوّرة تزعم أنّه رجل أعمال، وكذلك بنفقات معيشة تتناسب مع دوره كرجل مسرف كبير ومن طراز رفيع. كان رئيسه المباشر توف ليفي.

كان "أبو" يحمل المواصفات الكلاسيكيّة التي يطلبها "عوزي ماهنايمي"، وهو عضو سابق في أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة، في العميل: "يجب أن تمضي معه الساعات وربّما الأيّام، وأن تعلّمه كلّ ما يحتاج إلى معرفته، وتراجع معه تمارينه وتساعده وتبني معه علاقة اجتماعيّة، وتتفرّج على صور عائلته وتعرف أسماء أولاده وأعمارهم. لكنّ العميل ليس إنسانًا ويجب ألاّ تفكّر به هكذا. إنّ العميل مجرّد سلاح، ووسيلة لتحقيق غاية مثل بندقيّة الكلاشنيكوف... هذا كلّ ما في الأمر. إذا كان عليك أن ترسله إلى المشنقة فلا تفكّر بالأمر. إنّ العميل دائمًا رمز وليس شخصًا".

لعب "أبو" دوره بإتقان كامل وأصبح شخصيّة مألوفة في كازينوات الميسر في منطقة "ماي فير" في لندن. ونظرًا لنجاحه، فقد جرى غضّ الطرف عن شهيّته الجنسيّة وحفلات السكر. وإذ كان يرتاد مثاوي تجّار الأسلحة والأثرياء من أنصار منظّمة التحرير الفلسطينيّة فقد تمكّن من جمع المعلومات التي سهّلت للموساد توجيه الضربات للمقاومة الفلسطينيّة. ونتيجة لمعلومات أمدّه بها "أبو"، تمكّن الموساد من قتل خمسة عشر رجلاً من رجال منظّمة التحرير في غضون أسابيع قليلة.

جرت بعض اللقاءات بين "أبو" وبين توف ليفي في حانات ومطاعم فندق هيلتون على شارع "بارك لين" في لندن. كانت تعمل هناك امرأة إيرلنديّة من دبلن تدعى "آن ـ ماري ميرفي". ومثل كثيرين من الإيرلنديّين، قطعت آن ـ ماري بحر إيرلندا إلى لندن تحت إغراء جمع الثروة. وكلّ ما استطاعت أن تحصل عليه هو وظيفة خادمة. كان راتبها صغيرًا وساعات العمل طويلة. وكانت تمضي أوقات فراغها القصيرة في الحانات القائمة في منطقة "شبردس بوش" التي تحوّلت منذ زمن بعيد إلى مأوى للمهاجرين الإيرلنديّين. كانت تنضمّ إلى المنشدين أغاني الثوّار وتطيل الاحتساء من الجعة السوداء. ثمّ تعود من بعد إلى غرفتها الموحشة وتستعدّ ليوم طويل آخر تغيّر فيه أغطية الأسرّة وتنظّف المغاسل، وتجعل كلّ غرفة في الفندق تلمع كما ينبغي أن تكون غرف الهيلتون. لم يكن لعملها أيّ أفق مستقبليّ.

قبيل عيد الميلاد عام ١٩٨٥ كانت آن ـ ماري حزينة جدًّا وهي تفكّر بتمضية العطلة وحيدة في مدينة تختلف تمامًا عن دبلن المرحة التي تشتاق إليها. وقتها التقت بشابّ عربيّ أسمر اللون جميل العينين. كان يرتدي بزّة من الحرير ويضع ربطة عنق لافتة ويوحي الوفرة والثراء. عندما ابتسم لها ابتسمت له. كان اسمه "نزار هنداوي" من أقرباء "أبو" الأبعدين. كان نزار في الخامسة والثلاثين من العمر، لكنّه كذب عليها

فحذف ثلاث سنوات من عمره ليجعله مساويًا لعمرها: ٣٢ سنة. واستمرّ بكذبه وهو يتحدّث إلى المرأة الساذجة الواثقة.

كان لقاؤهما في حانة قريبة من مسرح محطّة تلفزة هيئة الإذاعة البريطانيّة BBC في ساحة "شبردس بوش غرين". وكانت تلك أوّل مرة تأتي آن ـ ماري إلى هذه الحانة. وقد أدهشها أن تجد هنداوي وسط العمّال غير المهرة ذوي الوجوه المتورّدة الذين يتكلّمون بكلّ لهجات المقاطعات الإيرلنديّة. لكنّ هنداوي كان يعرف العديد من الشاربين ويتجاوب مع مزاحهم الفظّ ويدفع ثمن الشراب عندما يحين دوره. وكان الهنداوي يتردّد منذ أسابيع على الحانة آملاً بإقامة اتّصال مع "الجيش الجمهوري الإيرلندي". كان "أبو" قد طلب إليه ذلك من دون أن يشرح له السبب كما هي عادته. وقد فشلت المحاولات التي بذلها هنداوي لمناقشة الوضع السياسي في إيرلندا لأنّ الشباب كانوا يفضّلون تجرّع الجعة. وكائنًا ما يكون مخطّط "أبو" فهو سيبقى سرًّا محجوبًا عن هنداوي. ومع تعرّفه إلى آن ـ ماري بات تفكيره منصبًّا على أمور أخرى.

لقد أُعجبت آن ـ ماري بحسن تصرّفات نزار هنداوي ولياقته، ولم تلبث أن راحت تضحك لقصصه عن حياته في الشرق الأوسط. لم تكن آن ـ ماري قد سافرت سوى إلى لندن، ولذا فقد بدا ما يقوله نزار شبيهًا برواية خياليّة من قصص ألف ليلة وليلة. تلك الليلة أوصلها هنداوي بسيّارته إلى بيتها وقبّل وجنتيها ورحل. وتساءلت آن ـ ماري عمّا إذا كان الشعور بالدوار الذي انتابها هو العلامة الأولى على الوقوع في الحبّ.

في اليوم التالي اصطحب نزار هنداوي آن ـ ماري لتناول الغداء في مطعم سوريّ وعرّفها على مباهج الطبخ العربيّ.

كانت آن ـ ماري ثملة من تناول النبيذ اللبنانيّ الفاخر فلم تبدِ مقاومة رمزيّة عندما أخذها هنداوي إلى شقّته. بعد ظهر ذلك اليوم عاشرها معاشرة الأزواج. كانت عذراء، ولأنّها نشأت في بيئة كاثوليكيّة إيرلنديّة معارضة لوسائل منع الحمل، لم تتّخذ أيّ تدابير احتياطيّة.

في شباط ـ فبراير ١٩٨٦، اكتشفت آن ـ ماري أنّها حامل، فأطلعت هنداوي الذي ابتسم مطمئِنًا إيّاها قائلاً إنّه سيتدبّر أمر كلّ شيء. ذُعرت آن ـ ماري وقالت إنّها لن توافق على الإجهاض، فقال إنّ الفكرة لم تخطر بباله.

الواقع أنّ هنداوي أصيب بالذعر إزاء احتمال اضطراره للزواج من امرأة اعتبرها دونه اجتماعيًّا. كما كان يخشى أن تذهب إلى السلطات وتتقدّم بشكوى. لم يكن هنداوي يعلم أنّ السلطات الرسميّة البريطانيّة لا تأبه لمثل هذه الأمور، فظنّ أنّه سيفقد حقّه بالإقامة في بريطانيا، ويرحّل كأجنبيّ غير مرغوب فيه. عندئذ لجأ هنداوي إلى السند الوحيد الذي يعرفه: قريبه "أبو"، الذي كان غارقًا في همومه الخاصّة، فقد خسر مبلغًا كبيرًا من المال في لعب الميسر.

قال "أبو" لهنداوي صراحة إنّه لن يُقرضه المال الذي كان يعتزم أن يقدّمه لآن ـ ماري لتعود إلى دبلن وتضع الطفل وتعرضه للتبنّي. ذلك أنّها كانت قد قالت له إنّ هذا أمر شائع في إيرلندا.

في اليوم التالي التقى "أبو" بتوف ليفي. وأثناء تناولهما العشاء أبلغ عميل الموساد "أبو" أنّه بحاجة لعمل ما يتسبّب بإغلاق الحكومة البريطانيّة للسفارة السوريّة في لندن وطرد موظّفيها الذين تشتبه لندن منذ زمن بعيد بأنّهم ضالعون في نشاطات إرهابيّة، غير أنّ الأمر لم يتعدّ الاشتباه. وقال ليفي إنّه بحاجة إلى "صنّارة" ليحقّق هذا الغرض. أي لصق عمل إرهابيّ ما بالسفارة السوريّة في لندن. وسأل ليفي "أبو" عمّا إذا كان

بإمكانه أن يخبره عن أحد، عن شيء يمكن الإفادة منه؟ فذكر "أبو" أنّ قريبًا له في لندن له صديقة إيرلنديّة حامل...

كان الموساد مصممًا على توجيه ضربة قويّة لإجبار بريطانيا على قطع علاقاتها الدبلوماسيّة مع دمشق بإقفال سفارتها في لندن التي طالما اعتبرها الموساد إحدى البعثات الأساسيّة في أوروبّا التي تتآمر على إسرائيل. كانت المؤامرة الاسرائيليّة تخصّ "أبو"، قريب نزار هنداوي، بالدور الرئيسيّ.

بعد حديثه على مائدة العشاء مع توف ليفي بحث "أبو" عن هنداوي واعتذر منه عن إظهاره اللامبالاة إزاء مشكلة آن - ماري. فهو مستعدّ لتقديم المساعدة ولكنّه بحاجة إلى بعض الأجوبة: هل ستحتفظ آن - ماري بالطفل؟ هل لا تزال تضغط عليه للاقتران بها؟ هل يحب الفتاة؟ إنّهما ينتميان إلى ثقافتَين مختلفتين والزواج المختلط نادرًا ما أفلح... وردّ هنداوي بأنّه لا يعرف إذا كان يحبّ آن - ماري. لقد أصبحت سيّئة الطبع كثيرة البكاء ودائمة السؤال عمّا سيحدث لها. وهو متأكّد من أنّه لا يريد الزواج بها. وهنا قدّم "أبو" إلى قريبه عشرة آلاف دولار وهو مبلغ يكفي ليتخلّص من آن – ماري ويعود إلى حياة العزوبيّة في لندن. كان الموساد هو من قدّم المال. وفي مقابل هذا المال يترتّب على هنداوي أن يفعل شيئًا من أجل القضيّة التي آمن كلاهما بها: تدمير إسرائيل.

مساء الثاني عشر من نيسان - إبريل ١٩٨٦، زار هنداوي آن - ماري في المنزل الذي تقيم فيه في حي "كيلبورن" في لندن. جاءها بالزهور وبزجاجة شمبانيا اشتراها من المال الذي أمدّه به "أبو". وقال لآن – ماري إنّه يحبّها ويريد أن تحتفظ بالطفل فانهمرت الدموع من عينيها، وفجأة أشرقت شمس الأمل في دنياها. قال هنداوي إنّ هناك عقبة وحيدة هي مباركة والديه لزواجهما وينبغي أن نقنعهما بذلك. ولذا ينبغي أن

تسافر إلى قريتهما في فلسطين. ورسم لها صورة عن نظام حياتهما فبدا وكأنّه لم يتغيّر منذ أيّام السيّد المسيح. كانت الأيقونة، لفتاة تعلّمت على الراهبات وتعتبر القدّاس جزءًا مهمًّا من حياتها، برهانًا أخيرًا على صحّة قرارها بالزواج من حبيبها. فلئن لم يكن مسيحيًّا فلا بأس، فهو وعائلته من بلاد العرب، ولذلك فهم خائفو الله.

ومع ذلك فقد تردّدت آن ـ ماري، فهي لا تستطيع أن تترك عملها. ومن أين لها المال لتدفع ثمن تذكرة السفر؟ كما أنّها بحاجة إلى ملابس جديدة تليق بالزيارة المهمّة. فهدّأ هنداوي مخاوفها مخرجًا من جيبه رزمة من المال، وقال إنّها تكفي لشراء كلّ ما تحتاج إليه من ملابس وتزيد. وبحركة تباه أخرى، أخرج هنداوي تذكرة سفر على متن طائرة تابعة لشركة "العال" الإسرائيليّة لرحلة تقوم في ١٧ نيسان ـ إبريل أي بعد خمسة أيّام. كان قد اشترى تذكرة السفر بعد ظهر ذلك اليوم. فضحكت آن ـ ماري قائلة: "أكنت واثقًا من أنّني سأسافر؟". فردّ هنداوي: "كما أنا واثق من حبّي لك".

بعد أن وعدها هنداوي بأنّه حالما ترجع إلى لندن فسيتزوّجان، أمضت خادمة الفندق الحامل الأيّام الخمسة التالية في دوّامة. استقالت من عملها وذهبت إلى السفارة الإيرلنديّة في لندن لتتسلّم جواز سفر جديدًا، واشترت ملابس للحوامل.

كان هنداوي يبيت عندها كلّ ليلة، وفي الصباح يتناولان معًا طعام الفطور فترسم هي مستقبلهما معًا... إنّهما سيعيشان في إيرلندا في كوخ صغير قرب البحر. وسيسمّيان طفلهما "شون" إذا كان ذكرًا، و"شينيد" إذا كان أنثى.

يوم الرحيل، أبلغ هنداوي آن ـ ماري أنّه أعدّ لها "هديّة" لوالديه ستتسلّمها من "صديق" له يعمل عامل تنظيفات داخل المطار. وقال هنداوي إنّه لا يريد المخاطرة بتوقيفها في المطار بحجّة أنّها تحمل عددًا من الحقائب غير المسموح به إلى داخل الطائرة، فأعدّ ترتيبًا مع صديقه لإعطائها الحقيبة عندما تدخل قاعة المغادرة.

دلّت سذاجة الإيرلنديّة الظاهرة في عدم طرح أسئلة عن "الهديّة" على حال امرأة غارقة إلى أذنيها بالحب، وتثق بحبيبها ثقة عمياء. فقد كانت المغفّلة المثاليّة في المؤامرة المتسارعة. وفي سيّارة الأجرة التي أقلّتها إلى المطار، كان هنداوي الأب المحبّ الحنون. أكّد أنّ عليها القيام بتمارين التنفّس أثناء الرحلة الطويلة، وأن تتناول الكثير من الماء، وتجلس في مقعد عند الممرّ لتجنّب التعرّض لآلام الحمل التي كانت قد بدأت تشكو منها. وأسكتته آن ـ ماري ضاحكة: "يتقدّس اسم الله، وهل تظنّ أنّني مسافرة إلى القمر؟".

توقّفت آن ـ ماري قليلاً عند مدخل منطقة مغادرة المسافرين، فلم تكن ترغب في الانفصال عن حبيبها، ووعدت أن تكلّمه على الهاتف من تلّ أبيب، وقالت إنّها ستحبّ والديه كأنّها ابنتهما. فقبّلها لآخر مرّة ثمّ دفعها برفق نحو موظّفي مراقبة الجوازات.

بقي هنداوي مكانه يراقب آن ـ ماري حتّى غابت عن ناظريه، فتابع تنفيذ تعليمات "أبو"، فركب باصًا تابعًا لشركة الخطوط السوريّة عائدًا إلى لندن. في هذه الأثناء كانت آن ـ ماري الغافلة تعبر ممرّات مراقبة الجوازات والتدقيق الأمني البريطاني. ثمّ اتّجهت نحو المنطقة المحصّنة المخصّصة لرحلات شركة العال. وهناك استجوبها موظّفون درّبهم جهاز شين بيت وفتّشوا حقيبة يدها بدقّة. وبعدما عُيّن لها مقعد على الطائرة طُلب إليها التوجّه إلى قاعة المغادرة الأخيرة لتنضمّ إلى ٣٥٥ مسافرًا آخر.

تسلّمت آن ـ ماري "الهديّة" المعدّة لوالدَي هنداوي من رجل يلبس ثياب عامل تنظيفات في المطار. وبعدها اختفى الرجل بصورة غامضة كما ظهر. وفي خلال ثوان أُخضعت آن ـ ماري للتفتيش وعثر مسؤولو الأمن في شركة العال على متفجّرات بلاستيكيّة في قاع خفيّ في الحقيبة التي كانت تحمل "الهديّة". وكانت المتفجّرات تزن أكثر من ثلاثة أرطال من مادّة "سمتكس" الشديدة الانفجار. وأمام موظّفي "الشعبة

الخاصّة" وضبّاط جهاز الأمن الداخلي البريطاني "MI 5" روت آن ـ ماري قصّتها وهي تنتحب. كانت قصّة امرأة سيّئة الطالع أفسدها الحبّ وخدعها شريكها. وبعدما تبيّن لمسؤولي الأمن أنّ آن ـ ماري مغفّلة راحوا يركّزون على التأكّد من وجود علاقات لهنداوي بسوريا.

عندما دخل باص شركة الطيران إلى لندن طلب هنداوي من سائقه أن يحوّل سيره نحو السفارة السوريّة. وعندما احتجّ السائق قال له هنداوي إنّ هذا من "صلاحيّاته". وفي السفارة طلب هنداوي من مسؤولي القنصليّة منحه اللجوء السياسيّ قائلاً إنّه يخشى أن تعتقله الشرطة لأنّه حاول تفجير طائرة لشركة العال من أجل "القضيّة". ودُهش المسؤولون لكلامه وأحالوه إلى موظّفَين في جهاز أمن السفارة استجوباه وطلبا منه المكوث في شقّة لموظّفي السفارة. ولعلّهما ارتابا بأنّ الأمر ليس سوى فخّ نُصب للإيقاع بسوريا وإحراجها. وإذ صحّ ذلك فقد تعزّزت هذه المخاوف عندما لم يلبث هنداوي أن غادر الشقّة.

ذهب هنداوي يبحث عن "أبو"، ولمّا لم يجده استأجر غرفة في فندق "لندن فيزيترز" في منطقة "نوتنغ هيل" حيث سرعان ما اعتُقل.

أذاعت هيئة الإذاعة البريطانيّة BBC نبأ عن إحباط الشرطة البريطانيّة المؤامرة. وكانت التفاصيل دقيقة بصورة غير مألوفة: فمادّة "سيمتكس" التشيكيّة الصنع كانت مخبّأة في قاع خفيّ في حقيبة آن ـ ماري، وقد وُقّتت لتنفجر على ارتفاع ٣٩ ألف قدم.

لقد حقّقت عمليّة الموساد الغرض منها بسرعة، فأغلقت مارغريت تاتشر السفارة السوريّة في لندن. وحُكم على هنداوي بالسجن لمدّة خمسة وأربعين عامًا. وذهبت آن - ماري إلى إيرلندا حيث أنجبت طفلة. وعاد "أبو" إلى إسرائيل بعدما انتهى دوره.

إثر محاكمة هنداوي أطلق عميل الموساد "روبرت ماكسويل" حملة في صحيفته "دايلي ميرور" التي جاء في إحدى افتتاحيّاتها: "نال اللعين ما يستحقّه". ويوم إبعاد السفير السوريّ كتبت الصحيفة في عناوينها الرئيسيّة: "سفير الموت". وجاء في عنوان رئيسيّ آخر: "أخرج أيّها الخنزير السوريّ". يومها لم يكن ماكسويل يعلم أنّه سيلاقي على يد الموساد مؤامرة ستودي بحياته عند أقدام جبل طارق.

وإذا كان الموساد قد تمكّن بالمكر والدهاء من تحقيق ضربة لاأخلاقيّة إلى دمشق، فهنا لا بدّ من طرح تساؤلات: هل تلقّت آن ـ ماري ميرفي حقًّا قنبلة حقيقيّة أم كان ما تلقّته جزءًا من عمليّة احتيال متقنة؟ هل كان عامل التنظيفات، المفترض أنّه صديق هنداوي، ضابط أمن؟ ما مقدار ما كان جهاز "MI 5" يعرفه عن العمليّة قبل وقوعها؟ أولَيس مستنكرًا أن يسمح الموساد وأجهزة الأمن البريطانيّة بنقل مادّة "سيمتكس" على متن الطائرة عندما يكون هناك احتمال ولو ضئيل جدًّا بانفجار القنبلة في أثناء ذلك؟ ومن المؤكّد أنّ مثل هذا الانفجار كان سيدمّر مساحة شاسعة من أكثر مطارات العالم ازدحامًا، ويعرّض حياة آلاف الناس للخطر. هل تكمن البراعة الحقيقيّة للضربة الموفّقة في كون الموساد تسبّب بعزل سوريا السياسيّ من دون تعريض شركة العال ومطار هيثرو للخطر، وذلك باستخدام مادّة آمنة تشبه "سيمتكس"؟

لم يكن لدى رئيس الوزراء شيمون بيريز ما يقوله ردًّا على كلّ هذه الأسئلة سوى:

"ما حدث يعرفه عادة من يجب أن يعرفوا، أمّا مَن لا يعرفون فيجب أن يبقوا على جهلهم".

أُنزل هنداوي في سجن "ويتمور" البريطاني الشديد التحصين، ومن هناك تابع يقول إنّه ضحيّة عمليّة خداع كلاسيكيّة دبّرها الموساد. ويقول هنداوي الذي ابيضّ

شعره وزاد وزنه إنّه يتوقّع أن يمضي باقي سنوات عمره في السجن. وعندما يذكر آن ـ ماري يصفها بـ"تلك المرأة".

تعيش آن ـ ماري في دبلن حيث تعتني بابنتها التي تشكر الله على أنّها لا تشبه عشيقها. وهي لا تتحدّث عن هنداوي.

يذكر غوردون طوماس في كتابه "إنحطاط الموساد" أنّ هناك هامش محيّر للقصّة. فبعد أسبوعين من الحكم على هنداوي بالسجن مدّة ستبقيه فيه لعدّة عقود، وضع "أرنو دوبورشغريف" رئيس تحرير صحيفة "واشنطن تايمز" المعروف آلة تسجيل على مكتب رئيس وزراء فرنسا آنذاك "جاك شيراك" في باريس. كان دوبورشغريف في أوروبّا لحضور اجتماع وزراء خارجيّة دول المجموعة الأوروبيّة في لندن، وقد أراد من مقابلته مع شيراك الاطّلاع على الموقف الفرنسيّ. سارت المقابلة وفق ما كان متوقّعًا، فأوضح شيراك أنّ فرنسا وألمانيا تتعرّضان للاضطهاد بهدف إظهار ولائهما للحكومة البريطانيّة التي تظهر تعنّتًا متزايدًا إزاء سياسات السوق المشتركة. وأثار دوبورشغريف مسألة علاقة فرنسا في مجال آخر. كان الصحافيّ يريد أن يعرف إلى أيّ مرحلة بلغت مفاوضات شيراك مع سوريا لوقف موجة الانفجارات الإرهابيّة في باريس، وكذلك جهود فرنسا لإطلاق ثمانية رهائن أجانب محتجزين في لبنان.

وجم رئيس الوزراء قليلاً ونظر عبر مكتبه وبدا غافلاً عن وجود آلة التسجيل، ثمّ قال إنّ المستشار الألماني "هيلموت كول" ووزير خارجيّته "هانس ديتريش غنشر" أبلغاه أن لا علاقة للحكومة السوريّة بخطّة هنداوي لتفجير طائرة العال، وأنّ الخطّة "من تدبير جهاز الاستخبارات الإسرائيليّ الموساد".

ويضيف طوماس: كاد الغضب الدبلوماسيّ الذي أثارته هذه التصريحات أن يقضي على مستقبل شيراك. فقد وجد نفسه عرضة لهجوم شنّه رئيس الجمهوريّة

"فرنسوا ميتران"، بينما اضطرّ شيراك إلى اتّقاء اتّصالات هاتفيّة غاضبة من "هلموت كول" تطالبه بالتراجع عن التصريح. وفعل شيراك ما يفعله السياسيّون في أحيان كثيرة. قال إنّ تصريحاته لم تُنقل بدقّة.

أمّا في لندن، فقالت شرطة "سكوتلانيارد" إنّ القضاء قال كلمته النهائيّة في القضيّة، وليس من داع لمزيد من التعليقات.

وفي باريس قال مكتب جاك شيراك، الذي أصبح رئيسًا للجمهوريّة الفرنسيّة عام ١٩٩٧، إنّ الرئيس شيراك لا يذكر أنّه أعطى مقابلة لصحيفة "واشنطن تايمز"[1].

صحيح أنّ الموساد قد نجح في عمليّته المدبّرة للإيقاع بين دمشق ولندن، غير أنّ الغاية مهما كانت لا يمكن أن تبرّر أبدًا وسيلة بمثل هذه القذارة...

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٢٩١ ـ ٢٩٣، ٢٩٨ ـ ٣٠٣.

عَدموني في مواجَهَة فعنونو

"موردخاي فعنونو"، يهودي مغربيّ ولد في ١٢ تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٥٤ في مراكش، وهاجرت عائلته إلى إسرائيل حيث التحق بالخدمة العسكريّة، وتقدّم للعمل كفنّي متدرّب في مفاعل "ديمونة" بعد أن أتّمّ دورة مكثّفة في الفيزياء والكيمياء والرياضيّات واللغة الإنكليزية في الحقبة ما بين شباط - فبراير ١٩٧٧ وتشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٦. وغادر إسرائيل بعد الاستغناء عن خدماته فوصل إلى سيدني في استراليا وقد تخلّى عن معتقده الدينيّ اليهوديّ وأصبح مسيحيًا. وقد تمكّن "فعنونو" من تهريب ستّين صورة التقطها داخل مفاعل "ماكون"، بالإضافة إلى بعض الخرائط والرسوم، ما يكشف بصورة قاطعة بأنّ إسرائيل قد أصبحت سادس دولة نوويّة في العالم. وسافر فعنون إلى لندن لعقد صفقة مربحة سريعة بعرض نسخة من الوثائق والصور التي معه على صحيفة "صانداي تايمز". وقد أصاب الذعر المسؤولين الإسرائيليّين لتسرّب معلومات موثّقة عن مفاعل ديمونة أظهرت أماكن تصنيع الألغام الأرضيّة النوويّة التي تعدّ لزراعتها على حدود مرتفعات الجولان السوريّة المحتلّة، وما من مجال للشكّ في صحّة تلك الوثائق التي لا يمكن تكذيبها أو الادّعاء بأنها مزيّفة. وكان رأي بعض قادة الموساد إرسال فريق من القتلة إلى لندن للبحث عن "فعنونو" واغتياله، ولكنّ الرأي استقرّ على اختطافه واستجوابه لمعرفة كيفيّة مزاولة نشاطاته التجسسيّة في ديمونة، وعمّا إذا كان قد عمل بمفرده أم مع أشخاص آخرين

ولحساب من يعملون. وقد تمّت عمليّة واسعة لتعبئة المتطوّعين لخدمة الموساد في لندن للعثور عليه حتّى تمّت معرفة مكانه. وكُلّفت إحدى نساء الموساد بتوطيد علاقات عاطفيّة معه واستدرجته إلى روما بإيطاليا. وفي الشقّة التي تقيم فيها كان عملاء الموساد في انتظاره، فحقنوه بمخدّر شلّ حركته، ونُقل في سيارة إسعاف إلى الساحل حيث كان هناك زورق على موعد مع سفينة شحن ترسو بعيدًا عن الشاطئ حمل إليها فعنونو فنقلته إلى ميناء حيفا. وفي إسرائيل تمّت محاكمة فعنونو وسجنه[1].

وفي تفاصيل العمليّة أنّه في ١٤ أيلول - ديسمبر ١٩٨٦، اتّصل أحد كبار عملاء الموساد في لندن "روبرت ماكسويل" صاحب صحيفة "صانداي ميرور" التي تصدر الأحد في لندن، اتّصل من لندن بناحوم عدموني في تلّ أبيب على خطّه الهاتفي المباشر لينقل إليه أخبارًا محبطة: أحد الصحافيّين غير المرتبطين من مواليد كولومبيا ويدعى "أوسكار غيريرو" عرض على صحيفة "صاندي ميرور" قصّة مثيرة ستمزّق الحجاب المتقن الصنع الذي يموّه الغرض الحقيقيّ من مفاعل ديمونة. وزعم غيريرو أنّه يتحدّث باسم تقنيّ سابق عمل في المفاعل النوويّ مدّة فتمكّن من جمع الأدلّة، بما فيها الصور التي تظهر أنّ إسرائيل أصبحت دولة نوويّة كبرى تملك ما لا يقلّ عن مائة سلاح نوويّ ذات قوّة تدميريّة متباينة. سأل عدموني مخاطبه عن إسم هذا التقني وعن مكان وجوده، فأجابه ماكسويل: إسمه "موردخاي فعنونو"، وهو موجود في سيدني أوستراليا على ما أظنّ.

أجرى عدموني الاتّصال الأوّل برئيس الوزراء شيمون بيريز الذي أصدر أمرًا باتّخاذ كلّ ما يلزم "لتأمين الموقف". بهذه الكلمات أجاز بيريز تنفيذ عمليّة تقدّم مثالاً آخر على فعاليّة الموساد القاسية.

---

١ - صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٦٨.

تثبّت موظّفو مكتب عدموني بسرعة من أنّ فعنونو عمل في مفاعل ديمونة في الحقبة الواقعة بين شباط ـ فبراير ١٩٧٧ وتشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٦. وقد عُيِّن لمهمّة في "ماكون ـ ٢" أحد أكثر وحدات الانتاج العشر سريّة في المفاعل. ويبدو المبنى الإسمنتي الذي لا نافذة له أشبه بمستودع، لكنّ سماكة جدرانه تكفي لحمايته من اختراق أقوى عدسات الكاميرات الفضائيّة. ويقوم داخل المبنى الذي يشبه غرف العمليّات الحربيّة نظام من الجدران المصطنعة تقود الزائر إلى مصاعد تهبط عبر الطبقات الستّ إلى حيث يجري إنتاج الأسلحة النوويّة. وكان التصريح الأمنيّ الذي يحمله فعنونو يمكّنه من الدخول بلا اعتراض إلى كلّ زاوية من زوايا "ماكون ـ ٢". وكانت بطاقته الأمنيّة الخاصّة، ورقمها ٥٢٠، وتوقيعه على وثيقة تتعلّق بقانون الأسرار الرسميّة الإسرائيليّ يكفلان عدم تعرّض أحد له أثناء قيامه بواجباته كمراقب في المناوبة الليليّة. وقد ذُهل عدموني إذ قيل له إنّ من شبه المؤكّد أنّ فعنونو تمكّن خلال أشهر، وبطريقة ما، من أن يلتقط سرًّا صورًا للتصميم الداخليّ لـ"ماكون ـ ٢" بما فيها لوحات السيطرة وصناديق القفازات وآلات صنع القنابل النوويّة. وتبيّن من الأدلّة أنّه خبّأ أفلامه في خزانة ملابسه وتمكّن من تهريبها من المكان الذي يفترض أنّه الأشدّ تحصينًا في إسرائيل.

طالب عدموني بمعرفة كيفيّة تمكّن فعنونو من تحقيق ذلك كلّه وربّما أكثر من ذلك. وماذا لو أنّه تمكّن حتّى الآن من إطلاع وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA على ما لديه؟ أو الروس؟ أو البريطانيّين أو الصينيّين؟ إنّ الخسارة ستكون فوق مستوى الوصف. وستظهر إسرائيل أمام العالم كدولة كاذبة تتمتّع بقدرة على تدمير جزء كبير من العالم.

من هو فعنونو؟ ولمصلحة من تراه يعمل؟ ولم تلبث أن جاءت الأجوبة.

فعنونو يهوديّ مغربيّ ولد في ١٢ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٥٤ في مراكش حيث كان والداه المتواضعان يملكان متجرًا. وعام ١٩٦٣ عندما تمثّل العداء لليهود في أعمال عنف صريحة هاجرت العائلة إلى إسرائيل واستقرّت في مدينة "بئر سبع" عند صحراء النقب. وقد عاش فعنونو سني مراهقة عاديّة. وكغيره من الشبّان، التحق بالخدمة العسكريّة عندما بلغ السنّ. كان شعره وقتها قد بدأ يتساقط، فبدا أكبر من سنيه التسع عشرة. وترقّى إلى رتبة رقيب أوّل في وحدة اكتساح الألغام المتمركزة في الجولان. وبعد انتهاء الخدمة العسكريّة، تسجّل في جامعة "رامات أبيب" في تلّ أبيب. وبعدما رسب في امتحانين تقدّم لهما عند نهاية السنة الأولى من دراسته للحصول على درجة في الفيزياء، ترك الجامعة. وفي صيف ١٩٧٦، تقدّم بطلب لوظيفة جرى الإعلان عنها هي تقنيّ متدرّب يعمل في ديمونة. وبعد مقابلة طويلة مع مسؤول الأمن في المصنع قُبل طلبه وأُلحق بدورة مكثّفة في الفيزياء والكيمياء والرياضيّات واللغة الانكليزيّة. وقد أبلى بلاء حسنًا فأُعطي أخيرًا وظيفة تقنيّ في ديمونة في شباط ـ فبراير ١٩٧٧. ثمّ جرى الاستغناء عن خدمات فعنونو في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٦، وكُتبت ملاحظة في ملفّه الأمنيّ بأنّه يحمل "معتقدات يساريّة ومحبّذة للعرب".

غادر فعنونو إسرائيل إلى أوستراليا فوصل إلى سيدني في أيّار ـ مايو من العام التالي. وأثناء هذه الرحلة التي سارت على طريق سبقه إليه إسرائيليّون شبّان عبروا الشرق الأقصى، تخلّى فعنونو عن معتقده الدينيّ وأصبح مسيحيًّا.

قُدّمت لعدموني صورٌ من مصادر متعدّدة أظهرت فعنونو كشابّ غير جذّاب من النوع المتوحّد. فلم يكن له أصدقاء حقيقيّون في ديمونة، ولم تكن له صديقات. كان يمضي وقته في منزله بقراءة كتب الفلسفة والسياسة. وقال علماء النفس في الموساد لعدموني إنّ رجلا كهذا قد يكون متهوّرًا ذا إحساس بالقيم منحرف،

وغالبًا ما يكون متحرّرًا من الوهم. إنّ مثل هذه الشخصيّة قد تكون خطرة في سلوكها المفاجئ.

عندما تعرّف الصحافي الكولومبي "أوسكار غيريرو" إلى فعنونو في أوستراليا، كان الأخير يقوم بطلاء إحدى الكنائس. ولم يلبث الصحافي الثرثار أن لفّق قصّة غريبة يُبهج بها أصدقاءه في حيّ "كينغز كروس" الخليع في سيدني. فزعم أنّه مكّن عالمًا نوويًّا إسرائيليًّا كبيرًا من الانشقاق وهو يحمل تفاصيل عن خطط إسرائيل لضرب جيرانها العرب بالأسلحة النوويّة، وأنّه تمكّن من خداع الموساد فأخفى العالم في بيت آمن في إحدى ضواحي المدينة بينما تولّى هو تسويق بيع السبق الصحافيّ الأكبر في القرن العشرين. أمّا فعنونو، فقد انزعج من هذه المزاعم الفارغة، ذلك أنّه كان قد تحوّل إلى داعية سلام ملتزم وهو يرغب في نشر قصّته في صحيفة جادّة حتّى ينبّه العالم إلى الخطر الذي باتت إسرائيل تمثّله بسبب قدرتها النوويّة. وكان غيريرو قد اتّصل بمكتب صحيفة "صانداي تايمز" اللندنيّة في مدريد، فأرسلت الصحيفة المشهورة بجسارتها صحافيًّا إلى سيدني لإجراء مقابلة مع فعنونو.

سرعان ما فضح الاستجواب تلفيقات غيريرو، فبدأ يشعر أنّه يكاد يفقد السيطرة على قصّة فعنونو. وازدادت مخاوفه عندما قال مندوب الصانداي تايمز إنّه سيصطحب فعنونو معه إلى لندن حتّى يمكن التحقّق أكثر من صحّة مزاعمه. كانت الصحيفة تعتزم أن تُخضع التقنيّ إلى الاستجواب على يد أحد أهمّ علماء بريطانيا النوويّين. وقد راقب غيريرو فعنونو ورفيق رحلته وهما يصعدان سلّم الطائرة المسافرة إلى لندن، وكانت شكوكه تتزايد لحظة بعد لحظة. كان يحتاج إلى من يشور عليه بما يفعل كي يعالج الموقف، فلم يجد أمامه إلاّ عضوًا سابقًا في جهاز الاستخبارات والأمن الأوسترالي "أسيس". فقال له غيريرو إنّه خسر بالحيلة قصّة ستهزّ العالم، ووصف بالضبط ما

تمكّن فعنونو من تهريبه من ديمونة ومنها ستّون صورة التقطها داخل "ماكون ـ ٢" بالإضافة إلى الخرائط والرسوم. وقد كشفت هذه بصورة قاطعة أنّ إسرائيل هي سادس أقوى دولة نوويّة في العالم. غير أنّ الحظّ هذه المرّة أيضًا لم يحالف غيريرو، إذ إنّه لم يحسن اختيار من ينصحه. فقد اتّصل عميل الاستخبارات الأوستراليّة السابق بالجهاز الذي كان يعمل فيه وأعاد على مسمع مسؤوليه ما سمعه من غيريرو. وكانت هناك علاقة تعاون بين الموساد وجهاز الاستخبارات الأوسترالي يقدّم الإسرائيليّون في إطاره المعلومات السريّة عن الحركات العربيّة المناضلة من الشرق الأوسط وحتّى المحيط الهادئ، فأبلغ الأوستراليّون عميل الموساد الملحق بالسفارة الاسرائيليّة في "كانبيرا" بشأن الاتّصال الذي تلقّوه من موظّفهم السابق. وعلى الفور نُقلت المعلومات عن طريق الفاكس إلى عدموني، لكنّها كانت مسبوقة بمعلومات أشدّ خطورة...

خلال رحلته إلى أوستراليا توقّف فعنونو في النيبال وزار السفارة السوفياتيّة في "كتمندو". فهل ذهب إلى هناك ليطلع موسكو على الأدلّة التي لديه؟ للإجابة على هذا السؤال ظلّ متطوّع لخدمة الموساد يعمل في حاشية ملك النيبال ثلاثة أيّام حتّى اكتشف أنّ الغرض الوحيد من زيارة فعنونو للسفارة السوفياتيّة هو الاستيضاح عن وثائق السفر التي يحتاج إليها لتمضية إجازة في الاتّحاد السوفياتيّ في موعد لاحق لم يحدّده. وقد خرج من السفارة محمّلاً برزمة من الكتيّبات السياحيّة الملوّنة.

في الساعات التي أعقبت سفر فعنونو إلى لندن بدعوة من "صانداي تايمز"، حاول غيريرو أن يعقد صفقة مربحة سريعة، فعرض نسخة من وثائق فعنونو على صحيفتَين أوستراليّتَين، لكنّهما رفضتاها على أنّها مزوّرة. ودبّ اليأس في غيريرو، فلحق بفعنونو إلى لندن، وإذ لم يتمكّن من العثور عليه، حمل الوثائق إلى صحيفة "صانداي ميرور"، وكان فيها صورة لفعنونو التقطت له في أوستراليا. وفي خلال ساعات عرف

نيكولاس دايفيس، وهو صحافيّ عميل في الوساد، بأمر الوثائق فأبلغ ماكسويل على الفور، وبدوره اتّصل الناشر بعدموني.

عندما عاود رئيس الموساد الاتّصال بماكسويل بعد ساعات، تلقّى عدموني صدمة جديدة. لقد صدّقت "صانداي تايمز" قصّة فعنونو فبات من الضروريّ إذًا معرفة ما صوّره ذلك التقنيّ. كان يأمل أن يتمكّن من تحضير ردّ يقلّل من حجم الأضرار. فالأخبار الواردة من كانبيرا تفيد بأنّ دافع غيريرو الوحيد هو المال، وإذا أمكن إظهار فعنونو بالصورة نفسها، عندها يمكن شنّ حملة تضليل ناجحة مؤدّاها أنّ صحيفة "صانداي تايمز" وقعت ضحيّة محتالين. فسارع عدموني إلى إرسال الاستخباراتي الاسرائيلي "آري بن مناشي" إلى لندن للحصول على النسخ التي أطلع غيريرو "صانداي ميرور" عليها. وقد صرّح بن مناشي في ما بعد للصحافي الأميركي المجرّب "سيمور هيرش" بالقول: "رتّب نيكولاس دايفيس اجتماعًا بين غيريرو وبيني على أنّني صحافيّ أميركيّ خطير. وخلال الاجتماع أبدى غيريرو حماسة لعقد صفقة بيع جديدة، فعرض عليّ بعض الصور الملوّنة التي التقطها فعنونو. غير أنّي ما كنت لأتبيّن مدى أهميّتها، فلا بدّ من أن يطّلع عليها الخبراء في إسرائيل. فقلت لغيريرو إنّني أحتاج إلى نسخ منها، فحرَن. فقلت يجب أن أعرف إذا كانت حقيقيّة إذا كان يريد بيعها، وإنّ نيكولاس شاهد عليّ"...

فسلّم غيريرو بضع صور إلى بن مناشي الذي نقلها عبر أحد السعاة إلى تلّ أبيب، حيث زاد وصولها من حالة الذعر، إذ تعرّف المسؤولون في ديمونة على "باكون ــ ٢" في الصور. وأظهرت أحدى الصور المرسلة مكان تصنيع الألغام الأرضيّة النوويّة التي ستزرع على حدود مرتفعات الجولان السوريّة. ولم يعد واردًا إمكان تحطيم صدقيّة فعنونو. فكلّ فيزيائيّ نوويّ سيعرف الغرض من هذه المعدّات.

شكّل رئيس الوزراء شيمون بيريز فريقًا خاصًّا لمراقبة الوضع. وألحّ بعض رؤساء الأقسام في الموساد على إرسال فريق من القتلة إلى لندن للبحث عن فعنونو واغتياله. فرفض عدموني الفكرة.

لن تتمكّن صحيفة "صانداي تايمز" من نشر كلّ ما أبلغها إيّاه فعنونو، ولكن حالما تنتهي الصحيفة من التعامل معه سيخضع لاستجواب رجال "MI 6" ووكالة CIA الأميركيّة، وستواجه إسرائيل بذلك مزيدًا من المشكلات. والأهمّ من ذلك معرفة كيفيّة مزاولة فعنونو نشاطاته التجسّسيّة في ديمونة، وهل عمل بمفرده أم مع أشخاص آخرين؟ وإذا كان له شركاء فلحساب من يعملون؟ والسبيل الوحيد لمعرفة ذلك هو بإعادة فعنونو إلى إسرائيل واستجوابه. وكان عدموني بحاجة إلى طريقة لإخراج التقني من المخبإ الذي أمّنته له صحيفة "صانداي تايمز". سيكون أسهل تدبّر أمر فعنونو عندما يخرج من مخبئه، وإذا ارتؤي قتله فلن تكون المرّة الأولى التي يرتكب الموساد جريمة قتل في شوارع لندن. ففي إطار البحث المزعوم عن مدبّري مقتل الرياضيّين الاسرائيليّين قي دورة الألعاب الأولمبيّة في ميونيخ، واغتيالهم، قتل الموساد أحد عناصر منظّمة "أيلول الأسود" في حادث سير مدروس بعناية بينما كان يسير عائدًا إلى فندقه في "بلومزبري".

في لندن، توقّعت صحيفة "صانداي تايمز" أن تفعل إسرائيل كلّ ما بوسعها حتّى تدمّر صدقيّة فعنونو، فرتّبت لقاء استجوابه من خلال الدكتور "بارنبي"، وهو فيزيائيّ نوويّ ذو كفاءة عالية عمل في مشروع بناء الأسلحة النوويّة البريطانيّة في "ألدماستون". وقد خلص إلى أنّ الصور والوثائق حقيقيّة، وأنّ ما يتذكّره التقنيّ الاسرائيليّ من تفاصيل دقيق. بعدئذ أقدمت صحيفة "صانداي تايمز" على اتّخاذ خطوة مشؤومة، فعرض كاتب التحقيق الصحافيّ أمام السفارة الاسرائيليّة في لندن ملخّصًا لما

كشف فعنونو النقاب عنه، بالإضافة إلى نسخ مصوّرة عن جواز سفر فعنونو والصور التي التقطها وكذلك تقييم بارنبي. وكان القصد من ذلك حمل الحكومة الاسرائيليّة على الاعتراف. وبدلاً من ذلك نكرت السفارة صحّة الموادّ واعتبرتها "عارية عن الصحّة ولا تمتّ للحقيقة بصلة". وقد تسبّبت الصور التي قُدّمت إلى السفارة في لندن باشتداد حالة الذعر في تلّ أبيب. ويقول في ذلك بن مناشي: "وقعت الواقعة. كنت لا أزال في لندن عندما قال لي دايفيس إنّ ماكسويل يريد أن يراني. فالتقينا وأوضح ماكسويل أنّه يعرف كيف سيكون التعامل مع قصّة فعنونو، فقد تحدّث للتوّ مع رئيسي في تلّ أبيب". فقد كان عدموني طلع أخيرًا بخطّة لإخراج فعنونو من مخبئه.

في هذه الأثناء، صدرت صحيفة ماكسويل، "صانداي ميرور"، ناشرة صورة كبيرة لموردخاي فعنونو وإلى جانبها قصّة تسخر من التقنيّ ومن أوسكار غيريرو وتصف الصحافيّ الكولومبي بأنّه كاتب مخادع، كما تصف الزعم بشأن قدرة إسرائيل النوويّة بأنّه خدعة. وكان ماكسويل هو من أملى التقرير وهو من أشرف بنفسه على إبراز موقع صورة فعنونو. فكانت تلك الطّلقة الأولى في حملة التضليل الكبرى التي أشرف عليها قسم الحرب السيكولوجيّة في الموساد.

كان من الطبيعيّ أن تثور ثائرة فعنونو بعد قراءته تقرير "صانداي ميرور"، وكان إذذاك يقيم في آخر فندق اختاره مرافقوه وهو فندق "مونتباتن" الواقع قرب شارع "شافتسبوري آفينيو" في وسط لندن، حتّى أنّه قال لصحافيّي "صانداي تايمز" الذين يقومون على حراسته مذ جاء إلى لندن إنّه "يريد أن يتوارى عن الأنظار، ولا يريد أن يعرف أحد بمكانه". وكانت قد جرت تعبئة المتطوّعين لخدمة الموساد في لندن للعثور على فعنونو عقب نشر خبر "صانداي ميرور". وقُدّمت لوائح بأسماء الفنادق والنزل إلى عشرات المتطوّعين اليهود الأمناء للتفتيش فيها. وفي كلّ اتّصال كان المتطوّع

يصف فعنونو في ضوء الصورة التي نشرتها "صانداي ميرور" ويدّعي أنّه قريب له يريد أن يعرف ما إذا كان يقيم في الفندق. وفي يوم الأربعاء الواقع فيه ٢٥ أيلول ـ سبتمبر، تلقّى عدموني نبأ من لندن يفيد بأنّهم عثروا على مكان فعنونو، وكان ذلك إيذانًا بتنفيذ المرحلة الثانية من خطّة عدموني.

إختار ناحوم عدموني بنفسه عميلة تتمتّع بكلّ الصفات المطلوبة لإغواء موردخاي فعنونو والإيقاع به في شَرَك الموساد. تلك العميلة كانت "تشيريل بنتوف" مساعدة عميل موساد. وُلدت في "أورلاندو" في "فلوريدا" لعائلة يهوديّة غنيّة، وقد انتهى زواج والديها بطلاق صاخب. ووجدت تشيريل عزاءها في الدراسات الدينيّة التي أدّت بها إلى تمضية ثلاثة أشهر في مزرعة تعاونيّة "كيبوتز" في إسرائيل. وهناك انغمست في درس التاريخ اليهوديّ واللغة العبريّة، فقرّرت البقاء في إسرائيل. وفي الثامنة عشرة من عمرها تعرّفت إلى يهوديّ من مواليد فلسطين يدعى "أوفر بنتوف" وأغرمت به، وكان أوفر يعمل محلّلاً في جهاز الاستخبارات الإسرائيلي العسكري "أمان". وبعد سنة من تعارفهما اقترنا. وما لبثت أن اختيرت للعمل كعميلة كاملة التدريب في الموساد. وعُيّنت مساعدة عميل في دائرة الموساد المكلّفة التنسيق مع السفارات الإسرائيليّة. كان دورها المحدّد أن تظهر كصديقة أو زوجة لأحد ضبّاط الموساد الفاعلين. وقد عملت في عدد من المدن الأوروبيّة مدّعية أنّها مواطنة أميركيّة، فكان لها عدد من "العشّاق" و"الأزواج"، لكنّها لم تضاجع أيًّا منهم.

كان مدير الموساد ناحوم عدموني هو من حدّث تشيريل عن أهميّة مهمّتها الجديدة، فبعدما عُرف مكان إقامة فعنونو سيكون عليها أن تستخدم مواهبها حتّى تغريه بالرحيل عن بريطانيا. وهذه المرّة ستتخفّى وراء زعم بأنّها سائحة أميركيّة تسافر وحيدة في أوروبّا بعد تجربة طلاق مؤلمة. ولتعزيز صدقيّة قصّتها يمكنها استخدام

تفاصيل من قصّة انفصال والديها. وكان الجزء الأخير من قصّتها أنّ لها أختًا في روما، وستكون مهمّتها هي أن تصطحب فعنونو إلى هناك.

يوم الثلاثاء في ٢٣ أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٦، انضمّت تشيريل بنتوف إلى فريق من تسعة ضبّاط موساد سبقوها إلى لندن. كانوا يعملون بإمرة مدير العمليّات في الموساد "بني زئيفي"، وهو شخص كالح الوجه له أسنان وسخة.

كان ضبّاط الموساد يقيمون في فنادق تقع بين شارعَي "أكسفورد ستريت" و"ستراند". وكان اثنان منهم ينزلان في فندق "ريجنت بالاس". أمّا تشيريل بنتوف فقد نزلت في فندق "ستراند بالاس" في الغرفة رقم ٣٢٠ باسم مستعار هو "سيندي جونسون". واستأجر زئيفي غرفة في فندق "مونتباتن" على مقربة من الغرفة ١٠٥ التي ينزل فيها فعنونو. ولعلّه كان من بين الناس الذين لاحظوا تقلّب مزاج التقني المنشق، فقد كانت تبدو على فعنونو علائم الإجهاد. كانت لندن بيئة غريبة لشخص نشأ في بلدة "بئر السبع" الصغيرة في فلسطين. وعلى الرغم من جهود مرافقيه من صحيفة "صانداي تايمز"، فقد كان متوحّدًا ومتعطّشًا لصحبة النساء ومضاجعتهنّ.

كان علماء النفس في الموساد قد توقّعوا مثل هذا الاحتمال. ويوم الأربعاء ٢٤ أيلول ـ سبتمبر، ألحّ فعنونو على مرافقيه بأن يدَعوه يخرج بمفرده فوافقوا متردّدين. لكنّ أحد المخبرين الصحافيّين تبعه من دون علمه إلى ساحة "لستر سكوير" حيث رأى فعنونو وقد شرع في التحدّث إلى إحدى النساء. وقد وصفت الصحيفة تلك المرأة في ما بعد بأنّها "في وسط العشرينات من العمر، طولها متر وسبعون سنتيمترًا، ممتلئة الجسم، شعرها أشقر مصبوغ وشفتاها غليظتان وتضع قبّعة بنيّة اللون وترتدي بزّة بسروال من التويد البنّي، وتنتعل حذاءً بكعب عال، وربّما كانت يهوديّة".

وبعد قليل افترقا. وعندما عاد فعنونو إلى الفندق قال لأحد مرافقيه إنّه تعرّف إلى فتاة أميركيّة تدعى سيندي. وقال إنّه يعتزم أن يراها ثانية.

قلق المخبرون الصحافيّون وقال أحدهم إنّ ظهور سيندي في ساحة لستر سكوير قد يكون أكثر من مجرّد صدفة، لكنّ فعنونو رفض مخاوفهم. ومهما يكن ما قالته سيندي له فقد راق له إلى حدّ أنّه يعتزم أن يمضي مزيدًا من الوقت بصحبتها، وليس في لندن بل في شقّة شقيقتها في روما.

سافر بني زئيفي وأربعة ضبّاط موساد على الطائرة نفسها التي حملت تشيريل وفعنونو إلى روما. ولدى وصولهما ركبا سيّارة أجرة إلى شقّة في الحيّ القديم في المدينة. هناك كان ثلاثة من ضبّاط الموساد بالانتظار، فتكاثروا على فعنونو وحقنوه بمخدّر شلّ حركته. وفي وقت لاحق من تلك الليلة وصلت سيّارة إسعاف ونُقل فعنونو على نقّالة من المبنى. وقال ضبّاط الموساد الذين تظاهروا بالقلق للجيران إنّ قريبًا لهم أصيب بوعكة. وصعدت تشيريل إلى سيّارة الإسعاف التي انطلقت بهم.

خرجت سيّارة الاسعاف من روما واتّجهت إلى الساحل. وهناك في نقطة اتُّفق بشأنها من قبل كان زورق سريع بالانتظار، فنقلوا فعنونو إليه. كان الزورق على موعد مع سفينة شحن ترسو بعيدًا عن الشاطئ، فحملوا فعنونو إليها وسافر بني زئيفي وتشيريل معه. وبعد ثلاثة أيّام، وفي وسط الليل، كانت السفينة ترسو في ميناء حيفا.

سرعان ما واجه موردخاي فعنونو المستجوبين المهرة العاملين بإمرة ناحوم عدموني. كان ذلك مقدّمة لمحاكمة سريعة حكم بنهايتها على فعنونو بالسجن مدى الحياة في زنزانة. أمّا تشيريل بنتوف، فتوارت عن الأنظار وعادت إلى عالمها السرّي.

بقي موردخاي فعنونو ما يزيد على إحدى عشرة سنة في السجن الانفراديّ في زنزانة كانت إسرائيل تنوي أن تبقيه فيها لسنوات عدّة في القرن التالي. كانت ظروف معيشته كئيبة، فالطعام رديء ومدّة التريّض اليوميّة ساعة واحدة، وكان يمضي وقته في العبادة والقراءة. ثمّ أذعنت حكومة إسرائيل للضغط الدوليّ فوافقت في آذار ـ مارس ١٩٩٨ على السماح بنقله إلى ظروف أخفّ وطأة، لكنّه بقي أحد سجناء الضمير الذين تطالب منظّمة العفو الدوليّة بالإفراج عنهم، وتذكّر صحيفة "صانداي تايمز" قرّاءها باستمرار بمحنته. ولم يتلقّ فعنونو أيّ مبلغ من المال عن السبق الصحافيّ العالي المثير الذي قدّمه للصحيفة. وعام ١٩٩٨، نُقل من السجن الانفراديّ، لكن بالرغم من المناشدات المتجدّدة التي أطلقها محاموه بقي الأمل ضعيفًا باحتمال إطلاق سراحه[١].

وفي الخامس من شباط ٢٠٠٤ قال مدير سابق في جهاز المخابرات الإسرائيليّ "الموساد" إنّ الجهاز فكّر في قتل موردخاي فعنونو قبل أن يقرّر خطفه لمحاكمته لاتهامات بالخيانة. وقال شبطاي شافيت الذي كان العقل المدبّر لعمليّة خطف فعنونو إنّه يخشى من احتمال أن يكشف الخبير الفنّي السابق عن مزيد من الأسرار عند الإفراج عنه في نيسان ـ إبريل ٢٠٠٤.

وأشارت مصادر أمنيّة إلى أنّ وزارة العدل قد تصادر جواز سفر فعنون لمنعه من مغادرة البلاد مع إخضاع المقابلات الصحافيّة التي تجري معه للرقابة العسكريّة. وقد تؤدّي محاولته التحدّث عن أسرار الدولة إلى إجراء محاكمة جديدة له[٢].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٩٩ ـ ٢١١.

٢ ـ وكالة رويترز، ٥ شباط ـ فبراير ٢٠٠٤.

في ٢١ نيسان ـ إبريل ٢٠٠٤، أُطلق سراح فعنونو بعد قضائه مدّة الحكم (١٨ سنة) في السجون الإسرائيليّة، منها ١١ سنة في الإنفراد. وأعلنت وزارة الدفاع الإسرائيليّة أنّ فعنونو لا يزال يملك أسرارًا، وذلك في تبرير للقيود التي ستفرض عليه... وأصدرت وزارة الدفاع بيانًا جاء فيه: "لقد كشف موردخاي فعنونو أسرار الدولة حول الأبحاث النوويّة في ديمونة، ولا يزال يحتفظ بأسرار لم يكشف عن قسم منها. وإنّ الكشف عن هذه الأسرار قد يتسبّب بأضرار جسيمة لأمن الدولة، وقد أعلن نيّته كشف هذه الأسرار". وبرّرت وزارة الدفاع بذلك القيود التي ستفرضها على فعنونو، وأوضحت وزارة الدفاع أنّ "إجراءات لمنعه من التوجّه إلى الخارج أو الفرار إليه أو نقل معلومات من شأنها المساس بأمن الدولة. وعلى فعنونو أن يبلّغ مسبقًا بمكان إقامته ونيّته بالتنقّل... ولن يتمكّن من الاقتراب من الموانئ وسيُمنع عليه إقامة اتّصالات من دون إذن مسبق مع مواطنين أو مقيمين أجانب، وعليه أن يوفّر على الفور لائحة بأسماء الأجانب الذين يقيم معهم اتّصالات حتّى يصدر أذن محتمل بهذه الاتّصالات بعد الدراسة".

أمّا فعنونو من جهته، فلدى خروجه من السجن، صرّح بأنّه عومل بهذه القساوة لأنّه اعتنق الدين المسيحيّ، ولو كان لا يزال يهوديًّا لما كان عومل هكذا من قبل الدولة اليهوديّة. وقد رفض التكلّم باللغة العبريّة مستعينًا بالإنكليزيّة، وزار أول ما زار تحت الحراسة المشدّدة كنيسة في القدس. وطالب لجنة الطاقة الذريّة بالكشف على مفاعل ديمونة المخالف للقوانين الدوليّة تمهيدًا لإقفاله وبفرض عقوبات على إسرائيل...

عمليّة اغتيال أبو جهاد في تونس

عام ١٩٨٨ كان أسحق رابين وزيرًا للدفاع في الحكومة الاسرائيليّة عندما تقرّر اغتيال نائب رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة خليل الوزير المعروف بأبو جهاد، وقد اتُّخذ القرار في اجتماع جرى في أحد البيوت السريّة التابعة للموساد[١] بحضور رابين نفسه.

ظلّ عملاء الموساد مدّة شهرين ينفّذون عمليّة مراقبة واسعة لفيلاّ أبو جهاد في منتجع "سيدي بو سعيد" في إحدى ضواحي تونس العاصمة. كان كلّ شيء قيد المراقبة والفحص والتدقيق من الطرق المؤدّية إلى الفيلاّ، إلى نقاط العبور، إلى ارتفاع السياج وأنواعه، إلى النوافذ والأبواب والأقفال والدفاعات والروتين الذي يعتمده حرس أبو جهاد. راقبوا زوجة أبو جهاد وهي تلاعب أولادها، ومرّوا بها وهي تتبضّع، ثمّ وهي تدخل صالون تزيين الشعر، وتنصّتوا إلى كلمات أبو جهاد الهاتفيّة وزرعوا أدوات تنصّت في غرفة نومه. وحسبوا المسافات بين الغرف، وتعرّفوا إلى ما يفعله الجيران، وإلى الأوقات التي يكونون فيها ببيوتهم، وسجّلوا أنواع السيّارات التي تزور الفيلاّ وألوانها وأرقام لوحاتها... وبعدما أنهى الفريق مهمّته عاد إلى تلّ أبيب. وطوال الشهر

---

١ - "البيوت السريّة" التابعة للموساد كانت مراكز تدريب واجتماعات واستجواب وتعذيب واستيعاب للجواسيس، والمصدر الوحيد المتوافر عن عدد هذه البيوت هو ضابط سابق صغير في الموساد إسمه "فيكتور أُستروفسكي" زعم عام ١٩٩١ أنّ هناك حوالى ٣٥ ألفًا منها في العالم، منها ٢٠ ألفًا عاملة و١٥ ألفًا كامنة.

التالي خضع المرشّحون لتنفيذ العمليّة لتدريب على مهمّتهم داخل وحول بيت سرّي للموساد قرب حيفا يشبه الفيلاّ التي في تونس، على أن تستغرق عمليّة الاغتيال منذ لحظة دخول بيت أبو جهاد اثنتين وعشرين ثانية فقط.

في ١٦ نيسان إبريل ١٩٨٨ صدر الأمر بالتنفيذ. في تلك الليلة أقلع عدد من طائرات "بوينغ ٧٠٧" التابعة لسلاح الجوّ الإسرائيلي من قاعدة عسكريّة تقع جنوب تلّ أبيب. كانت واحدة منها تقلّ إسحق رابين وعددًا من كبار الضبّاط الاسرائيليّين، وكانت على اتّصال دائم عبر لاسلكي سرّي بفريق الاغتيال الذي اتّخذ أفراده مواقعهم بقيادة عميل اسمه الرمزي "سورد". وكانت طائرة أخرى مكدّسة بأدوات المراقبة والتشويش. وكانت طائرتان أخريان تنقلان خزّانات الوقود. وعلى ارتفاع شاهق فوق الفيلاّ حام أسطول الطائرات في الفضاء وهو يتابع كلّ حركة على الأرض عبر تردّد لاسلكيّ سرّي. وبُعيد منتصف الليل في ١٦ نيسان - إبريل سمع الضبّاط المحمولون جوًّا أنّ أبو جهاد قد عاد إلى منزله بسيّارة المرسيديس التي كان ياسر عرفات قد قدّمها له كهديّة عرسه.

سبق ذلك إقامة إجهزة استماع حسّاسة لالتقاط كلّ ما يجري داخل الفيلاّ. ومن موقعه قرب الفيلاّ، أعلن "سورد" عبر ميكروفون يعمل بحركة الشفاه أنّه يسمع أبو جهاد وهو يصعد السلالم ويذهب إلى غرفة نومه ويهمس شيئًا لزوجته ويمشي على أطراف أصابعه إلى الغرفة المجاورة لتقبيل ابنه النائم قبل أن يمضي إلى مكتبه في الطبقة الأرضيّة.

في هذه الأثناء، كانت طائرة الحرب الإلكترونيّة، وهي النسخة الاسرائيليّة لطائرة الرادار الأميركيّة "إيواكس"، تلتقط هذه التفاصيل وتحوّلها إلى رابين في طائرة القيادة. وعند الساعة الثانية عشرة وسبع عشرة دقيقة صباحًا، أصدر رابين أمره بالتنفيذ.

خارج الفيلاّ، كان سائق أبو جهاد نائمًا في سيارة المرسيديس. اندفع أحد رجال "سورد" نحوه ووضع مسدّسه "الـ"باريتّا" الصامت في أذنه وضغط الزناد، فسقط السائق قتيلاً على المقعد الأمامي. بعدئذ وضع "سورد" وزميل له في فريق الاغتيال شحنة متفجّرة عند قاعدة بوّابة الفيلاّ الحديد الثقيلة. كانت المتفجّرات البلاستيكيّة من النوع الصامت، فلم تحدث صوتًا يذكر عندما خلعت الأبواب من مفاصلها. في الداخل كان حارسان لأبو جهاد يقفان عند قاعة الدخول وقد جمّدهما الانفجار فسقطا قتيلين بنيران صامتة. وركض "سورد" إلى المكتب فوجد أبو جهاد يشاهد شريط فيديو من إنتاج منظّمة التحرير الفلسطينيّة. وإذ همّ بالنهوض من مقعده أطلق "سورد" عليه الرصاص مرّتين في صدره فهوى أبو جهاد إلى الأرض. واندفع "سورد" بسرعة وأطلق رصاصتين أخريين على جبهته... واختفى في ظلام الليل[1].

كان من غير المعقول عدم تمكّن الاسرائيليّين من أبو جهاد بعد تجييشهم كلّ هذه الامكانات لاغتياله. ولا بدّ من التساؤل عن مصدر الامكانات الماديّة التي كان بوسع إسرائيل أن ترصدها من أجل القيام بعمليّة اغتيال، وهي تقدّر بعشرات ملايين الدولارات. من هنا خطورة إرهاب الدولة، ذلك أنّ الدولة تتمتّع بقدرات تفوق بكثير قدرات الأفراد والمنظّمات. ومتى كانت الدولة إرهابيّة أصبح بمقدورها أن تفجّر العالم في لحظة من اللحظات. وللمرّة الأولى واجهت عمليّة اغتيال إسرائيليّة انتقادًا علنيًّا من داخل الحكومة الاسرائيليّة. فقد أعلن وزير الحكومة عازر وايزمن أنّ تصفية الأشخاص لن تؤدّي إلى تقدّم عمليّة السلام. ورغم ذلك، فقد استمرّ مسلسل الاغتيالات على أيدي الاسرائيليّين وأجهزة مخابراتهم في أشكال مختلفة من أشكال إرهاب الدولة.

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٢٩ ـ ١٣١.

فبعد شهرين فقط اضطرّت شرطة جنوب أفرقيا إلى الكشف عن سرّ كانت إسرائيل قد ضغطت عليها لمنع تسريبه. إذ كان الموساد قد أعدم رجل أعمال من جوهانسبورغ يدعى "ألان كيدجر"، كان يمدّ إيران والعراق بمعدّات عالية التقنيّة يمكن استخدامها لصناعة أسلحة بيوكيمائيَة. وكان قد عُثر على الرجل مقتولاً وقد بُترت ساقاه وذراعاه. وقال كبير المحقّقين في شرطة جوهانسبورغ العقيد "تشارلز لاندمان" أنّ القتل كان رسالة واضحة من حكومة إسرائيل أرسلتها عن طريق الموساد.

مَصرَع أميرَام نير: السِرُّ المَكتُوم

هناك الكثير من الأحداث المتعلّقة بشؤون الاستخبارات في العالم الذي لم تُحلّ بعد ألغازه على الملأ، وربّما بعضها لن يحلّ أبدًا. ومن هذه الأحداث والحوادث، قضيّة مقتل "أميرام نير"، الرجل المغرم بروايات "جيمس بوند"، والذي حلّ على ديفيد كيمحي كممثّل لإسرائيل في فضيحة "إيران غيت".

كان أميرام نير الرجل المختار لوظيفة مستشار رئيس الوزراء شيمون بيريز لشؤون مكافحة الإرهاب. وكان استغلاليًّا مولعًا بالكسب وفضوليًّا ومناورًا وقاسيًا، كان يتمتّع بجاذبيّة خليعة ويفتقر إلى ضبط النفس، وكانت له مقدرة على الهزء والاستخفاف وعلى القفز الخياليّ وخرق القواعد لتأسيس عمله على مزيج من الحقائق والخيال.

كان أميرام نير صحافيًّا. أمّا معرفته السابقة بالاستخبارات فمنشؤها عمله كمراسل للتلفزة الاسرائيليّة، ثمّ عمله لكبرى صحف إسرائيل اليوميّة "يديعوت أحرونوت" التي تملكها عائلة موسى التي صاهرها نير.

كانت أمبراطوريّة النشر هذه رمزًا للاحترام في إسرائيل، قاعدتها الماليّة صلبة وتعامل موظّفيها وفقًا للقول المأثور: إجتهد وخذ نصيبيك العادل. ولم يؤدّ زواج نير إلى جعله زوج إحدى أغنى نساء إسرائيل فحسب، بل وإلى تمكينه من الاتّصال السهل بالدوائر العليا للهرميّة السياسيّة في البلاد. ومع ذلك فقد قوبل بالدهشة قرار جعله أحد أهمّ أعضاء أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة عام ١٩٨٤ عندما أسند إليه بيريز منصب مستشاره لمكافحة الإرهاب، وهو أكثر المناصب حساسيّة على الإطلاق.

كان أميرام نير في الرابعة والثلاثين من عمره عندما أسند إليه المنصب، وكانت التجربة العمليّة الوحيدة التي له في حقل الاستخبارات الدورة الدراسيّة القصيرة التي انضمّ إليها في الجيش. وكان الرأي الغالب حتّى بين أصدقائه هو أنّ وظيفته الجديدة تتطلّب أكثر من ملامحه الوسيمة القاسية. وقد جاء أول ردّ فعل على تعيين نير من رئيس الموساد ناحوم عدموني الذي غيّر هيكليّة لجنة رؤساء الأجهزة لاستبعاد نير عن مناقشاتها. ولم يثبّط ذلك من عزيمة نير الذي أمضى الأسابيع الأولى بعد تعيينه وهو يقرأ بسرعة كلّ ما تقع يداه عليه. وسرعان ما بدأ التركيز على عمليّة بيع الأسلحة إلى إيران التي كانت لا تزال جارية. وإذ استشعر أنّ فيها فرصة تمكّنه من إثبات كفاءته، أقنع بيريز بأن يتولّى بنفسه الدور الذي كان تخلّى عنه ديفيد كيمحي في إدارة تلك العمليّة.

وجد نير نفسه يعمل إلى جانب الأميركي "أوليفر نورث"، ولم يلبث الرجلان أن وجدا نفسيهما متعاونَين في شؤون التجارة والسمسرة في أرجاء العالم. وأثناء أسفارهما وضع الرجلان خطّة للوصول بصفقة مقايضة الأسلحة بالرهائن إلى نهايتها الناجحة التي تصوّرا أنّها ستكون مذهلة. وقد قضت الخطّة بأن يسافر نير ونورث إلى طهران ويجتمعا بالقيادة الإيرانيّة ويتفاوضا معها على إطلاق الرهائن. وفي ٢٥ أيّار ـ مايو

١٩٨٦ تنكّر نير ونورث بملابس موظفين فنيّيين في شركة الطيران الإيرلنديّة "إير لينغوس"، فسافرا جوًّا من تلّ أبيب إلى طهران على متن طائرة إسرائيليّة دُهنت بألوان الشركة الإيرلنديّة ورسم عليها شعارها المميّز. كانا ينقلان على الطائرة سبعة وتسعين صاروخًا موجّهًا من طراز "تاو" ومنصّة نقّالة مُلئت بقطع غيار صواريخ "هوك".

كان نير يحمل في تلك الرحلة جواز سفر أميركيًّا مزيّفًا جاءه به نورث. وقد تمكّن نورث المسيحي المعمداني بطريقة ما من إقناع الرئيس ريغن بكتابة إهداء على نسخة من الكتاب المقدّس إلى حجّة الإسلام رفسنجاني المسلم الورع. كذلك فقد نقل معه قالبًا من الكاتو بالشوكولا ومجموعات من مسدّسات "كولت" لتقدّم إلى المسؤولين. كان ذلك يذكّر بالأيّام الخوالي عندما كان التجّار يتقايضون مع الهنود الحمر على الأرض في منهاتن.

ويقول باحثون إنّ الموساد لم يعرف بأمر المهمّة إلاّ عندما دخلت الطائرة الفضاء الإيرانيّ. وقد وصف ردّ فعل ناحوم عدموني بأنّه "غضب شديد". ولحسن الحظّ اكتفى الإيرانيّون بطرد الزائرَين واستغلّوا المهمّة لتسجيل انتصار دعائيّ هائل على الولايات المتّحدة، ما أهاج الرئيس الأميركيّ رونالد ريغن. وفي تلّ أبيب شتم عدموني نير ووصفه بأنّه "راعي بقر". ومع ذلك فقد تمكّن نير من المحافظة على منصبه الحكوميّ لعشرة أشهر أخرى عندما تحوّل النقد الصادر عن أجهزة الاستخبارات والداعي إلى إعفائه من منصبه إلى سيل لا ينقطع. وإذ لم يعد موضوع ترحيب في واشنطن، وصار منعزلاً في تلّ أبيب، استقال أميرام نير من منصبه كمستشار لرئيس الوزراء لشؤون مكافحة الإرهاب في آذار - مارس ١٩٨٧.

في هذه الأثناء، كان زواج نير يواجه المتاعب ودائرة أصدقائه تتقلّص، وفي أوائل أيلول - سبتمبر غادر إسرائيل ليقيم في لندن مع امرأة كنديّة جميلة ذات شعر أسحم

تدعى "أدريانا ستانتون". كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وتقول إنّها سكرتيرة من "تورنتو"، التقاها نير أثناء أسفاره. لكنّ عددًا من ضبّاط الموساد يعتقد أنّ سانتون كانت على صلة بوكالة CIA، وأنّها إحدى النساء اللواتي تستخدمهنّ الوكالة في عمليّات الإيقاع بالرجال.

عمل نير في لندن كمندوب أوروبّي لشركة مكسيكيّة تتعاطى الاتّجار بثمر الأفوكادو إسمها "نوكال دي مكسيكو"، وهي تملك ثلث سوق تصدير الأفوكادو في البلاد.

في ليلة من ليالي تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٨ الممطرة، جاء الاستخباراتي الاسرائيلي "آري بن مناشي" إلى نير ليعرف بالضبط ما يعتزم نير الكشف عنه عندما سيمثل كشاهد رئيسي في محاكمة أوليفر نورث لدوره في فضيحة "إيران غيت". وأوضح نير أنّ شهادته ستسبّب حرجًا كبيرًا ليس لإدارة ريغن فحسب، بل ولإسرائيل أيضًا، فهو يعتزم أن يظهر مبلغ سهولة تجنّب كلّ عمليّات التفتيش والتدقيق والقيام بعمليّات غير قانونيّة تتورّط فيها بلدان عدّة بينها جنوب أفريقيا وتشيلي. وأضاف أنّه يفكّر بوضع كتاب يعتقد أنّه سيجعله أعظم مَن دقّ ناقوس الخطر في تاريخ إسرائيل.

إنّ ما ستبيّنه الأحداث في ما بعد، هو أنّ نير قد كتب ورقة نعيه من خلال تلك التصريحات الخطيرة.

كان بن مناشي قد طلب لقاء نير بعدما قام بزيارة أخرى إلى "نوكال" في المكسيك. في الوقت نفسه نبّه بن مناشي نير إلى ضرورة "أخذ الحذر من تلك المرأة" مشيرًا إلى أدريانا ستانتون التي كانت قد تركتهما في خلوة. ورفض بن مناشي أن يكشف عمّا دعاه إلى توجيه التحذير مكتفيًا بالقول بطريقته الغامضة المعتادة "إنّني أعرفها من قبل، ونير لا يعرف الحقيقة، وهي أنّ اسمها الحقيقيّ ليس أدريانا ستانتون".

في ٢٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٨ سافر نير وستانتون معًا إلى مدريد، تحت إسمَين مستعارَين. كان اسمه المستعار "باتريك ويبر"، وهي الهويّة التي استخدمها آخر مرّة في رحلته المشؤومة إلى إيران. أمّا ستانتون فقد ظهر اسمها "أستير أريا" في بيان الركّاب لدى شركة طيران "إيبيريا" الإسبانيّة.

السؤال الذي لم يلقَ جوابًا هو: لماذا اختارا إسمين مستعارين لشراء تذاكر السفر بينما سافر كلاهما بجوازَي سفرهما الحقيقيّين، واحد إسرائيليّ والآخر كندي؟ واللغز الآخر هو: لماذا سافرا إلى مدريد بينما كانت هناك رحلات مقرّرة مباشرة إلى مدينة مكسيكو؟ هل كان نير يحاول أن يبهر عشيقته بمدى سهولة خداع معظم الناس معظم الوقت؟ أم كان هناك خوف مزعج قد تولّد في نفسه بعد زيارة بن مناشي له؟ وكحال كثير من الأسئلة التي طرحت في ما بعد بقيت هذه الأسئلة بلا أجوبة.

وصل نير وستانتون إلى مدينة مكسيكو في ٢٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر، وكان بانتظارهما على المطار رجل لم تُعرف هويّته. وتابع الثلاثة سفرهم إلى "أوراوبان" حيث مقرّ الشركة المكسيكيّة، فوصلوها بعد الظهر.

بعد الوصول إلى أوراوبان، استأجر نير طائرة من طراز "سيسناتي ٢١٠" من شركة "أيروتاكسيس دي أوراوبان". وعاد نير إلى سلوكه المترجرج الغريب، فاستأجر بعد يومين طائرة باسم "باتريك ويبر" مستخدمًا بطاقة ائتمان بهذا الإسم للدفع، واتّفق مع طيّار على نقله وعشيقته جوًّا إلى مصنع المعالجة التابع للشركة. وفي الفندق المحلّي الذي نزلا فيه في غرفة واحدة سجّل نير اسمه الحقيقيّ. أمّا الرجل الذي رافقهما من مدينة مكسيكو فاختفى بغموض مثلما ظهر. وفي ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ظهر نير وستانتون في مطار أوراوبان، وكان برفقتهما رجل آخر كان اسمه على بيان المسافرين "بيدرو اسبيونوزا هونتادو". ولا تزال سرًّا مطلقًا هويّة من يعمل

لهم هذا الرجل، وكذلك لماذا اختار نير وستانتون ذكر اسميهما الحقيقيّين لإدخالهما على بيان المسافرين. وربّما لاحظ الطيّار الخلاف بين اسم نير واسم من استأجر طائرة "سيسنا"، لكنّه لم يعلّق.

أقلعت الطائرة في أحوال طيران جيّدة، وكان على متنها طيّار ومساعد طيّار وركّابها الثلاثة. وبعدما قطعت مسافة مئة ميل من الرحلة تعطّل محرّكها فجأة، وبعد لحظات تحطّمت فقُتل نير والطيّار. وأُصيبت ستانتون بجروح خطيرة أقلّ منها جروح مساعد الطيّار وهونتادو.

كان بين من تولّوا أعمال الإغاثة "بيدرو كروتشيت"، وكان أوّل من وصل إلى مسرح حادث تحطّم الطائرة، ولدى وصوله كان هونتادو قد اختفى، وكغيره من الشخصيّات الغريبة لم يظهر مرّة أُخرى.

أمّا كيف صادف بالضبط أنّ كروتشيت كان أوّل الواصلين إلى مسرح الحادث فأمر محيّر. وقد زعم أنّه يعمل في شركة "توكال"، لكنّ مصنع الشركة كان على مسافة بعيدة جدًّا من مكان الحادث. ولم يستطع أن يوضح لماذا صودف وجوده على مقربة من مكان تحطّم الطائرة. وحين سألته الشرطة عمّا يثبت هويّته، ادّعى أنّه فقد أوراقه الثبوتيّة في ميدان لصراع الثيران. وتبيّن أن كروتشيت أرجنتيني يقيم في المكسيك بصورة غير شرعيّة. وفي الوقت الذي تأكّد ذلك كان هو أيضًا قد اختفى.

في مكان تحطّم الطائرة تمكّن كروتشيت من العثور على جثّة نير والتعرّف إليها، وبعدها رافق ستانتون إلى المستشفى وكان معها عندما جاء صحافيّ محلّي طالبًا مزيدًا من التفصيلات. ويزعم "جول باينرمان" ناشر التقرير الاستخباراتي الإسرائيلي "أنّ امرأة شابّة أشارت إلى أنّ كروتشيت كان حاضرًا. وعندما ذهبت لتأتي به أطلّت امرأة أخرى من الباب، وقالت للصحافيّ إنّ كروتشيت غير موجود، وإنّها لم تسمع به أبدًا.

وأكّدت المرأة الثانية أنّ وجود ستانتون على طائرة سيسنا كان محض مصادفة ولا علاقة تربطها بالإسرائيلي. وقد رفضت أن تعرّف عن نفسها سوى بالقول إنّها من الأرجنتين وتزور المكسيك كسائحة".

وزادت ستانتون الأمر غموضًا، فأبلغت المحقّقين في حادث تحطّم الطائرة، كما نقل ذلك الصحافي الإسرائيلي "ران أديليست" عام ١٩٩٧ قولها: "كانت مصابة ومذهولة ورأت أميرام نير على بعد أمتار منها، وهو يلوّح بيده مهدّئًا من روعها بصوت طبيعيّ قائلاً ـ كلّ شيء سيكون على ما يرام... النجدة في الطريق إلينا. وقد أكّدوا لها مرّتين في الأيّام التالية بأنّ نير حيّ".

نُقلت جثّة نير جوًّا إلى إسرائيل للدفن. وحضر الجنازة ما يزيد على ألف شخص. وفي كلمة الرثاء تحدّث وزير الدفاع إسحق رابين عن نير و"مهمّته إلى أماكن لم يُكشف النقاب عنها بعد في مهمّات سريّة وأسرار بقيت محفوظة في قلبه".

ويتساءل غوردون طوماس في كتابه "إنحطاط الموساد": هل قُتل أميرام نير لضمان عدم البوح بتلك الأسرار؟ هل كانت جثّة نير فعلاً في التابوت؟ أم هل قُتل قبل تحطّم الطائرة؟ وإذا صحّ ذلك فمن قتله؟ ولا يزال ستار من الصمت يواجه مثل هذه الأسئلة في تلّ أبيب وواشنطن.

ويقول آري بن مناشي: "بعد يومين من تحطّم الطائرة، كنت خارجًا من مكتب للبريد في وسط سانتياغو في تشيلي، وبرفقتي حارسان شخصيّان كنت أشعر أنّهما ضروريّان لحمايتي. وفجأة تحطّم الزجاج الذي كنت أسير بمحاذاته، ثمّ ارتطم شيء ما بحقيبة اليد المعدنيّة الخاصّة التي أحملها. فانبطحت وانبطح معي الحارسان أرضًا إذ تحقّقنا أنّ أحدًا يطلق علينا النار". وبعده صارت ستانتون تشعر أنّ حياتها في خطر.

ويقول إيديليست إنّ مصادر اتّصالاته الاستخباراتيّة أبلغته أنّها "صارت منعزلة عن العالم وخضعت لعمليّات جراحيّة وغيّرت مظهرها".

شيئًا فشيئًا زادت قناعة الموساد بأنّ وكالة CIA قتلت نير. ويقول أري بن مناشي: "لطالما آمنت الاستخبارات الاسرائيليّة بأنّها عمليّة دقيقة التنفيذ قامت بها CIA، فلقد ضمن موت نير ألاّ يواجه ريغن وبوش الأب أيّ إحراج أثناء محاكمة أوليفر نورث".

هذه النظريّة لقيت الدعم من قائد البحريّة الأميركيّة الذي رافق نير إلى طهران في مهمّة "الفاكهاني" لتحرير الرهائن المحتجزين في بيروت. وقد دارت قصّة القائد حول زعمه أنّ نير اجتمع مع جورج بوش الأب، الذي كان نائبًا للرئيس في ذلك الوقت، في ٢٩ تمّوز ـ يوليو ١٩٨٦ في فندق الملك داود في القدس لإطلاعه على سير عمليّة بيع الأسلحة الأميركيّة عبر إسرائيل لإيران. ويقول الكابتن "جول باينرمان": كان نير يقوم بتسجيل المحادثة كلّها على شريط، فكان في ذلك الدليل على علاقة بوش بصفقة مقايضة السلاح بالرهائن. وكان في الاجتماع "ماك ـ كي" و"غانون" اللذان قتلا لاحقًا في حادث انفجار طائرة "بان أميركان" فوق لوكربي". ويصف باينرمان زيارة قام بها القائد إلى مقرّ CIA في لانغلي حيث اجتمع بأوليفر نورث قبل شهر من مثوله أمام المحكمة. ويقول الكاتب إنّ القائد سأل نورث: "ماذا حلّ بنير؟ فأبلغه نورث أنّ نير قُتل لأنّه هدّد بإذاعة التسجيل عن اجتماع تلّ أبيب". ولمّا حاول بعض الصحافيّين استجواب نورث حول المسألة لم يتمكّنوا من الوصول إليه. واتّخذ مساعدو بوش على مرّ السنوات موقفًا مماثلاً إذ قالوا بأنّ "كلّ ما عند الرئيس السابق للولايات المتّحدة حول قضيّة "إيران غيت" قد قاله".

في أواخر تمّوز ـ يوليو ١٩٩١ اقتحم مجهولون منزل أرملة نير: جودي، بقصد السرقة. ولم يُسرق من المنزل إلاّ تسجيلات نير ووثائقه. وتقول المعلومات إنّ الاقتحام

"من عمل محترفين مهرة". وقالت جودي نير إنّها على يقين بأنّ المادّة المسروقة تحتوي "معلومات تتعرّض لبعض الأشخاص". ورفضت الإدلاء بأيّ تصريح آخر. ولم تُستعد المسروقات. وبقيت هويّة اللصوص مجهولة[1].

تبقى قضيّة مقتل نير لغزًا بالنسبة لعامّة الناس بمن فيهم ربّما زوجة نير وسواها من أقربائه ومن المقرّبين منه. لكنّها حتما ليست كذلك بالنسبة إلى الموساد. ويبقى الناس يتساءلون عن فحوى كلام رئيس الوزراء إسحق رابين في تأبينه لنير: "... مهمّته إلى أماكن لم يُكشف النقاب عنها بعد، في مهمّات سريّة وأسرار بقيت محفوظة في قلبه".

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٤٨ ـ ٣٥٣.

إغتيال العَالِم الكَنَدي الدكتُور جيرَالد بُول

كان الدكتور "جيرالد بول" عالمًا كنديًا وأعظم خبراء العالم في البالستيات المدفعيّة. وقد منيت إسرائيل بالفشل غير مرّة وهي تسعى لشراء خبرته. فكان بول في كلّ مرّة يظهر كرهه للدولة اليهوديّة. وكبديل عنها، عرض بول خدماته على الرئيس العراقي صدّام حسين لصنع مدفع عملاق قادر على إطلاق طويل المدى للقذائف. كان يبلغ طول ماسورة المدفع العملاق ٤٨٧ قدمًا وهي مصنوعة من ٣٢ طنًا من الفولاذ تقدّمها الشركات البريطانيّة إلى العراق. وفي أواخر عام ١٩٨٩ جرى اختبار نموذج أوّليّ لهذا المدفع فأطلق النار من مدى رماية مدفعيّة على الموصل في شمال العراق. وطلب صدّام حسين أن يُبنى ثلاثة من هذه المدافع بكلفة ٢٠ مليون دولار. وأعطي جيرالد بول وظيفة ثابتة كمستشار مقابل مليون دولار أميركي. وأطلق على المشروع اسم "بابل".

كانت شركة جيرالد بول "سبايس ريسرتش كوربوريشن SRC" مسجّلة في بروكسل كشركة لتصميم الأسلحة. ومن بروكسل كانت الشركة ترسل مشتريات مفصّلة إلى الشركات المصنّعة في أوروبّا، ومنها عشرون شركة بريطانيّة، لتزويدها بالقطع ذات التقنيّة العالية.

في ١٧ شباط - فبراير ١٩٩٥، حصل ضابط استخبارات في بروكسل على نسخ من الوثائق تعيّن الأهداف التقنيّة لمشروع "بابل"، وهي إنتاج مدفع عملاق يطلق

صواريخ بالستيّة متوسّطة المدى. وكان قلب نظام الاطلاق في السلاح رزمة من ثمانية صواريخ من طراز "سكود" تمنح الرؤوس الحربيّة مدى يصل إلى ١,٥٠٠ ميل. وعندما وصلت المعلومات إلى ناحوم عدموني المدير العام للموساد، طلب لقاء عاجلاً برئيس الوزراء إسحق شامير. وكان شامير زعيمًا إرهابيًّا سابقًا حارب البريطانيّين بقوّة خلال الأسابيع الأخيرة من عمر الانتداب البريطاني في فلسطين. وكان الموساد يحبّ مثل هذا النوع من الزعماء السياسيّين الذين يؤيّدون تأييدًا تامًّا تدمير أعداء إسرائيل. فخلال ستّينات القرن العشرين عندما كان علماء الصواريخ الألمان يعملون في مصر لتزويدها بأسلحة ذات مدًى طويل قادرة على ضرب إسرائيل عبر صحراء سيناء، استعان الموساد بخبرة شامير في التحضير لعمليّات اغتيال العلماء الألمان. كان اختصاصه خلال حكم الانتداب البريطانيّ إيجاد السبل للقضاء على الجنود البريطانيّين. وكان شامير قد أرسل عناصر من منظّمته الإرهابيّة السريّة للمشاركة في قتل العلماء الألمان. وقد أصبح بعض هؤلاء السفّاحين في ما بعد الأعضاء المؤسّسين لوحدة الاغتيال في الموساد.

لم يستغرق درس شامير لملف جيرالد بول في مركز الموساد وقتًا طويلاً. كان الجهاز قد قام بعمله بدقّة، فتابع سيرة بول منذ نال درجة الدكتوراه في الفيزياء وهو في سنّ الثانية والعشرين، بعدها عمل في مؤسّسة تطوير الأبحاث والأسلحة التابعة للحكومة الكنديّة. وهناك اصطدم برؤسائه، الأمر الذي زرع بذور عدائه الأبديّ للبيروقراطيّين. بعدها أنشأ شركته الاستشاريّة الخاصّة، وأصبح ما أسماه الملفّ ببعض السخرية "بندقيّة للإيجار". وتكرّست شهرته كمخترع سلاح عام ١٩٧٦ عنما صمّم مدفع "هويتزر" عيار ٤٥، الذي يستطيع أن يصيب أهدافًا على مسافة خمسة وعشرين ميلاً. وقتها كان السلاح المماثل الذي تملكه قوّات الحلف الأطلسيّ ـ الناتو ذا مدى

يصل إلى سبعة عشر ميلاً فقط. ولكنّ بول لم يلبث أن اصطـدم بالسياسـات الحكوميّـة، فمُنعت الدول الأعضاء في حلف الناتو من شراء المدفع الجديد بسبب نفوذ مجموعـات اللوبي القويّة لمصلحة كبار منتجي السلاح الأوروبيّين. واضطرّ جيرالد بـول إلـى بيـع المدفع إلى جنوب أفريقيا. بعدها انتقل بـول إلـى الصيـن حيـث سـاعد جيش التحريـر الشعبي هناك على تطوير قدراته الصاروخيّة، فقوّى صواريخ "سيلك روم" التـي لـدى الصين بتطويل مداها وزيادة حمولتها من المتفجّـرات. بعدهـا عمـدت الصيـن إلـى بيـع كميّات من هذه الصواريـخ إلـى العـراق. وقـد اسـتخدمت بغـداد هـذه الصـواريـخ أثنـاء حربها الطويلـة ضـدّ إيـران، لكنّهـا احتفظـت بكميّـات مـن منصّاتهـا تكفـي لإثـارة قلـق الموساد من أنّها ستُطلق لاحقًا على إسرائيل.

وراح مشروع بابل يتقدّم بنجاح، فقد جرى اختبار نموذج أوّليّ أكثر تطوّرًا. وبعـد ظهر يوم ٢٠ آذار ـ مـارس ١٩٩٠، أثنـاء اجتمـاع عقـده نـاحوم عدمونـي مـع رئيـس الوزراء إسحق شامير في مكتبه، وافق شامير على اغتيال الدكتور جيرالد بـول. وبعـد يومين وصل فريق الاغتيال المؤلّف من شخصين إلى بروكسـل حيـث كـان بانتظـارهم ضابط استخبارات إسرائيليّ مقيم، كان يرصد نشاطات بول عـن قـرب. وعنـد السـاعة السادسة وخمس وأربعيـن دقيقـة مـن مسـاء ٢٢ آذار ـ مـارس ١٩٩٠ وصـل الرجـال الثلاثة في سيّارة مستأجرة إلى المبنى الذي تقع فيه شقّة بول، وكـان كـلّ مـن عضـوي فريق الاغتيال يحمل مسدّسًا في قراب جلديّ خبّأه تحت سترته. وبعـد عشـرين دقيقـة كان الدكتور جيرالد بول البالغ من العمر ٦١ عامًا يفتـح بـاب شـقّته الفـاخرة لقارعيـه. فأطلقوا عليه خمس طلقات أصابته في رأسه ورقبتـه وتركـوه قتيـلاً عنـد عتبـة البـاب. وأكّد ابنه مايكل في ما بعد على أنّ والده تلقّى تحذيرًا بأنّ الموساد سيقتله، لكنّه لم يقـل ممّن تلقّى هذا التحذير ولماذا تجاهله.

حالما عاد فريق الاغتيال من مهمّته بدأ قسم الحرب السيكولوجيّة في الموساد يغذّي وسائل الإعلام بروايات ملفّقة تدّعي أنّ جيرالد قُتل لأنّه كان يعتزم التراجع عن اتّفاق عقده مع العراق[1].

الموسَاد يَغتَال كَبيرَ عملائه: رُوبرت مَاكسويل

لا أحدٌ يستطيع أن يتصوّر بلوغ مؤسّسة هذا المبلغ من العقّ الذي بلَغه الموسَاد في تدبير وتنفيذ عمليّة قتل أحد كبار عملائه العالميّين "روبرت ماكسويل" بعد كلّ ما قدّمه ذلك العميل من خدمات لإسرائيل، وهو في قمّة نجاحه، وعندما حطّ به الدهر ولجأ إلى الدولة التي خدمها بكلّ إمكاناته، كان جزاؤه الاغتيال بدل مساعدته على تخطّي محنته.

كان روبرت ماكسويل رجل أعمال وصحافيًّا بريطانيًّا من أصل تشيكوسلوفاكيّ، إشترى في بداية ثمانينات القرن العشرين مجموعة صحف "ميرور" اللندنيّة التي تصدر عنها جريدتا "دايلي ميرور" و"صانداي ميرور". ومنذ ذلك الحين وضع نفسه ومؤسّسته في خدمة الموساد وإسرائيل لقاء عمولات كبرى. وجاء عنه أنّه "منذ عام ١٩٨٤ والناشر روبرت ماكسويل أحد أقوى المتطوّعين اخدمة الموساد في بريطانيا". وهو الذي أصدر جريدة "معاريف" في إسرائيل.

ماكسويل، الذي كان يُعَدّ أحد بارونات الصحافة الأقوياء، تطوّع لتقديم خدماته للموساد في نهاية اجتماع عقده عام ١٩٨٤ في القدس مع شيمون بيريز الذي كان قد

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٣٧ ـ ١٣٩.

شكّل أخيرًا حكومة إئتلافيّة. ويتذكّر أحد معاوني بيريز أنّ اللقاء كان "لقاء المغرور المصاب بجنون العظمة". فلقد كان بيريز متغطرسًا واستبداديًّا. ولكنّ ماكسويل لم ييأس، فقال مثلاً "إنّني سأجعل الملايين تتدفّق على إسرائيل" و"سأنعش الاقتصاد الاسرائيليّ". كان يتصرّف كمرشّح للانتخابات. وكان كلامه طنّانًا، وقاطع محادثه غير مرّة، وخرج عن الموضوع، وأطلق نكاتًا غير مهذّبة. أمّا بيريز فجلس مكانه وهو يبتسم ابتسامة مثلوجة.

كان بيريز يدرك أن ماكسويل قد أنشأ على مرّ السنين علاقات قويّة في أوروبّا الشرقيّة، ولذا رتّب لماكسويل لقاء مع رئيس الموساد ناحوم عدموني. وجرى الاجتماع في "الجناح الرئاسيّ" في فندق الملك داود في القدس حيث أقام ماكسويل. وقد وجد الرجلان جامعًا مشتركًا هو نشأتهما في وسط أوروبّا. فماكسويل مولود في تشيكوسلوفاكيا، وكان يجمعهما أيضًا التزامهما الشديد بالصهيونيّة، واعتقادٌ بأنّ لإسرائيل "حقّ إلهيّ" بالوجود. كما تجمع بينهما شهيّة عظيمة للطعام والخمر الجيّدة.

أبدى عدموني اهتمامًا شديدًا بوجهة نظر ماكسويل بأنّ كلاًّ من الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ تحدوهما الرغبة نفسها في تحقيق السيطرة الكونيّة ولكن بطرق مختلفة اختلافًا كبيرًا.

فالفوضى الدوليّة تمثّل جزءًا من استراتيجيّة روسيا، في حين ترى واشنطن العالم ضمن تصنيف "الأصدقاء" و"الأعداء"، وليس كدول ذات مصالح أيديولوجيّة متضاربة.

وعرض ماكسويل رؤيا تبصّريّة أخرى منها أنّ الاتّصال السرّي بين وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA ونظيرتها الصينيّة أقلق وزير الخارجيّة الأميركيّة التي رأت أنّ ذلك سيصطدم بالعمل الدبلوماسي والنشاطات السياسيّة في المستقبل.

رسم ماكسويل صورتين دقيقتين لرجلين يهتمّ بهما عدموني كثيرًا، فقال إنّه بعد لقاء رونالد ريغن خرج بشعور بأنّ الرئيس متفائل أبديّ يستخدم جاذبيّته لإخفاء صورة السياسيّ الصلب. وأخطر نقطة ضعف لدى ريغن هي تسطيحه الأمور خصوصًا في الشرق الأوسط حيث لا يعدّل طول تفكيره في الأمور من حكمه الأوّليّ الانفعاليّ.

اجتمع ماكسويل أيضًا بوليم كيسي، رئيس الاستخبارات الأميركيّة، وكان حكمه عليه أنّه ضيّق الأفق، وأنّه ليس صديقًا لإسرائيل. كان كيسي يدير وكالة ذات كفاءة عالية بأفكار قديمة تتعلّق بدور الاستخبارات في ميادين الصراع العالميّ السياسيّ الراهن. ويرى ماكسويل أنّ أوضح ما يكون ذلك في الطريقة التي أساء فيها كيسي قراءات نوايا العرب في الشرق الأوسط.

تطابقت هذه الآراء تمامًا مع آراء ناحوم عدموني. وبعد الاجتماع ركب الرجلان سيّارة عدموني إلى مقرّ الموساد الرئيسيّ حيث اصطحب المدير العام ضيفه في جولة على بعض المنشآت.

بعد مرور سنة على اجتماعهما تقابل الرجلان مرّة ثانية في ١٥ آذار ـ مارس ١٩٨٥، يوم دخل جناح ماكسويل في مركز صحيفة "ميرور" في حيّ "هاي هولبرن" في لندن ناحوم عدموني وبرفقته "آري بن مناشي" مستشار شؤون الاستخبارات لدى الحكومة الإسرائيليّة، من دون علم مسبق بأنّ هناك شخصًا آخر سيجالسانه ويشاطرانه حلقات الحلوى والسمك المدخّن والقهوة التي أمر ماكسويل بأن يأتوه بها كلّما جاء إلى مكتبه. وفي حركة إستعراضيّة قدّم ماكسويل لضيفيه "فيكتور شبريكوف" نائب رئيس الاستخبارات السوفياتيّة KGB، وأحد أقوى زعماء التجسّس في العالم. ويقول بن مناشي في تصريح مكبوح قصدًا "إنّ وجود أحد زعماء KGB في مكتب أحد ناشري الصحف البريطانيّة قد يبدو حماقة غريبة، ولكنّ "غورباتشوف" كان حينئذ على صلات

وديّة برئيسة الوزراء البريطانيّة "مارغريت تاتشر"، فكانت مشاهدة شبريكوف في بريطانيا أمرًا مقبولاً".

لكن يختلف الرأي في ما سيكون عليه موقف مؤسّسة الأيديولوجيّة التاتشريّة ومبادئ التجارة الحرّة التي تدعو لها إزاء جدول أعمال الاجتماع.

شارك عدموني وبن مناشي في النقاش وهما متمدّدان على أرائك مكتب ماكسويل الوثيرة. كانوا يسألون عمّا إذا كان بإمكان سبريكوف ضمان سلامة كميّات ضخمة من الأموال إذا جرى تحويلها إلى المصارف السوفياتيّة... كان المال سيأتي من أرباح "أورا"[1] من مبيعات الأسلحة الأميركيّة إلى إيران. وسأل شبريكوف عن حجم الأموال موضوع السؤال، فأجابه بن مناشي: "٤٥٠ مليون دولار أميركي يعقبه مبلغ مماثل... بليون أو أكثر". فنظر شبريكوف إلى ماكسويل للتأكّد من حقيقة ما سمعه فأومأ ماكسويل بحماسة وصاح: "هذه هي البيريسترويكا".

استحسن بن مناشي الاتّفاق لبساطته. فلن تكون هناك جمهرة من الوسطاء الذين ينتزعون حصصهم من السمسرة. فليس ثمّة سوى ماكسويل بعلاقاته، وشبريكوف لما يتمتّع به من سلطان. وسيكون دور ضمان عدم سرقة السوفيات للأموال. واتُّفق على أن تُحوّل دفعة الـ ٤٥٠ مليون دولار الأولى من مصرف "كريدي سويس" إلى "بنك بودابست" في المجر. وسيتولّى هذا المصرف تحويل الأموال إلى المصارف الأخرى في الكتلة السوفياتيّة. وسيتلقّى روبرت ماكسويل عمولة محدّدة قيمتها ثمانية ملايين دولار عن وساطته لعقد الاتّفاق. وتصافح الجميع بالأيدي علامة الاتّفاق. بعدئذ انتقل

---

١ - شركة أورا: وتعني "الضوء" بالعبريّة، هي شركة قابضة مركزيّة أنشأها الإسرائيليّون للتعاطي في بيع الأسلحة الأميركيّة للإيرانيّين في ما يسمّى بـ"إيران غيت".

ضيوف ماكسويل على متن طائرته المروحيّة إلى مطار هيثرو حيث تابعوا رحلات العودة إلى بلادهم.

منذ بداية علاقته بالموساد، اتُّفق على أنّ ماكسويل أثمن من أن يُقحم في شؤون جمع المعلومات السريّة. ويقول أحد العاملين في أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة: "كان ماكسويل يسوّي المشكلات على المستوى الأعلى في حسابات الموساد. كان على اتّصال بكبار المسؤولين. وكانت قوّة صحفه تجعله موضع ترحيب رؤساء الدول ورؤساء الحكومات. ونظرًا لرفعة مقامه كانوا يتحدّثون إليه وكأنّه رجل دولة فعليّ، غافلين عن الجهة التي سيبلّغها المعلومات. وكان مقدار كبير ممّا بلّغه مجرّد ثرثرة، لكنّ بعضه كان قيّمًا دون شكّ. وكان ماكسويل يعرف كيف يطرح الأسئلة. لم يخضع لأيّ تدريب عندنا، لكنّه كان يتلقّى توجيهات بشأن النواحي التي ينبغي استكشافها".

في أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٦ اكتشف ماكسويل محاولة التقنيّ السابق في مفاعل ديمونة الاسرائيليّ "موردخاي فعنونو" نشر وثائق وصور تفضح إسرائيل لجهة تحوّلها إلى دولة نوويّة، وقد لعب ماكسويل بدهائه مع الموساد على التمكّن من اختطاف فعنونو في لندن ونقله مخدّرًا إلى روما ومنها إلى تلّ أبيب حيث حوكم وسجن في سجن إنفراديّ كما سبقت الإشارة. وكانت تلك العمليّة البالغة الأهميّة من أكبر إنجازات ماكسويل في خلال عمالته لإسرائيل.

روبرت ماكسويل الذي طرد مرّة صحافيًّا زوّر فواتير نفقاته، كان هو نفسه يسرق أموال صندوق التقاعد لموظّفيه لدعم الموساد. وتمثّل السرقات الضخمة نموذجًا على مكر الموساد وغلاظة قلوب مسؤوليه واستعدادهم المتزايد للدخول في مغامرات شديدة الخطورة.

كان ماكسويل قد تولّى شخصيًّا تحويل الأموال عبر سلسلة مـن المنـاورات الماليّـة المترابطة التي أثارت دهشة المحقّقين في أعمال الاحتيال المالي لما تتميّز به من نفـاق رفيع الطراز. لقد أعطى ماكسويل الاحتيال الواسـع النطـاق بعدًا جديـدًا تمامًـا، فحـوّل مئـات آلاف الـدولارات دفعـة واحـدة إلـى الحسـاب المصرفـيّ الخـاص للموسـاد لـدى مصرف إسرائيل المركزيّ في تلّ أبيب. وكانت هذه الأموال تنظّف أحيانًا عبر حساب مصرفيّ للسفارة الاسرائيليّة في لندن لدى مصرف "باركليز". واسـتخدم ماكسـويل فـي عمليّات الاحتيال المـاليّ مصـارف أخـرى لـم تكـن تـدري بمـا يجـري ومنهـا "كريـدي سويس" في جنيف، وهو المصرف الذي حوّل منه بـن مناشـي ٤٥٠ مليـون دولار مـن أرباح "أورا" بتواطؤ من ماكسويل. وكـانت أمـوال صنـدوق التقـاعد المسروقة تجـوب العـالم أحيانـًا فتهبط فـي مصـرف "كميكـال بنـك" فـي نيـو يـورك ومصـرف "فيرسـت ناشيونال بنك" الأسترالي ومصارف في هونغ كونغ وطوكيو. وحده روبرت ماكسـويل كان يعلم بأمر اختلاس المال، وأين كان هذا المال قد وصل في رحلته في كلّ مرحلـة. ومـن مفارقـات الأمـور أنّـه كثيرًا مـا وجّـه أوامـره إلـى صحفـه بمهاجمـة "الجريمـة المنظّمة".

كـان "فيكتـور أسـتروفسـكي" الإسـرائيلي الكنـدي المولـد الـذي عمـل كضـابط فــي الموساد من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٦ أوّل من اكتشف ما كان يجري:

"كان الموساد يموّل عددًا من عمليّاته في أوروبّـا مـن مـال مسـروق مـن صنـدوق تقـاعد صحيفـة ماكسويل. فقد وضعـوا أيديهـم علـى أمـوال الصنـدوق حالمـا اشـترى ماكسـويل مجموعـة "ميـرور" الصحافيّـة بـأموال اقترضهـا مــن الموسـاد وبالاسـتعانة باستشارات خبيرة قدّمها محلّلو الجهاز الماليّون. والجانب الفاسد في الأمر، إلـى جـانب السرقة، هو أنّ كلّ من عمل في مؤسّسة ماكسـويل الصحافيّـة وسـافر إلـى أيّ بلـد فـي

الشرق الأوسط كان موضع اشتباه بالعمل لخدمة الموساد، وكان على مسافة إشاعة واحدة من حبل المشنقة".

حين كان ماكسويل يزور إسرائيل كان محلّ حفاوة تُعدّ لرؤساء الدول. فيكون ضيف شرف على حفلات الاستقبال التي تعدّها الحكومة، وتقدّم له أفخر الأجنحة أثناء إقامته. لكنّ الموساد كان حذرًا ومتهيّئًا للحظة التي تقرّر "اليد التي تطعمه" أن تقفل مزاريبها فجأة. وإذ اكتشف الموساد سعة شهيّة ماكسويل الجنسيّة... فقد أعدّ الجهاز العدّة أثناء زيارات رجل الأعمال الثريّ لتكون في خدمته واحدة من مجموعة البغايا اللواتي يوظّفهنّ الموساد لأغراض الابتزاز. ولم يلبث الموساد أن اقتنى مكتبة صغيرة من شرائط الفيديو التي تصوّر ماكسويل في أوضاع فاضحة. فقد أخفيت في حجرة نوم ماكسويل في جناحه في الفندق آلة تصوير للتجسّس عليه.

في المقابل، تمكّن روبرت ماكسويل من إدخال نظام "بروميس" المعلوماتي إلى أجهزة الأمن السوفياتيّة، وهو النظام الذي طوّرته إسرائيل بشكل أصبح بوسع الموساد معه أن يطّلع على الأسرار المحفوظة في أجهزة الكومبيوتر التي تستعمل برنامج "بروميس" المعدّل. كما تمكّن ماكسويل من بيع البرنامج إلى جهاز الاستخبارات البولونيّة، وفي مقابل ذلك سمح البولونيّون، بحسب بعض المزاعم، بسرقة طائرة من طراز "ميغ ـ ٢٩"، وهي العمليّة التي تذكّر بسرقة الطراز الأقدم لطائرة "ميغ" من العراق. فقد سهّل الأمر جنرال بولونيّ يدير مكتب جهاز الاستخبارات البولونيّة في "غدانسك" مقابل مليون دولار أميركيّ أودعت في حساب مصرفيّ في "سيتي بنك" في نيو يورك، إذ اعتبر الطائرة غير صالحة للطيران بالرغم من أنّها كانت قد وصلت حديثًا من مصنع الطائرات الروسيّ. وقد فُكّكت الطائرة ووُضعت أجزاؤها في صناديق كُتب عليها "معدّات زراعيّة" وشُحنت إلى تلّ أبيب. وهناك أعيد تجميع

الطـائرة وأخضعتهـا قـوّة الجـوّ الإسـرائيليّة لاختبـار طـيران، وذلـك لتمكيـن الطيّـارين الاسرائيليّين من مواجهة طائرات "ميغ - ٢٩" العاملة في سوريا.

مضى على حادثة السرقة عدّة أسابيع، قبـل أن تكتشـفها موسكو فـي خـلال جـردة روتينيّة للطائرات التي ترسل إلى بلدان حلف وارسو. فقدّمـت موسكو احتجاجًـا شـديد اللهجة إلـى إسرائيل، دعمتـه بـالتهديد بوقف السماح لليهـود السـوفيات بـالهجرة. أمّـا الحكومة الاسرائيليّة فبعد اطمئنانها إلى أنّ قوّتها الجويّة قد اكتشفت كـلّ أسـرار طـائرة الميغ، اعتذرت بحرارة عن "الحماسة الخاطئة التي أظهرها ضبّاط عملوا بدون تكليـف رسميّ". وأعادت الطائرة على الفور. وأمّا جنرال الاستخبارات البولونيّة فكـان قد فـرّ إلى الولايات المتّحدة ليكون على مقربة من ثروته الماليّة. ووافقت واشنطن على منحـه هويّة جديدة في مقابل السماح لقوّات الجوّ الأميركيّـة بالقيـام بنفسـها بتفحّص طـائرة الميغ".

عقب ذلك سافر روبرت ماكسويل إلـى موسكو لإجراء مقابلـة مـع ميخـائيل غورباتشوف، كما أعلن رسميًّا. أمّا سبب الزيارة الحقيقيّ فكـان بيـع نظـام "بروميس" لجهاز KGB، وأتاح الباب المسحور في البرنامج الفرصـة لحصول إسرائيل بصـورة استثنائيّة على الأسرار العسكريّة السوفياتيّة ما جعل الموساد أحد أكثر الأجهزة اطّلاعًـا على النوايا الروسيّة.

كانت نبرة ماكسويل قد بدأت خلال الزيارات الأخيرة التـي قـام بهـا إلـى إسـرائيل تثير القلق. فقد أبلغ عدموني أنّه ينبغي أن يبدأ بالاستعانة بـالمنجّمين لمعرفـة مـا يـدور في خلد أعداء إسرائيل. وبدأ يقـترح أهدافًـا لأعمـال تصفيـة. ورغـب فـي مقابلـة فـرق القتلة في الموساد وزيارتهم في مخيّمات التدريب. وقد رفض رئيس الموساد جميع هذه الطلبات بحزم لا يجانب التهذيب. لكن بدأت الأسئلة تطـرح فـي دوائـر الموسـاد عـن

ماكسويل: هل كان سلوكه مجرّد سلوك مجنون عظمة يريد أن يتباهى بمكانتـه؟ أم هل يكون ذلك نذيرًا لأمر آخر؟ هل سيأتي أخيرًا اليوم الذي يصبح فيه روبرت ماكسـويل، بالرغم من كلّ ما فعله من أجل إسرائيل، في حالة عقليّة مضطربة وحالة تقلّب مزاج تجعلانه عبئًا فوق الأعباء؟...

عندما أتمّ ماكسويل صفقة بيع برنامج "بروميس" المعلوماتي "الملغوم" إلى موسكو، انتقل من هناك إلى تلّ أبيب. وكالمعتاد، أُعدّ له استقبال الملوك، فأُعفي من جميع شكليّات المطار وقدِم مسؤول رسميّ من وزارة الخارجيّة لاستقباله. غير أنّ ماكسويل قد عامل المسؤول كما يعامل موظّفيه، فأصرّ على أن يحمل المسؤول حقائبه بنفسه ويجلس إلى جانب السائق. وطلب ماكسويل أيضًا أن يعرف أين مرافقه الدرّاج، ولمّا قيل له إن لا مرافق درّاجًا في الرحلة هدّد بالاتّصال بمكتب رئيس الوزراء والعمل على طرد المسؤول. وفي كلّ مرّة توقّفت السيّارة عند إشارة المرور كان ماكسويل يحاضر في المسؤول السيّء الحظ. وظلّ على هذا المنوال حتّى وصل إلى جناحه في الفندق. وهناك كانت غانيته المفضّلة بانتظاره، لكنّه صرفها، فثمّة أمور أكثر إلحاحًا من إرضاء نزواته تشغل باله.

كانت أمبراطوريّة ماكسويل الصحافيّة في لندن تواجه متاعب ماليّة خطيرة. وهي توشك على وقف عمليّاتها ما لم تُضخّ فيها كميّات ضخمة من المال. لكنّ حيّ المال في لندن الذي طالما زوّده بالتمويل من قبل يظهر ممانعة الآن في تقديم المطلوب. فقد تبيّن لأرباب المال الذين تعرّفوا إلى ماكسويل أنّ وراء تهديده ووعيده وأساليبه المترفّعة رجلاً فقد فطنته الماليّة التي كانت تغفر له عندهم الكثير من ذنوبه. ففي ما مضى كان يهتاج ويطلق التهديدات في مواجهة أتفه التحدّيات، لكنّ المصرفيّين كانوا يكبحون جماح غضبهم ويذعنون لمطالبه. وذاك عهد مضى، إذ بات يتردّد في مصرف إنكلترا

المركزيّ والمؤسّسات الماليّة الأخرى في المدينة أنّ الرهان على ماكسويل أصبح محفوفًا بالمخاطر. وقد استند المصرفيّون في معلوماتهم إلى تقارير سريّة وردتهم من إسرائيل تُفيد بأنّ المستثمرين الإسرائيليّين يضغطون على ماكسويل لإعادة أموالهم التي استخدمها في شراء مجموعة "ميرور". فقد مضى موعد استحقاق الدفع منذ وقت طويل والإسرائيليّون يلحّون كثيرًا في طلباتهم. وقد وعد ماكسويل الدائنين بعائدات أعلى على أموالهم إذا هم صبروا عليه وذلك في محاولة منه لتجنّب ضغوطهم. لكنّ ذلك لم يرُق للإسرائيليّين الذين قالوا إنّهم يريدون استعادة أموالهم الآن. ولهذا السبب جاء ماكسويل إلى تلّ أبيب، فقد كان يأمل في أن يتملّقهم علّهم يمنحونه تمديدًا آخر. ولم تكن الدلائل تبشّر بالخير. فقد تلقّى أثناء الرحلة عدّة مكالمات هاتفيّة من مستثمرين غاضبين هدّدوا بإحالة القضيّة إلى السلطة التنظيميّة في حيّ المال في لندن.

وشغلت بال ماكسويل قضيّة أخرى. فقد اختلس بعض الأرباح الهائلة من شركة "أورا" عندما عُهد إليه بإخفاء أموالها في مصارف الكتلة السوفياتيّة، فاستخدم المال لإنقاذ مجموعة "ميرور". وإذ كان قد سرق كلّ ما تمكّن من سرقته من صندوق تقاعد الموظّفين في المجموعة الصحافيّة، فإنّ ما اختلسه من "أورا" لا يغطّي جزءًا كبيرًا ممّا فقده الصندوق. ومتى انكشف أمر السرقة، سيجد ماكسويل نفسه، ليس في مواجهة أصحاب الرساميل الإسرائيليّين وحدهم، بل وفي مواجهة بعض الرجال القساة من جماعة المخابرات الاسرائيليّة.

بدأ ماكسويل يرسم استراتيجيّته في جناحه في الفندق. إنّ حصّته من تسويق برنامج "بروميس" لن تكفي لاجتثاث الأزمة. ولن تكفي أيضًا أرباحه من "معاريف" الصحيفة الاسرائيليّة الصغيرة الحجم التي تشبه صحيفة "دايلي ميرور" التي يملكها. ولكن كان هناك احتمال واحد وهو شركة "سايتكس" ومقرّها تلّ أبيب التي يملكها

ماكسويل والتـي تصنـع معدّات طباعيّـة عاليـة التقنيّـة. وإذا تمكّـن مـن بيـع "سـايتكس" بسرعة فإنّ المال المحصّل يساعد في حـلّ المشـكلة. وسـرعان مـا اسـتدعى ماكسـويل مدير سايتكس، إبن رئيس الوزراء إسحق شامير إلى جناحه. فجاءه المدير بأخبار غير سارّة، مفادها أنّ عقد صفقة بيع سريعة أمر مستبعد. فشركة سايتكس التي تحقّق نجاحًا تواجه في الوقت نفسه منافسة متزايدة. والوقت غير مناسب لطرحها للبيع. والبيع يعني فقدان عدد من الموظّفين الأكفاء لوظائفهم وذلك في وقت أصبحت البطالـة فيـه مشكلة خطيرة في إسرائيل.

كانت ردّة فعل ماكسويل على مـا صـرّح بـه إبـن رئيـس الـوزراء سـورة غضـب هائلة، ذلك أنّه رأى آخر آماله بإنقاذ وضعه يتبدّد. لكنّه ارتكب خطأً تكتيكيًّا عندما وبّخ نجل رئيس الوزراء الـذي أخـبر والـده علـى الأثـر أنّ ماكسـويل يواجـه متـاعب ماليّـة صعبة. ولعلم رئيس الوزراء بالعلاقات التي تربط ماكسويل بالموساد عمـد إلـى إبـلاغ ناحوم عدموني بالأمر، فدعا هذا إلى عقد اجتماع لكبار موظّفيـه لـدرس كيفيّـة معالجـة هذه المشكلة المستجدّة. وتبيّن في ما بعد أنّ المجتمعين بحثـوا فـي عـدد مـن الخيـارات التي استبعدت جميعًا، وكان منها محاولة الضغـط علـى المسـتثمرين الإسـرائيليّين لـدى ماكسويل ليس للانتظار فقط بل لتعبئة إمكاناتهم ومعارفهم من أجل جمـع المـال الـلازم لإنقاذ ماكسويل من ورطته؛ أو أن يحثّ الموساد المتطوّعين من ذوي المنـاصب العليـا في حيّ المال في لندن على مساندة خطّة إنقاذ لماكسويل؛ أو أن يقطع الموسـاد علاقتـه بماكسويل. غير أنّ الاقتراح الأخير قد استُبعد لما فيه من مخاطرة تكمن في أنّه بالنظر لحال ماكسويل العقليّة المترجرجة، فقد يستخدم صحفه لمهاجمة الموساد بالفعل. ويمكن أن يكون لذلك عواقبه البالغة الخطورة باعتبار ما سُمح له بالاطّلاع عليـه مـن أسـرار. أمّا استبعاد الإقتراحين الأوّلين فكان سببه أنّ ماكسويل قد أزعج شـامير كثـيرًا بمواقفـه

المتعجرفة، وكان الجميع يعرف أنّ شامير يتمتّع بحسّ قويّ لحفظ الذات ولا بدّ من أنّه يريد أن يبقى بعيدًا عن ماكسويل. كما تلقّى عدموني تقارير من لندن تشير إلى أنّ عددًا كبيرًا من المتطوّعين لخدمة الموساد يرحّبون بالتخلّص من ماكسويل ...

تجاه هذا الواقع، اتّفق المجتمعون على أن يجتمع عدموني بماكسويل ويذكّره بمسؤوليّته تجاه الموساد وإسرائيل على السواء. وفي تلك الليلة اجتمع الرجلان حول طاولة عشاء في جناح ماكسويل في الفندق. ولا يزال ما دار بينهما من حديث سرًّا. ولكن بعد ساعات من الاجتماع، غادر ماكسويل تلّ أبيب في طائرته الخاصّة. وكانت تلك المرّة الأخيرة التي زار فيها ماكسويل إسرائيل... حيًّا.

عاد ماكسويل إلى لندن وبدا أنّه يحقّق نجاحًا في التمسّك بمجموعته الصحافيّة برغم الظروف الصعبة. وشبّهه البعض بدرويش أفريقيّ دوّام لدورانه السريع حول نفسه فيما كان ينتقّل من اجتماع إلى آخر طلبًا الدعم المالي. وبين الحين والآخر كان يتّصل بالموساد طالبًا التحدّث إلى عدموني، ولا يعرف أحد ما دار بين الرجلين أثناء تلك المكالمات. لكنّ مفتاحًا صغيرًا سيظهر في ما بعد من عميل سابق للموساد يدعى "فيكتور أستروفسكي" الذي يعتقد أنّ ماكسويل كان يصرّ على أنّ وقت تسديد ديونه قد حان، وأنّ مبلغ المال الضخم الذي سرقه من صندوق تقاعد موظّفي "ميرور" يجب أن يعاد إليه الآن...

وفي ٣٠ أيلول ـ سبتمبر ١٩٩١، اتّصل ماكسويل هاتفيًّا بناحوم عدموني بعد أن عاودت أوضاعه الماليّة الانتكاس من جديد، وأصبح هو موضوع تحقيقات يجريها البرلمان وتشارك فيها وسائل الإعلام البريطانيّة التي لم تعد تجد رادعًا في جمهرة المحامين المرتفعي الأجور الذين كانوا يقفون إلى جانب ماكسويل ويهدّدون بإطلاق ما في جعبتهم من دعاوى قضائيّة. وفي ذلك الاتّصال الهاتفيّ، لم يموّه ماكسويل تهديده

لعدموني. فقال له إنّه ما لم يبادر الموساد فورًا إلى إعادة جميع الأموال المسروقة من صندوق تقاعد موظّفي "ميرور" فقد لا يكون بإمكانه الإبقاء على سرّ لقاء عدموني نفسه برئيس جهاز KGB السابق "فلاديمير كريوتشكوف". وكان الأخير سجينًا في موسكو ينتظر محاكمته عن دوره في محاولة انقلابيّة فاشلة لإطاحة "ميخائيل غورباتشوف". وكان من أبرز عناصر الانقلاب اجتماع عقده "كريوتشكوف" على متن يخت ماكسويل في البحر الأدرياتيكي قبَيل محاولة الانقلاب.

كان الموساد قد قطع وعدًا خلال ذلك اللقاء بأن تستخدم إسرائيل نفوذها لدى الولايات المتّحدة والبلدان الأوروبيّة الرئيسيّة لتأمين الإعتراف الدبلوماسيّ بالنظام الجديد في موسكو مقابل قيام كريوتشكوف السماح بهجرة اليهود السوفيات جميعًا إلى إسرائيل. ولم يتوصّل النقاش إلى أيّ نتيجة ملموسة، لكنّه من شأن الكشف عنه أن يلحق أذًى بالغًا بصدقيّة إسرائيل تجاه النظام الروسي القائم وتجاه الولايات المتّحدة الأميركيّة.

يقول فيكتور أستروفسكي إنّه على أثر تلك المكالمة، عقد اجتماع يميني صغير في مقرّ الموساد تقرّر فيه بالإجماع أن يصار إلى تصفية ماكسويل. وإذا صحّ زعم أستروفسكي الذي نشره في كتابه والذي لم تنفه إسرائيل رسميًّا، فمن المستبعد أن تكون المجموعة اليمينيّة قد نفّذت قراراها من دون الحصول على تأييد له على أعلى المستويات، وربّما بمعرفة رئيس الوزراء إسحق شامير الذي شارك بنفسه من قبل في تنفيذ عمليّات قتل أعداء الموساد.

لعلّ ما أعطى المسألة صفة التعجيل في صفوف الموساد صدور كتاب للمحقّق الصحافيّ الأميركيّ الشهير "سيمور هيرش" بعنوان "خيار شمشون: إسرائيل وأميركا والقنبلة"، والذي يروي قصّة تحوّل إسرائيل إلى قوّة نوويّة. فقد فوجئ الموساد بنبإ

صدور الكتاب، وأُرسلت نسخ منه بسرعة إلى تلّ أبيب. والكتاب يستند إلى وثائق مهمّة، كما كشف هيرش في كتابه عن علاقات ماكسويل بالموساد. وتركّزت هذه العلاقات بصورة خاصّة في معالجة مجموعة "ميرور" لقصّة فعنونو والعلاقة بين "أورا" وآري بن مناشي.

في هذه الأثناء، اختبأ ماكسويل خلف مجموعة من المحامين الذين أقاموا دعاوى ضد هيرش ودار النشر البريطانيّة التي أصدرت الكتاب. ولكنّ هيرش قرّر قبول التحدّي، ورفض هذا الصحافيّ الذي حاز على جائزة "بوليتزر" أن يذعن أو يتراجع. ووُجّهت في البرلمان البريطانيّ أسئلة أكثر تحديدًا عن علاقات ماكسويل بالموساد. وعادت الشكوك القديمة تطلّ برأسها من جديد، وطالب نوّاب في البرلمان استندوا إلى الحصانة النيابيّة بمعرفة حجم معلومات ماكسويل عن عمليّات الموساد في بريطانيا. ويقول فيكتور أستروفسكي: "كانت الأرض قد بدأت تشتعل تحت قدمي ماكسويل ".

وزعم أستروفسكي أنّ خطّة الموساد الشديدة الإحكام لقتل ماكسويل كانت ترتكز على إقناعه بالمجيء إلى موعد لقاء حيث يوجّه الموساد ضربته إليه. وثمّة شبه قويّ بين هذه الخطّة والمؤامرة التي أدّت إلى مقتل مهدي بن بركة في باريس.

في ٢٩ تشرين الأوّل - أوكتوبر ١٩٩١، تلقّى ماكسويل مكالمة هاتفيّة من عميل في السفارة الإسرائيليّة في مدريد، طلب منه المجيء إلى إسبانيا في اليوم التالي. ويقول إستروفسكي إنّ العميل "وعد بتسوية الأمور فلا داعي للخوف". وأُبلغ ماكسويل بأنّ عليه السفر جوًّا إلى جبل طارق والصعود إلى يخته "ليدي غيزلين" والإيعاز لطاقم بحّارته بالإقلاع إلى جزر الكناري والانتظار هناك حتّى ورود رسالة.

لم تخامر ماكسويل أي شكوك حول مؤامرة تُعدّ لقتله، مع أنّ ذلك الموعد بمكانه وأسلوب ترتيبه كان يجب أن يجعله يرتاب في الأمر. غير أنّه على العكس من ذلك،

سرعان ما وافق على أن يفعل وفق التوجيهات. وفي ٣٠ تشرين الأوّل ـ أكتوبر وصل أربعة إسرائيليّين إلى ميناء الرباط في المغرب وزعموا أنّهم سيّاح يمضون إجازة صيد في عمق البحر. ثمّ استأجروا يختًا يعمل بمحرّك وانطلقوا نحو جزر كناري. وفي اليوم التالي وصل ماكسويل إلى ميناء "سانتا كروز" في جزيرة "تناريف" ثمّ تناول طعام العشاء وحيدًا في فندق "منسي"، وانضمّ إليه أحدهم في ما بعد فجالسه لوقت قصير. ولا تزال هويّة الرجل وموضوع محادثتهما جزءًا من لغز آخِر أيّام ماكسويل . وبعد ذلك بقليل عاد ماكسويل إلى يخته وأعطى أوامره بالعودة إلى البحر. وخلال الستّ وثلاثين ساعة التالية أبحرت "ليدي غيزلين" بين الجزر وسارت في سرعات مختلفة، على أنّها ظلّت بعيدة عن اليابسة. وكان ماكسويل قد أبلغ ربّان اليخت أنّه لا يزال يدرس أين سيتّجه في ما بعد. ويقول أفراد الطاقم أنّهم لا يذكرون أنّ ماكسويل أظهر مثل هذا التردّد من قبل.

تحت عنوان "كيف ولماذا قُتل ماكسويل"، نشرت مجلّة "بيزنس أيج" البريطانيّة ما أسمته "سبقًا صحافيًّا عالميًّا" زعمت فيه أنّ قاتلَين عبرا في زورق مطّاطيّ خلال الليل من يخت يعمل بمحرّك كان يتعقّب "ليدي غيزلين". ولدى صعودهما إلى اليخت وجدا ماكسويل على الجزء الخلفيّ من متنه فغلباه قبل أن يتمكّن من طلب النجدة ثمّ "حقن أحد القاتلين فقّاعة هواء في رقبة ماكسويل عبر الوريد الوداجي، وبعد لحظات قليلة مات ماكسويل . وخلصت المجلّة إلى أنّ الجثّة أُلقيت من عن السفينة وعاد القاتلان إلى يختهما. ولم يُعثر على ماكسويل قبل مرور ستّ عشرة ساعة، وهو وقت كاف لاختفاء أثر غرز الحقنة نتيجة الإنغماس في الماء والتهام السمك للجلد.

الأمر المؤكّد هو أنّه في خلال ليل ٤ ـ ٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩١، كانت متاعب الموساد مع ماكسويل تستريح في أمواج البحر الأدرياتيكي الباردة. ولم تتمكّن

التحقيقات التي أجرتها الشرطة وتشريح الجثّة على أيدي أطبّاء إسبان من الإجابة عن جميع الأسئلة. لماذا لم يبق إلاّ اثنان من أصل اثني عشر فردًا من أفراد الطاقم صاحيَين بينما جرت العادة أن يشترك خمسة أفراد في نوبة الحراسة؟ لمن أرسل ماكسويل عددًا من الرسائل عبر الفاكس خلال تلك الساعات؟ ماذا حدث لنسخ الرسائل المرسلة؟ لماذا استغرق أفراد الطاقم كلّ ذلك الوقت حتّى توصّلوا إلى أنّ ماكسويل ليس على متن اليخت؟ ولماذا تأخّروا في إخطار الجهات المعنيّة بذلك سبعين دقيقة أخرى؟ وحتّى اليوم لم تتوافر إجابات شافية عن تلك الأسئلة. وعندما كُلّف ثلاثة أخصّائيّين إسبان بتشريح الجثّة، أمروا بإرسال الأعضاء والأنسجة الحيويّة إلى مدريد لإخضاعها لمزيد من الفحوص... فتدخّلت عائلة ماكسويل قبل أن يتمّ ذلك وأعطت تعليماتها بتحنيط الجثّة وشحنها جوًّا إلى إسرائيل حيث تُدفن! وعلى غير عادتها، لم تعترض السلطات الإسبانيّة على ذلك...

ويبقى السؤال مطروحًا: ما الذي أقنع العائلة بأن تتّخذ مثل هذا القرار المفاجئ؟

وينهي غوردون طوماس في كتابه "إنحطاط الموساد" روايته لمأساة روبرت ماكسويل بالقول إنّه في يوم ١٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩١، أقيمت جنازة ماكسويل عند جبل الزيتون في القدس، وهو مدفن تحيطه إسرائيل بهالة من الإجلال. وقد أسبغت على الجنازة كلّ مظاهر الفخامة التي تتّصف بها المناسبات الرسميّة، فحضرها زعماء الحكومة وقادة المعارضة. وكان بين الحضور ما لا يقلّ عن ستّة من رؤساء أجهزة الاستخبارات الحاليّين والسابقين، وقد أصغوا إلى رئيس الوزراء شامير وهو يقول في تأبين الراحل: "لقد فعل لإسرائيل أكثر ممّا يُمكن اليوم البوح به".

---

١ ـ راجع: طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٩٥ ـ ١٩٩، ٢١٥ ـ ٢١٦، ٢٢٧ ـ ٢٢٦.

فَضيحَةُ الجَوَازَات البريطانيَّة المزوَّرة

يعتبر "غوردون طوماس"، صاحب كتاب "إنحطاط الموساد"، أنّ نهاية ناحوم عدموني بدأت كمدير عام للموساد بعد ظهر يوم من أيّام تمّوز ــ يوليو ١٩٨٦، نتيجة لحادث وقع في شارع من شوارع بون شُقّ أثناء فورة التعمير التي أعقبت الحرب العالميّة الثانية في ألمانيا.

بعد أربعين سنة أصبح هذا الشارع جادة متكاملة تقوم عليها حدائق أماميّة جميلة على رغم صغرها، ومرابع للخادمات في الخلف. كانت أنظمة الأمنة مخفيّة وراء بوّابات من الحديد المجدول، والنوافذ الدنيا معومدة لتثبيت الزجاج الملوّن.

لم يرَ أحد مَن تَرك كيس البلاستيك في كشك الهاتف القائم عند طرف الشارع. رأت الكيس سيّارة دوريّة للشرطة ووقفت لتحقّق في الأمر. كان في الكيس ثمانية جوازات سفر بريطانيّة جديدة لا تحمل أسماء.

كان ردّ الفعل الفوريّ للفرع المحلّي لمكتب التحقيقات الجنائيّة الفيدرالي BKA هو أنّ جوازات السفر تعود إلى إحدى المجموعات الإرهابيّة التي جاءت بالإرهاب إلى شوارع أوروبّا متسبّبة بسلسلة من عمليّات التفجير والخطف الوحشيّة العنيفة.

كانت تلك المجموعات التي تمثّل قضايا وأقليّات من مختلف أنحاء العالم قد عقدت العزم على أن تنتزع لنفسها دورًا في وضع أسس السياسة الدوليّة. وقد وجدت سندًا لها في المناورات السياسيّة الطالبيّة الراديكاليّة التي اكتسحت بريطانيا وباقي أجزاء

أوروبّا. فمنذ سنة ١٩٦٨ عندما خطفت الفتاة الفلسطينيّة الثوريّة "ليلى خالد" طائرة ركّاب إلى لندن وأُطلق سراحها على الفور لخشية الحكومة البريطانيّة من ازدياد الهجمات، والطلبة الوطنيّون يهتفون بشعارات منظّمة التحرير الفلسطينيّة التحريضيّة. كان أولئك الشبّان الراديكاليّون الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى ينظرون نظرة رومنطيقيّة إلى منظّمة التحرير الفلسطينيّة معتبرين أعضاءها "مقاتلين من أجل الحريّة"، استعاضوا عن الاعتصامات باحتجاز الرهائن.

إفترض مكتب التحقيقات الجنائيّة الألمانيّ أنّ من ترك جوازات السفر طالب يقوم بمهمّة ساع لإحدى المجموعات النضاليّة المسلّحة. وقائمة أسماء تلك المجموعات طويلة تضمّ إلى "الجيش الجمهوري الإيرلندي" جناح "الجيش الأحمر" الألماني، وفصائل أجنبيّة كالجبهة الوطنيّة الإسلاميّة السودانيّة، وجيش التحرير الوطنيّ الكولومبيّ، وحركة التحرير الأنغوليّة، و"نمور التاميل" السرلانكيّين... كانت لتلك الفصائل وغيرها خلايا وكوادر في أنحاء الجمهوريّة الاتّحاديّة. وربّما كانت إحداها تعتزم استخدام جوازات السفر تلك لمهاجمة أحدى القواعد العسكريّة البريطانيّة في ألمانيا أو للسفر إلى بريطانيا لشنّ هجوم هناك.

ولئن كانت بريطانيا كبرى الدول الأوروبيّة الغربيّة الإمبرياليّة السابقة، فهي لم تتعرّض لأعمال الإرهاب المستمرّة خلا على أيدي رجال "الجيش الجمهوري الإيرلندي". اكنّ أجهزة استخباراتها حذّرتها من أنّ مجموعات أجنبيّة أخرى مُنحت الإذن بالعمل ضدّ بلدانها انطلاقًا من لندن، لن تعتم أن تجرّ بريطانيا إلى مكائدها. وكان أوّل الغيث عندما استولت جماعة معارضة للنظام الإيراني على السفارة الإيرانيّة في لندن عام ١٩٨٠. وعندما فشلت المفاوضات أرسلت حكومة مارغريت تاتشر رجال جهاز SIS فقتلوا محتجزي الرهائن. وقد أدّى هذا العمل الذي أحسن استغلاله

إعلاميًا إلى التراجع المفاجئ في حجم المؤامرات الشرق أوسطيّة بين المنظّمات الأجنبيّة المختلفة، خصوصًا منظّمة التحرير الفلسطينيّة التي يتزعّمها ياسر عرفات، و"جماعة أبو نضال" المنشقّة عن المنظّمة. وكانت للموساد حصتّه من قتل المناضلين العرب في شوارع العاصمة الفرنسيّة.

إعتقد مكتب التحقيقات الجنائيّة أنّ جوازات السفر التي عُثر عليها في كشك الهاتف في بون هي مقدّمة لمزيد من أعمال القتل. فاتّصل بجهاز الاستخبارات الفدرالي BND الذي أخطر ضابط الاتّصال في جهاز MI 6 البريطاني التابع للمقرّ الرئيسي لـ BND في "بولاخ" بجنوب ألمانيا. وفي لندن تبيّن لجهاز MI 6 أنّ تزوير جوازات السفر كان عملاً دقيقًا، فاستُبعد "الجيش الجمهوري الإيرلندي" ومعظم المنظّمات الإرهابيّة الأخرى، فهي لا تملك القدرة على إنتاج مثل هذه الوثائق العاليّة الجودة. وتحوّل الشكّ إلى جهاز KGB السوفياتي الذي يشتهر بمزوّريه المتفوّقين عالميًا. لكن المعروف أنّ لدى الروس أكوامًا من جوازات السفر، وليس من أساليبهم استخدام كشك هاتف كنقطة استلام. كما استبعد جهاز الأمن في جنوب أفريقيا "بوس" الذي أوقف أو كاد جميع عمليّاته في أوروبّا، وما كان ليحتاج إلى استخدام جوازات السفر البريطانيّة في البلدان الأفريقيّة البائسة حيث بات يركّز نشاطه. وبقي لدى جهاز MI 6 جهاز الاستخبارات الوحيد الباقي الذي يمكنه استغلال جوازات السفر: الموساد.

استدعى جهاز MI 6 "آري ريغيف" الملحق في السفارة الاسرائيليّة في لندن، وهو أيضًا ضابط الاستخبارات المقيم، للاجتماع بضابط كبير لمناقشة القضيّة. فقال ريغيف إنّ لا علم له بجوازات السفر، لكنّه قال إنّه سيثير الموضوع مع تلّ أبيب. وبسرعة جاء ردّ ناحوم عدموني بأن لا علاقة للموساد بجوازات السفر تلك. وقال إنّ ألمانيا الشرقيّة قد تكون الضالّة المنشودة. وقد اكتشف الموساد أخيرًا أنّ جهاز الاستخبارات

في ألمانيا الشرقيّة "ستاسي" لا يتورّع عن بيع جوازات السفر المزوّرة لليهود الراغبين في السفر إلى إسرائيل مقابل العملة الصعبة. وكان عدموني يعلم أنّ مزوّري الموساد هم الذين صنعوا جوازات السفر، وأنّها كانت برسم ضبّاط الموساد السريّين في أوروبّا لتمكينهم من سرعة الدخول والخروج من بريطانيا.

وعلى رغم "تفاهم" كان "رافي إيتان"، الاستخباراتي الإسرائيلي الرفيع المستوى، قد أسهم في إنجازه مع جهاز MI 5، تعهّد الموساد بموجبه بإطلاع جهاز الأمن الداخلي البريطاني على جميع عمليّاته داخل بريطانيا، فقد كان الإسرائيليّون يحضّرون سرًّا أحد عملائهم في إنكلترا لعمليّة تؤدّي إلى تحقيق انتصارين للموساد، الأوّل قتل قائد وحدة القوّات الخاصّة الفلسطينيّة من "القوّة ١٧"، والثاني تعطيل مسعى ياسر عرفات لإقامة علاقة مع حكومة تاتشر.

وسرعان ما بدأ ناحوم عدموني يتساءل متى سيكتشف جهاز MI 5 البريطانيّ ما وراء جوازات السفر البريطانيّة الثمانية المزوّرة التي عُثر عليها في كشك الهاتف في ألمانيا في تمّوز ـ يوليو ١٩٨٦.

كان شيمون بيريز الذي لا يرضى عن الموساد يقترب من نهاية حكومته الائتلافيّة، وكان يطرح أسئلة موجّهة ضدّ سلوك الموساد. وكان يقول إنّ الكارثة المفاجئة ستدمّر علاقة إسرائيل بحكومة تاتشر، وإنّ من الأفضل قول الحقيقة كاملة عن الموضوع وفقًا لرأي بيريز المعروف: "كلّما استعجلنا القول استعجلنا رأب الصدع".

عارض ناحوم عدموني الفكرة، لأنّها ستؤدّي برأيه إلى بدء جهاز MI 5 و"الشعبة الخاصّة" التحقيق في كلّ نشاطات الموساد في بريطانيا. وسيؤدّي ذلك إلى الكشف عن نموذج من الأعمال الخرقاء الدالّة على عدم كفاءة الموساد.

كانت جوازات السفر تلك مرسلة إلى السفارة الاسرائيليّة في بون، وقد عُهد بمهمّة نقلها من تلّ أبيب إلى ساع حديث العهد بمثل هذه الأعمال. وكانت تلك المرّة الأولى التي يزور فيها بون. وقد تجوّل الساعي في سيّارته في شوارع المدينة لبعض الوقت، ولم يشأ أن يستدلّ على عنوان السفارة من المارّة حتّى لا يلفت الانتباه. وأخيرًا لجأ إلى كشك الهاتف للاتّصال بالسفارة. فوبّخه أحد المسؤولين على بطئه. وربّما لذعره أو لإهماله، ترك الساعي الكيس في كشك الهاتف، ولمّا وصل إلى السفارة تنبّه إلى خطئه، على أنّه قد استبدّ به الذعر فلم يستطع أن يتذكّر بالضبط موقع الشارع الذي أجرى منه المكالمة. فرافقه رئيس أمن السفارة المتّقد غضبًا حتّى عثروا أخيرًا على كشك الهاتف، ولكنّ الكيس كان قد اختفى. وجرى نقل الساعي تأديبًا إلى صحراء النقب، لكنّ مشكلة جوازات السفر ظلّت تقضّ مضجع عدموني. وكانت وزارة الخارجيّة البريطانيّة قد كلّفت السفير البريطانيّ في تلّ أبيب إثارة المسألة مع الحكومة الإسرائيليّة.

يوم الجمعة في ١٣ آذار ١٩٨٧، انتشرت شائعة في مقرّ الموساد على جادة الملك شاول بأنّ ضيفًا مهمًّا سيزور عدموني. وقُبيل الظهر كان ضابط الاتّصال في جهاز MI 6 البريطانيّ يسير برفقة دليل إلى مكتب المدير العامّ في الطبقة التاسعة. كان اجتماعهما قصيرًا. قال الزائر لعدموني إنّ جهاز MI 6 متأكّد من أنّ جوازات السفر المزوّرة التي عثر عليها في ألمانيا من صنع الموساد.

وفي لندن، استدعت وزارة الخارجيّة السفير الإسرائيليّ ووجّهت إليه احتجاجًا قويًّا أرفقته بطلب بألاّ يتكرّر مثل هذا السلوك مرّة أخرى[1].

---

١ - طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٠٥ - ٣٠٧، ٣٢٥ - ٣٢٧.

لاأخلاقيّة الموساد في إحدى أقذر عمليّاته

في أواسط ثمانينات القرن العشرين، وكان ناحوم عدموني رئيسًا للموساد، لم تعد لندن تعتبر إسم ياسر عرفات مرادفًا للإرهاب. فقد بدأت المرأة الحديديّة رئيسة وزراء بريطانيا السيّدة مارغريت تاتشر تقتنع شيئًا فشيئًا بأنّ بإمكانها أن تحقّق سلامًا عادلاً ودائمًا في الشرق الأوسط يعترف للفلسطينيّين بحقوقهم المشروعة ويضمن لإسرائيل أمنها. وكان الزعماء اليهود أكثر تشكّكًا، وحجّتهم أنّ الإرهاب هو ما أوصل منظّمة التحرير الفلسطينيّة إلى الوضع الذي هي عليه الآن، وأنّها ستستمرّ في التهديد بمزيد من أعمال العنف ما لم تُجَب إلى مطالبها. غير أنّ لندن لم تهتمّ باعتراضات تلّ أبيب، فظلّ الموساد يعتبر بريطانيا بلدًا ذا قابليّة لدعم القضيّة الفلسطينيّة. كذلك بدأ القلق ينتاب الموساد من نجاح منظّمة التحرير الفلسطينيّة في بناء علاقة وديّة مع وكالة الاستخبارات الأميركيّة CIA.

وكانت منظّمة التحرير الفلسطينيّة تبذل الجهود للتقرّب من حكومة مارغريت تاتشر، في حين استمرّت "القوّة ١٧" بقيادة قائدها الجديد في قتل الصهاينة. وقرّر رئيس جهاز الموساد الإسرائيلي ناحوم عدموني أن ينجح بما أعجز أسلافه من قبل: قطع علاقة منظّمة التحرير الفلسطينيّة ببريطانيا، وفي الوقت نفسه قتل قائد "القوّة ١٧". وتبيّن لاحقًا أنّ نجاح العمليّة متوقّف على شابّ فلسطينيّ كان في صغره يصلّي في جامع قريته ليمنحه الله القوّة لقتل أكبر عدد من الصهاينة.

كانت إمكانيّة "إسماعيل صوّان" قد استرعت الانتباه قبل عشر سنوات. ففي عام ١٩٧٧ عندما كان لا يزال مراهقًا يقيم في قريته في الضفّة الغربيّة، استجوبه ضابط في استخبارات الجيش في إطار عمليّة روتينيّة لاستكمال المعلومات المتوافرة لدى الجيش عن المنطقة.

كانت عائلة صوّان قد استقرّت في تلك القرية في ثلاثينات القرن العشرين، في الوقت الذي ألهبت الثورة على الانتداب البريطانيّ وعلى اليهود حماسة جميع العرب. وكان العنف منتشرًا في كلّ مكان، وسفك الدماء يولّد مزيدًا من سفك الدماء. انضمّ والد إسماعيل إلى الحزب العربيّ الفلسطينيّ لتنظيم أعمال الاحتجاج واستنهاض الشعور الوطنيّ في الجوار. وقد وجّه غضبه في البداية ضدّ البريطانيّين، ولكن عندما انسحبوا من فلسطين عام ١٩٤٨، أصبح العدوّ الرئيسيّ الدولة اليهوديّة الوليدة. وكانت أولى الكلمات التي تفوّه بها إسماعيل تلك التي تتغنّى بكره الصهاينة اليهود. وفي خلال طفولته، كانت الكلمة التي طالما تردّدت على مسمعه هي "الظلم". كان يلوّنها في المدرسة ويسمعها حول طاولة المائدة العائليّة: الظلم الرهيب لشعبه وعائلته وله.

بعد وقت قصير من عيد ميلاده الخامس عشر، شهد إسماعيل هجومًا عنيفًا على باص امتلأ بحجّاج يهود كانوا في طريقهم إلى القدس. كان بين القتلى نساء وأطفال. تلك الليلة سأل إسماعيل نفسه سؤالاً سيغيّر تفكيره إلى الأبد: ماذا لو كان يحقّ لليهود أن يدافعوا عمّا لديهم؟ ومن هذا السؤال انبثقت أمور أخرى: إغترابه المستمرّ عن العنف الذي آمن به زملاؤه، وإيمانه بأنّه بالإمكان أن يعيش اليهود والعرب معًا، وأنّهم يجب أن يعيشوا معًا. وتكوّنت لديه قناعة بأن يفعل كلّ ما أمكنه لتحقيق هذا الغرض.

بعد سنتين، وكان لم يتمّ السابعة عشرة من عمره، جلس إسماعيل وأبلغ ضابط استخبارات الجيش الإسرائيليّ بما كان لا يزال يحسّ به. أصغى الضابط إليه باهتمام

ثمّ راح يستجوبه استجوابًا دقيقًا. سأله كيف أدار ظهره لكلّ معتقدات شعبه والتي كانت ناقوس خطر لا يصدر إلاّ نغمة واحدة: العرب مظلومون وعليهم أن يقاتلوا حتّى الموت دفاعًا عمّا يعتبرونه حقّهم. كانت أسئلة الضابط كثيرة وأجوبة إسماعيل طويلة. وفي النتيجة، لاحظ الضابط أنّ إسماعيل يختلف عن غيره من الشبّان العرب الذين يعيشون في ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ، فلا يعترض على إجراءات الأمن المشدّدة التي يفرضها الجيش. وعلى غير العادة، بدا الشابّ الضئيل البنية ذو الابتسامة الجذّابة متفهّمًا أغراض الإسرائيليّين. وكلّ ما كان يقلقه حقًّا كان أنّ أعمال القمع التي يقوم بها الجيش الإسرائيليّ تمنعه من الذهاب إلى المدرسة في القدس الشرقيّة ودراسة موضوعه المفضّل: العلوم.

مرّ ملفّ صوّان عبر أجهزة استخبارات الجيش، وإذ جرى التأشير بأنّه يستحقّ متابعة التحقيق معه، أحيل الملفّ أخيرًا إلى مكتب ضابط الموساد الذي أرسله إلى قسم التجنيد. ودُعي اسماعيل صوّان للسفر إلى تلّ أبيب بحجّة بحث خطط تعليمه، بعدما كان تقدّم بطلب للذهاب إلى القدس للدرس. وجرى استجواب إسماعيل طوال بعد الظهر، فاختبر مستجوبه معرفته بالعلوم وتلقّى أجوبة مرضية. ثمّ جرى بحث تفصيليّ في تاريخ عائلة صوّان، وقورنت أجوبة إسماعيل بما كان قد أبلغه إلى ضابط استخبارات الجيش. وأخيرًا أُطلع إسماعيل على العرض الذي بموجبه يقوم الموساد بدفع نفقات تعليمه شريطة أن ينجح في برنامج التدريب. ويجب أن يفهم أنّه إذا باح بكلمة واحدة عن الأمر لأيّ كان أصبحت حياته في خطر.

كان هذا إنذارًا نموذجيًا يوجّه لكلّ العرب الذين يجنّدهم الموساد. أمّا إسماعيل صوّان المثاليّ فبدت له فرصة كان ينتظرها وهي التقريب بين العرب واليهود.

خاض صوّان جميع عمليّات المقابلة في بيوت سريّة قبل أن يرسلوه إلى مدرسة تدريب تقوم في ضواحي تلّ أبيب. وأظهر تفوّقًا في عدد من الموضوعات وميلاً طبيعيًا للمهارات المعلوماتيّة والتخلّص من المتعقّبين. ولم يُفاجأ من هم حوله بارتفاع معدّل علاماته في موضوعات تتعلّق بالإسلام. أمّا الورقة التي أعدّها عن دور منظّمة التحرير الفلسطينيّة في صراع الشرق الأوسط فكانت من الأهميّة بمكان، فقد عُرضت على رئيس الموساد يومئذ إسحق حوفي.

عند إنجاز مدّة التدريب أصبح صوّان ساعيًا بين المقرّ الرئيسيّ وسفارات إسرائيل التي يعمل فيها ضبّاط الموساد تحت غطاء دبلوماسي. وبدأ يقوم بزيارات مكّوكيّة في منطقة المتوسّط، فيزور أثينا ومدريد وروما بانتظام حاملاً وثائق في حقائب دبلوماسيّة. وبين الحين والآخر كان يسافر إلى بون وباريس ولندن.

هذه الفرصة للسفر حول العالم وتقاضي الأجر عن ذلك، وكان أجره خمسمائة دولار شهريًّا، ولّدا شعورًا مثيرًا في نفس الشابّ الذي لم يتجاوز العشرين من عمره. وما لم ينتبه إليه صوّان هو أنّ الوثائق التي عُهد بها إليه كانت من دون قيمة. كان ذلك جزءًا من اختبار جديد، الغاية منه مراقبة ما إذا كان سيحاول إطلاع أيّ مصدر اتّصال عربيّ في أيّ من المدن التي يزورها على مضمونها. وفي خلال كلّ رحلة كان صوّان موضع مراقبة شديدة من ضبّاط موساد تأهّلوا حديثًا وكانوا يمارسون مهاراتهم في المراقبة. ولم يكن الشخص الذي يسلّمه إسماعيل الوثائق في مكان لقاء متّفق عليه، في مقهى أو في بهو فندق، لم يكن دبلوماسيًّا إسرائيليًّا كما كان يتوهّم، بل ضابط موساد.

بعد أسابيع من تمضية إجازته في الخارج وهو يتمشّى في جوار الـ"بانتيوم" في روما، ويزور كنيسة "سيستين"، ويتعرّف إلى شارع "أكسفورد" في لندن، تلقّى إسماعيل أمرًا بالذهاب إلى بيروت والانضمام إلى منظّمة التحرير الفلسطينيّة.

كان الانضمام إلى المنظّمة سهلا. فقد دخل إلى مكتب تجنيد تابع لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة في غرب بيروت، واستقبله مسؤول تجنيد ذكيّ وواسع الاطّلاع في شؤون السياسة. أمضى المسؤول بعض الوقت في التعرّف على موقف إسماعيل من الكفاح المسلّح ومعرفة ما إذا كان صوّان مستعدًّا للتخلّي عن جميع ارتباطاته السابقة، بما فيها العائلة والأصدقاء، والاستعاضة عنهم بمنظّمة التحرير الفلسطينيّة. وقيل له إنّه إذا قُبل فستشهد حياته انقلابًا عظيمًا، إذ ستكون المنظّمة الدرع الواقي الوحيد في مواجهة عالم قاس. وفي المقابل سوف تطلب منه منظّمة التحرير الفلسطينيّة أن يمنحها ولاءه التام.

كان رئيس اسماعيل في الموساد قد أعدّه لإعطاء الإجابات الصحيحة، وإذ اجتاز الامتحان أرسلوه إلى معسكر تدريب في ليبيا، حيث جرت عمليّة التثقيف العقائديّ. هناك علّموه بطرق مختلفة متعدّدة أنّ أسرائيل تعمل على تدمير منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وأنّ عليهم هم العمل على تدميرها. وحاضر مدرّبوه بضرورة اعتماد العدوانيّة الصارخة تجاه كلّ ما ومن هو خارج منظّمة التحرير الفلسطينيّة. وتذكّر إسماعيل الدروس التي تلقّاها في مدرسة التدريب التابعة للموساد عن تمثيل الأدوار. هناك كان صوّان قد أمضى ساعات عدّة وهو يتشرّب من مدرّبيه الإسرائيليّين فهمَ القوى المحرّكة "للجماعات الإرهابيّة" وما يمكن أن يصدر عنها من سلوك وفنون. وفي ليبيا استمع إلى خطباء يقولون إنّ القتل ليس سوى وسيلة للتحرير، وإنّ السيّارة المفخّخة تمثّل خطوة جديدة نحو الحريّة، وإنّ الخطف سبيل لإقامة العدل. واستمرّ إسماعيل في إظهار المهارات التي تعلّمها على الموساد. وقد قبل كلّ ما تلقّاه من تدريب على أيدي منظّمة التحرير الفلسطينيّة لكنّ إيمانه الأساسيّ لم يتأثّر. كما أظهر مثابرة وحنكة وصلابة جسديّة جعلتهم يميّزونه عن الجنود العاديّين. وعندما غادر معسكر التدريب كانوا قد عيّنوا له مكانًا في الدوائر العليا لعمليّات منظّمة التحرير

الفلسطينيّة. وخطوة بعد خطوة ارتقى في معارج القيادة. فقد التقى بقادة المنظّمة بمن فيهم ياسر عرفات، وسافر إلى معسكرات تدريب منظّمة التحرير الفلسطينيّة في مختلف أرجاء الشرق الأوسط. وعنما عاد إلى بيروت تعلّم العيش في ظلّ الغارات الجويّة الإسرائيليّة متجنّبًا الاختباء تحت الأرض خوفًا من قصف المبنى وانهياره عليه. ولكنّه لم يعدم وسيلة للحضور إلى مواعيد الاجتماع برئيسه في الموساد الذي كان يتسلّل بانتظام إلى لبنان لتسلّم ما يتجمّع لدى صوّان من أخبار.

تمكّن إسماعيل صوّان من كتم انتمائه إلى الموساد بشكل نبيه. فعندما قُتل حسن سلامة قاد صوّان تظاهرة المنددين بإسرائيل. وكلّما قتل قنّاص فلسطينيّ جنديًّا إسرائيليًّا كان بين المبتهجين الصاخبين. كان في كلّ ما يقوله ويفعله مثال المناضل الملتزم. وفي عام ١٩٨٤ بعد إخراج عرفات من لبنان وإعادة منظّمة التحرير الفلسطينيّة تنظيم صفوفها في تونس، أُرسل صوّان إلى باريس ليتعلّم اللغة الفرنسيّة. كان ناحوم عدموني قد حلّ مكان إسحق حوفي على رأس الموساد. وقد رأى عدموني في انتقال صوّان إلى باريس الفرصة الذهبيّة لأن يكون لإسرائيل عميل قريب من نشاطات منظّمة التحرير الفلسطينيّة المتبرعمة في أوروبّا.

كانت أماكن انتشار الجاليات العربيّة في الدائرتين الثامنة عشرة والعشرين في باريس قد تحوّلت في ذلك الوقت إلى ملاذ للمنظّمات المسلّحة. وكانت الشوارع الضيّقة حيث يعيش الناس على حافّة القانون تقدّم المأوى بسرعة للمسلّحين وخبراء المتفجّرات. من هذين الحيّين انطلقت الهجمات على المطاعم والمحال والمعابد اليهوديّة. ومن باريس صدر البيان المشترك الأوّل عن مختلف المنظّمات السريّة المسلّحة معلنًا التزام تقديم الدعم لمهاجمة الأهداف الإسرائيليّة في أنحاء أوروبّا. وقد واجه الموساد هذا العداء بقسوة اشتهر بها. فأُرسلت فرق الاغتيال إلى الجيوب العربيّة

وقتلت المشتبه بهم في أسرّتهم. ذُبح أحدهم من الوريد إلى الوريد وكسر عنق آخر، لكنّ هذه الانتصارات كانت ضئيلة، وكان الموساد يعرف أنّ للمناضلين الغلبة لأسباب أهمّها أنّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة تُحسن توجيههم. كانت فكرة أن يكون لعدموني عميل داخل المقرّ العملاني لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة في باريس أمرًا مثيرًا للغاية. وفي غضون أيّام تلت وصوله إلى العاصمة الفرنسيّة أجرى صوّان اتّصالاً بالمسؤول عنه في الموساد الذي يعمل من السفارة الإسرائيليّة في "٣ ـ شارع رابليه". لم يكن يعرف سوى أنّ اسمه "آدم". واتّفقا على أماكن لقاء في المقاهي ومحطّات المترو. واتُّفق أن يحمل صوّان صحيفة من صحف اليوم المعيّن وقد وضع بداخلها ما لديه من معلومات، ويحمل آدم نسخة مماثلة عن الصحيفة وقد خبّأ بداخلها التعليمات الموجّهة لصوّان وراتبه الشهريّ الذي رُفع إلى ألف دولار. وكانا يستخدمان حيلة أتقناها أثناء التدريب لدى الموساد وفيها يصطدم الواحد بالآخر، ووسط الاعتذارات يجري تبادل الصحيفتين ويمضي كلّ في سبيله.

كان أشهر المناضلين في أوروبّا يومها "إيليتش راميريز" الذي أكسبته نشاطاته لقب "كارلوس الثعلب"، وكان مضرب المثل هذا في باريس في خدمة إحدى المنظّمات الفلسطينيّة. وقد جعلته نشاطاته محطّ إعجاب الصحافة السريّة الماركسيّة التي ازدهرت في أوروبّا. وأثارت إعجاب النساء عاداته الخليعة خصوصًا عندما كان يدخل ويخرج سالمًا من أفخاخ الموساد المنصوبة لقتله. فيومًا يكون على شاطئ الريفييرا يتشمّس برفقة إحدى الفتيات، ثمّ لا يلبث أن يظهر في لندن مع مجموعة من المناضلين العرب يعينهم على وضع خطط معادية لمجموعات أخرى، ولإسرائيل طبعًا.

كانوا يمارسون نشاطاتهم بعيدًا عن تدخّل الشرطة وأجهزة الاستخبارات البريطانيّة بناء على تفاهم يقضي بألاّ يتعرّضوا بالأذى لأيّ مواطن بريطانيّ. وعندما يصبح

الموساد على استعداد لقتل كارلوس كان يعود إلى فرنسا أو ينتقل إلى سواها من الدول الأوروبيّة أو يسافر إلى إحدى الدول العربيّة.

كانت إحدى المهامّ التي أسندت إلى اسماعيل صوّان خلال إقامته في باريس تعقّب حركة كارلوس وقتًا يكفي ليتولّى الموساد قتله. كانت مساهمة صوّان عمومًا لحرب الموساد في فرنسا كبيرة وساعدت ضبّاط الموساد وفرق الاغتيال على تحقيق نجاحات بارزة. من ذلك إحراق وتفجير مصنع للتزوير ينتج الوثائق المزوّرة لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة، وتدمير مخازن أسلحة، واعتراض سعاة يعملون لخدمة منظّمة التحرير الفلسطينيّة واغتيالهم، وتفجير متفجّرات مهرّبة من أوروبّا الشرقيّة. وفي طرق شتّى، واجه الموساد النار بالنار بالاعتماد على ما قدّمه صوّان من معلومات سريّة.

في كانون الثاني - يناير ١٩٨٤ أخطر آدم عميله صوّان بأنّه سيرسل إلى إنكلترا حيث سيقدّم نفسه كطالب ناضج يدرس للحصول على درجة جامعيّة في العلوم. كانت مهمّته الجديدة اختراق منظّمة التحرير الفلسطينيّة في لندن واكتشاف ما أمكن عن وحدتها الناشطة "القوّة ١٧" التي كان يرأسها عبد الرشيد مصطفى ويستخدم بريطانيا قاعدة له. كان مصطفى على قائمة الاغتيال لدى الموساد.

أبلغ اسماعيل صوّان مدير مكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة في باريس أنّه قد أنهى دراسته الفرنسيّة، وأنّه يرغب في السفر إلى إنكلترا لمتابعة سعيه للحصول على درجة جامعيّة في الهندسة. كان متطوّع فرنسيّ للموساد قد زوّر له دبلومًا لتأييد زعمه أنّه أنهى دراساته إذا طلب منه الدليل، لكنّ أحدًا لم يطلب منه ذلك. وأشار إسماعيل في حديثه مع مدير مكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة إلى أنّ حصوله على درجة علميّة من إنكلترا سيجعله ذا فائدة أكبر في مجال صنع المتفجّرات. وكانت فكرة زيادة عدد أعضاء فريق صانعي المتفجّرات في منظّمة التحرير الفلسطينيّة محلّ ترحيب دائم

خصوصًا في عام ١٩٨٤. كانت قيادة المنظّمة بحاجة إلى أن تُظهر لفلسطينيّي الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة أنّهم في البال. فعشرات ألوف الفلسطينيّين يعانون من مصاعب متزايدة في ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ وهم غير راضين عن قعود ياسر عرفات عن مساعدتهم بطريقة عمليّة، فالكلام شيء والفعل شيء آخر.

راقت لمدير منظّمة التحرير الفلسطينيّة في باريس فكرة استخدام صوّان لدرجته العلميّة المؤمّلة في صنع المتفجّرات، وكانت وراء قراره تقديم ثمن تذكرة سفر إسماعيل إلى إنكلترا، وكذلك نفقات الإقامة هناك لمدّة أسبوع. كذلك أعطى آدم صوّان خمسمائة جنيه وقال له إنّ عليه أن يحصل على عمل حتّى يتمكّن من دفع نفقات دراسته في بريطانيا حتّى لا يثير الشبهات. وقد وصل إسماعيل إلى لندن في يوم عاصف من أيّام شباط ـ فبراير ١٩٨٤ وهو يحمل جواز سفر أردنيًّا زوّده به الموساد. وكان ينقل جواز سفر كنديًّا خبّأه في قعر خفيّ في حقيبة ملابسه. وقيل له ألاّ يستخدمه إلاّ إذا اضطرّ للرحيل عن بريطانيا على وجه السرعة. وقد خبّأ إلى جانب جواز السفر المعلومات التي زوّده بها الموساد عن عبد الرشيد مصطفى و"القوّة ١٧" التي بأمرة الأخير.

كانت "القوّة ١٧" قد أنشئت لتكون قوّة الأمن الشخصيّ لياسر عرفات. وقد اختير إسمها من رقم مقسّم هاتف عرفات في مقرّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة القديم في بيروت. وفي إحدى مراحلها أصبحت "القوّة ١٧" جيشًا يزيد عدد أفراده على الألف مقاتل، ومن وحداتها منظّمة "أيلول الأسود" الشهيرة. وقبَيل اضطرار منظّمة التحرير الفلسطينيّة إلى الرحيل عن لبنان والإقامة في تونس قُتل القائد الأوّل للوحدة وهو علي حسن سلامة، في انفجار سيّارة مفخّخة أعدّها رافي إيتان. وفي تونس واجه عرفات حقائق صعبة. فلم يكن الموساد وحده يتعقّبه ليقتله بل ازداد خطر الفصائل الفلسطينيّة

المتطرّفة على حياته... فكان ردّ عرفات إعادة تنظيم "القوّة ١٧" لتصبح وحدة متماسكة لها غرض مزدوج: حمايته كما كانت تفعل، وشنّ هجمات مدروسة على أعدائه، وفي مقدّمهم إسرائيل. وأُسندت مهمّة قيادة القوّة إلى عبد الرشيد مصطفى. وكان رجاله يتدرّبون في تونس على أيدي "القوّات الخاصّة" الصينيّة والروسيّة في حرب العصابات. وكانت لندن تعجّ بالأعضاء السابقين في قوّة الأمن الخاصّة "SIS" والجنود السابقين في الجيش النظامي ممّن خدموا في إيرلندا الشماليّة، وكانوا يبحثون عن متنفّس لمهاراتهم بالقتل. كانت الرواتب التي تقدّمها منظّمة التحرير الفلسطينيّة لهؤلاء المدرِّبين مغرية، وكان لدى عدد كبير من المرتزقة مواقف معادية لليهود. وقد وقّع عدد من هؤلاء عقود توظيف وانتقلوا إلى تونس للعمل في معسكرات التدريب الفلسطينيّة. وجيء بمدرّبين آخرين من الفرقة الأجنبيّة الفرنسيّة، وفي إحدى المراحل كان أحدهم الضابط السابق في الـ CIA "فرانك تيربيل الذي كان على علاقة قصيرة في ما بعد مع محمّد علي أقجا، الشاب التركي المتعصّب الذي أطلق النار على البابا يوحنّا بولس الثاني.

إستمرّ مصطفى سنة كاملة في بريطانيا، وغادرها من دون أن يعرف جهاز MI 5 أو "الشعبة الخاصّة" هويّته. وعندما أطلعهم الموساد عليها اكتفوا بإرسال ضابط من MI 5 إلى مكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة في لندن ليذكّر مسؤوليه بأنّ المكتب سيقفل ويُطرد موظّفوه لدى أوّل إلماع إلى تورّطه في أيّ نشاط إرهابيّ ضدّ بريطانيا. لكن بإمكانهم الاستمرار بتوعّد إسرائيل.

في هذه الأثناء، رشحت معلومات عرضيّة مثيرة عن الحرب الدعائيّة عندما تلقّى "بسّام أبو شريف"، وكان حينها الناطق الإعلاميّ الرئيسيّ لعرفات، دعوة للقاء الروائيّ "جفري آرتشر". ويتذكّر مساعد عرفات في ما بعد أنّ آرتشر شرح "كيف ينبغي أن

نطوّر علاقاتنا الإعلاميّة، وننظّم نشاطنا السياسيّ، وكيف نتدبّر إقامة اتّصالات بالسياسيّين البريطانيّين، ونعبّئ الرأي العام... وقد تأثّرت أشدّ التأثّر". وثار غضب الموساد عندما تبيّن أنّ مطفى يتمتّع بحماية السلطات البريطانيّة وأنّ أيّ محاولة للتعرّض له في بريطانيا قد تكون لها عواقب تعود على الموساد. فكانت مهمّة إسماعيل صوّان محاولة الإيقاع بمصطفى خارج بريطانيا، ويُفضّل أن يكون ذلك في الشرق الأوسط حيث يتمكّن قتلة الموساد من القضاء عليه.

كان آدم قد أبلغ صوّان في باريس أنّه سيعمل بتوجيه من مديريه في الموساد المقيمين في السفارة الإسرائيليّة في لندن. كان أوّل هؤلاء "آري ريغيف"، والثاني "جاكوب باراد" الذي يرعى المصالح الاقتصاديّة لإسرائيل. وكان الثالث لا يعمل تحت غطاء دبلوماسيّ ويدعى "بشارة سمارة"، وسيكون الأخير ضابط الاتّصال الرئيسيّ لصوّان، وقد كلّف متطوّعًا للموساد يعمل في وكالة سمسرة عقاريّة في لندن العثور لصوّان على شقّة للإيجار في حيّ "مايدا في" في العاصمة. فبعد أيّام قليلة من وصوله إلى لندن، أجرى صوّان اتّصاله الأوّل بسمارة، ومن ثمّ التقى الرجلان تحت تمثال إله الحب "إيروس" في ساحة "بيكاديلّي سيركس". كان كلّ منهما يحمل نسخة من صحيفة "دايلي ميرور" التي كان روبرت ماكسويل قد اشتراها حديثًا. وباستخدام أسلوب تبادل الصحف الذي أوفى بالغرض منه في باريس، حصل صوّان على راتبه الشهريّ الأوّل وهو ستمائة جنيه استرايني ومعه التوجيهات التي تتعلّق بكيفيّة العثور على عمل في مكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة في لندن.

أراد عدد كبير من العاملين في المكتب المذكور أن يكونوا في قلب النشاط العمليّ كنقل الرسائل إلى خلايا منظّمة التحرير الفلسطينيّة المختلفة في أنحاء أوروبّا والسفر إلى مقرّ المنظّمة في تونس لنقل معلومات بالغة الأهميّة، ومن ثمّ الانتظار ساعات على

أمل إلقاء نظرة على عرفات. لم يلق هؤلاء الثوريّون الشبّان المتقدّمون حماسة بالاً لعمل المكتب الروتيني ككتابة الرسائل وضبط الملفّات وقراءة الصحف والردّ على المكالمات الهاتفيّة. ولذا فعندما تطوّع صوّان للقيام بهذا العمل قُبل عرضه على الفور في مكتب لندن. وفي غضون أيّام تمكّن من التعرّف إلى مصطفى. وسرعان ما تعزّزت الإلفة بينهما بعد لقاءات قصيرة كانا يحتسيان خلالها الشاي بالنعناع محلّى. جمَع بينهما أنّهما عاشا كلاهما خلال القصف الإسرائيلي لبيروت. وقد مشيا في الشوارع نفسها ولاحظا تفاصيلها ومرّا بالمباني المدمّرة نفسها التي تبدو كشعريّة من كثرة الثقوب. وكلّ منهما اضطرّ إلى المبيت في سرير مختلف كلّ ليلة، وانتظر الفجر وصلاة الآذان على مكبّرات الصوت. وكلّ منهما قام بالمناوبة على الحواجز الفلسطينيّة في بيروت مسهّلاً مرور سيّارات الإسعاف ومدقّقًا بهويّات الآخرين. ضحكا وهما يتذكّران بيروت القديمة ويقولان "إذا سمعت انفجار القنبلة تكون ما زلت حيًّا". كانت هناك ذكريات كثيرة كصراع المحتضرين وعويل النساء ونظرات الحقد اليائسة التي يوجّهونها إلى السماء... وقد أمضى صوّان ومصطفى يومًا كاملاً في صلة حميمة مع ماضيهما.

وأخيرًا سأل مصطفى صوّان ماذا يفعل في لندن، فردّ إسماعيل إنّه يعمل على زيادة تحصيله العلميّ لتجويد خدمته لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة. وبدوره سأل إسماعيل مصطفى ما الذي جاء به إلى إنكلترا؟ وأطلق السؤال فيضًا من المعلومات المثيرة. فتحدّث مصطفى عن أعمال "القوّة ١٧" البطوليّة، وكيف أنّ فدائيّيها كانوا على وشك اختطاف طائرة إسرائيليّة مملوءة بالسيّاح الألمان قبل أن يلغي عرفات المهمّة خوفًا من استعداء الرأي العام الألماني. لكنّ مصطفى نقل الحرب ضدّ إسرائيل إلى قبرص وإسبانيا...

كان إسماعيل يعرف أنّ كلّ ما يفاخر به جليسه سيعزّز تصميم الموساد على قتله. واتّفقا على اللقاء في خلال أيّام في "هايد بارك"، البقعة اللندنيّة المعروفة حيث جميع الآراء تجد متنفّسًا لها.

إتّصل صوّان بالرقم الخاص الذي زُوّد به لنقل الأخبار السريعة. ردّ بشّار سمارة فاتّفقا على اللقاء في شارع "ريجنت ستريت". وهناك تمشّى الرجلان بين موظّفي المكاتب الخارجين لتناول طعام الغداء. وروى صوّان ما سمعه من مصطفى. فقال سمارة إنّه سيكون في "هايد بارك" لالتقاط صورة لمصطفى ثمّ سيتعقّبه حيثما اتّجه. غير أنّ مصطفى لم يأت إلى الموعد.

مضت أسابيع قبل أن يلتقي صوّان بمصطفى مرّة أخرى. كان إسماعيل قد قُبل كطالب في معهد في مدينة "باث"، المنتجع الصحّي، وصار يأتي كلّ أسبوع إلى لندن لزيارة مكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة للقيام بالأعمال المكتبيّة. وأثناء إحدى الزيارات رأى مصطفى. ومرّة أخرى تحدّثا معًا وهما يحتسيان الشاي بالنعناع. وأخرج مصطفى من حقيبة يده كتابًا مصوّرًا يروي قصّة "القوّة ١٧"، وقال مفاخرًا إنّ أكثر من مائة ألف نسخة من الكتاب ستوزّع على الفلسطينيّين. وراح إسماعيل يتصفّح الكتاب فرأى صورة لمصطفى التُقطت له في لبنان. وبتأنّق وقّع مصطفى الصورة وقدّم الكتاب إلى إسماعيل. واتّفقا على اللقاء مرّة أخرى، لكنّ مصطفى تخلّف عن المجيء هذه المرّة أضًا.

في هذه الأثناء، سلّم صوّان الكتاب إلى سمارة في مكان اجتماع ثابت لهما هو محطّة القطار في باث. وكان ضابط الموساد يأتي في أحد القطارات ويسلّم إسماعيل راتبه الشهريّ وهو ستمائة جنيه استرليني، ويعود إلى لندن على القطار التالي حاملاً كلّ ما عرفه صوّان من أخبار في مكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة.

استمرّت الأمور على هذا المنوال ما يقارب السنة، تعرّف صوّان في خلالها إلى فتاة إنكليزيّة تدعى "كرمل غرينسميث"، وقد قبلت عرضه للزواج. ولكن حتّى عشيّة يوم الزواج لم يكن رأي صوّان قد قرّ على من يكون الإشبين. في خلال ذلك قام صوّان بزيارة أخرى إلى مكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة حيث التقى بمصطفى مرّة أخرى، وكالمعتاد، لم يهتمّ مصطفى بتبرير غيابه عن الموعد الأخير.

كان مصطفى يحمل رزمة من قصاصات الورق منتزعة من صحيفة "القبس الدولي" التي تصدر في لندن وتتلقّى الدعم من العائلة الحاكمة في الكويت. وتحمل كلّ قصاصة رسمًا كاريكاتوريًّا ساخرًا يهزأ من ياسر عرفات. كان الرسّام الكاريكاتوري يدعى "ناجي العلي"، وهو من أشهر الفنّانين الكاريكاتوريّين في العالم العربي. ومن لندن شنّ ناجي حربًا بمفرده ضدّ رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة ياسر عرفات مصورًا إيّاه كمُرتَشٍ أنانيّ لا يتمتّع بالكفاءة السياسيّة. وقد كرّست الرسوم صحيفة "القبس الدولي" كمنبر للمعارضة الفلسطينيّة.

ألقى مصطفى القصاصات على الطاولة وقال: "إنّ ناجي العلي يستحقّ الموت، وأسياده الكويتيّين يجب تأديبهم". فابتسم صوّان إبتسامة غامضة. كان الموساد يرحّب بكلّ ما من شأنه أن يقوّض موقف عرفات. ثمّ أثار صوّان مع مصطفى قضيّة ذات طابع شخصيّ ملحّ، وهي العثور على إشبين لحفلة زواجه. وعلى الفور اقترح مصطفى نفسه لهذا الدور، فتعانق الرجلان تعبيرًا عن المودّة التي باتت تجمعهما. ولعلّ تلك كانت اللحظة التي تمنّى فيها اسماعيل صوّان لو أنّه يفلت من براثن الموساد.

في خلال المدّة التي أمضاها صوّان في لندن، سافر إلى فلسطين المحتلّة بين الحين والآخر لزيارة عائلته. كان ذلك جزءًا من تستّره. فهو أمام عائلته لا يزال ناشطًا

في صفوف منظّمة التحرير الفلسطينيّة. وقد أتقن لعب الدور حتّى حذّره أخوه الأكبر ابراهيم من احتمال اعتقاله من قبل الإسرائيليّين. وعلى سبيل المزاح اقترح إبراهيم أن يستبق الأمور بعرض العمل لصالح الموساد، فتظاهر إسماعيل بأنّ الفكرة روّعته...

عاد إسماعيل صوّان إلى لندن حيث لم تلبث الأمور أن تطوّرت بصورة غير متوقّعة. فقد حثّت زوجة صوّان زوجها على قبول وظيفة باحث في معهد "همبر سايد" في "هل" كمصدر دخل إضافيّ إلى ما يحصّله من عمله المكتبيّ لدى منظّمة التحرير الفلسطينيّة. كانت الزوجة تجهل علاقة إسماعيل بالموساد وأمر الستمائة جنيه التي كان يدفعها له شهريًّا.

رأى إسماعيل في الانتقال إلى "هل" فرصة للتخلّص من المطالب المتزايدة التي يطلبها رئيسه في الموساد. وككلّ مخبر مأجور للموساد بدأت تساور إسماعيل صوّان مخاوف رهيبة من الأخطار التي يواجهها.

بعد قيامه بدور الإشبين، صار مصطفى أكثر ودًّا فأصبح يتردّد على إسماعيل وزوجته حاملاً لهما الهدايا من الشرق الأوسط. وحول طاولة عشاء روى مصطفى روايات عن قضائه على أحد أعداء منظّمة التحرير الفلسطينيّة. ومرّات عدّة تباهى بقتل عدد كبير من "خونة القضيّة". بينما جلس صوّان مسمّرًا إلى مكانه وهو يتمنّى ألاّ يسمع مصطفى دقّات قلبه المرتعش. وكان الذعر ينتابه أيضًا بعد اجتماعاته مع سمارة الذي كان يطلب منه الدخول إلى كومبيوتر مكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة وتصوير مستندات مهمّة. كما طلب منه أن يتدبّر مرافقة مصطفى في "إجازة" إلى قبرص حيث ينتظره فريق من القتلة. وكان صوّان يردّ بتقديم الأعذار التي منها أنّه لا يُترك وحده في غرفة الكومبيوتر، وأنّ ضغط الدراسة لا يتيح له أخذ إجازات. لكنّه استشعر تهديدًا مبطّنًا متزايدًا في مطالب سمارة. وكان يأمل أن تخفّف إقامته في "هل" من فرص

احتكاكه بمصطفى وسمارة في آن، فيتاح له متابعة حياته الأكاديميّة بعيدًا عن الضغوط. اكنّ الموساد كان قد أعدّ له خططًا مختلفة تمامًا.

لم يكن الموساد قد اتّصل بصوّان منذ نيسان ـ إبريل ١٩٨٧ عندما جاء آخر مرّة بشّار سمارة إلى "هل" للقائه في محطّة القطار، وأمره بالتخفيف من نشاطه حتّى إشعار آخر، ما لم يُجرِ مصطفى اتّصالاً به.

في المساء الباكر من ٢٢ تمّوز ـ يوليو ١٩٨٧، أدار إسماعيل صوّان في شقّته في "هل" جهاز التلفزة للاستماع إلى أخبار محطّة هيئة الإذاعة البريطانيّة BBC. وفجأة أطلّ على الشاشة وجه الرجل الذي قال مصطفى ذات يوم إنّه يستحقّ الموت. لقد أُطلقت النار على رسّام الكاريكاتور ناجي العلي لدى خروجه من مكاتب القبس الدولي في لندن. أطلق مسلّح طلقة واحدة عليه وتوارى عن الأنظار، فاخترقت الرصاصة خدّ رسّام الكاريكاتور واستقرّت في دماغه. وكان ردّ فعل صوّان أنّ المهاجم ليس من الموساد ولا من "القوّة ١٧"، فكلا المنظّمتين يستخدم ذات الأسلوب الاحترافيّ للقتل، وهو إطلاق عدّة رصاصات على الرأس وأعلى الجسم. أمّا هذا الهجوم فبدا عمل هواة. وقالت محطّة التلفزة إنّ الشرطة نظّمت حملة واسعة للعثور على الجاني، وإنّ زملاء رسّام الكاريكاتور يلمّحون إلى أنّ الهجوم وقع بسبب "الأعداء النافذين" الذين لم يسمّوهم.

استعاد صوّان بذاكرته حديثًا كان قد دار بينه وبين مصطفى. فازداد يقينه بأنّ ياسر عرفات هو من أمر بالقتل. وفجأة تساءل عمّا إذا كان هو الشخص الوحيد الذي باح إليه مصطفى بأنّ ناجي العلي يستحقّ الموت. وقرّر صوّان أنّه من الأفضل له ولزوجته أن يسافرا إلى تلّ أبيب، وبينما هما يحزمان حقائبهما، إذا بهما يسمعان قرعًا على الباب. ويتذكّر صوّان: "كان الرجل يحمل حقيبتَي سفر، قال إنّ مصطفى يريد أن

يخبّئهما عنده بسرعة. وعندما قلت إنّني أريد أن أعرف ما بداخلهما ابتسم وطلب ألاّ أقلق. وكلّ ما قاله بعدها: ـ لا تلقِ أسئلة حتّى لا أكذب عليك ـ. وعندما خرج فتحتُ الحقيبتين فوجدتهما مليئتين بالأسلحة والمتفجّرات: كان فيهما ما يكفي من مادّة "سمتكس" لتفجير برج لندن، وبنادق كلاشنيكوف ومسدّسات وصواعق...".

إتّصل إسماعيل برقم الهاتف الخاص بالاتّصال بالموساد في لندن، فوجده مقطوعًا. فاتّصل هاتفيًا بالسفارة الاسرائيليّة، فقيل له إنّ آري ريفيف وجاكوب باراد ليسا موجودين. طلب التحدّث مع بشارة سمارة، فطلب منه المتحدّث على الجهة الأخرى أن ينتظر ثمّ جاء شخص آخر ليتحدّث إليه، وعندما ذكر اسماعيل إسمه قال الصوت "هذا الوقت مناسب لتمضية إجازة في الشمس". كانت هذه الكلمات إشارة مرمّزة ليسافر صوّان إلى تلّ أبيب.

وفي فندق "شيراتون" في تلّ أبيب، اجتمع مع جاكوب باراد وبشّار سمارة وأطلعهما على ما فعل بعدما اكتشف محتويات الحقيبتين، فطلبا منه أن ينتظر ريثما يتّصلان برؤسائهما. وفي وقت لاحق من تلك الليلة عاد سمارة وأمر صوّان بأن يسافر إلى لندن في أوّل رحلة، وعندما يصل إلى هناك سيجد المسألة قد سوّيت.

سافر صوّان إلى لندن في ٤ آب ـ أغسطس ١٩٨٧ وهو لا يدري ما ينتظره. وفي مطار هيثرو اعتقله ضبّاط "الشعبة الخاصّة" البريطانيّة المسلّحون، واتّهموه بقتل ناجي العلي، وعندما ردّ بأنّه عميل للموساد سخر الضبّاط منه.

وهكذا فقد أصبح إسماعيل صوّان شخصًا يمكن التضحية به تمامًا كرسّام الكاريكاتور الذي فارق الحياة بعدما أمضى أسبوعين متشبّثًا بها في المستشفى. لقد جرت التضحية بصوّان في محاولة لإثارة ردّ فعل من حكومة تاتشر ضدّ منظّمة التحرير الفلسطينيّة.

قضى وجود الأسلحة في شقّة صوّان على كلّ جهوده للزعم بأنّه موظّف لدى الموساد. وكان أحد المتطوّعين لخدمة الموساد هو من جاء بالأسلحة إلى شقّته، ولم يكن لمصطفى أيّ علاقة بالموضوع.

كان آري ريغيف قد أحال في لندن إلى جهاز MI 5، ومنه إلى شرطة سكوتلانيارد، ما زعم أنّه "كلّ الأدلّة التي تجمّعت لدى الموساد عن تورّط صوّان بالإرهاب". وقدّم الملفّ تفاصيل مزعومة عن تعقّب الموساد لصوّان أثناء إقامته في الشرق الأوسط وأوروبّا وبريطانيا، لكنّه لم يحصل على براهين كافية حتّى حينه. وحالما جرى اكتشاف الأسلحة المخبّأة قرّر الموساد أن يشي بصوّان باسم "الأمن المشترك".

يقول غوردون طوماس في كتابه "إنحطاط الموساد" في هذا الشأن:

"كان هذا القرار تذكرة مثيرة للاشمئزان بقانون النفعيّة اللاأخلاقيّة غير المكتوب الذي يتبنّاه الموساد.

"أنفق الجهاز مقدارًا عظيمًا من الوقت والمال على تدريب صوّان وإعالته أثناء عمله، ولكن عند الحساب فَقَد كلّ هذا قيمته في ضوء الحاجة الأهمّ للفلفة الموساد فضائحه في بريطانيا. كان صوّان الضحيّة ـ الفدية، فقد قُدّم إلى البريطانيّين على أنّه نموذج من نماذج الإرهابيّين الذين طالما حذّر الموساد منهم. ولا بدّ من الخسارة، فصوّان أحسَن صنيعًا وإن يكن قصّر عن الإيفاء بكلّ ما طُلب منه، لكنّ حقيبة السلاح المخبّأة كانت فرصة لا بدّ من استغلالها، فهي ستحطّم علاقة منظّمة التحرير الفلسطينيّة بحكومة تاتشر وستتيح لإسرائيل تصوير عرفات على أنّه الإرهابيّ المخادع الذي لا يزال الموساد يصوّره بهذه الصورة. وستبقى إسرائيل تجد أمثال صوّان الذين يقعون ضحيّة إغواء رجالها الذين لا يحفظون عهدا".

بيد أنّ اطمئنان الموساد إلى أنّ ما سيقوله صوّان لمستجوبيه البريطانيّين سيُلقى وراء ظهورهم، لم يدم طويلاً. ذلك أنّ ناحوم عدموني لم يقم حسابًا لجهود صوّان اليائسة للنجاة من عقوبة السجن. فهو قدّم للمحقّقين في "الشعبة الخاصّة" أوصافًا تفصيليّة عن مديريه، وكذلك عن كلّ ما تعلّمه على الموساد. وشيئًا فشيئًا تنبّهت الشرطة إلى احتمال أن يكون اسماعيل صوّان صادقًا، فاستُدعي ضابط اتّصال جهاز MI 6 من تلّ أبيب لاستجواب صوّان، فتبيّن أنّ كلّ ما قاله صوان عن مقرّ الموساد وأساليبه تتطابق مع ما يعرفه الضابط. وبدأت تظهر حقيقة الموساد...

بنتيجة انكشاف الأمر، طردت بريطانيا ريغيف وباراد وسمارة من أراضيها[1]. وأصدرت السفارة الاسرائيليّة في لندن بيانًا وقحًا قالت فيه: "إنّنا نأسف إذ نرى أنّ حكومة جلالتها استحسنت اتّخاذ إجراءات من هذا النوع. إنّ إسرائيل لم تتعرّض للمصالح البريطانيّة. لقد كان دافعها الوحيد مكافحة الإرهاب".

غير أنّ صوّان لم ينج من بعض العواقب، ففي حزيران - يونيو ١٩٨٨ حُكم عليه بالسجن لمدّة أحد عشر عامًا لحيازة أسلحة تخصّ منظّمة إرهابيّة. وفي كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٩٤ أطلق سراح إسماعيل صوّان من سجنه "فول ساتون" وأُعيد إليه جواز سفره الأردنيّ وجرى ترحيله على طائرة إلى عمّان. وشوهد لآخر مرّة وهو يخرج من المطار حاملاً حقيبة اليد التي أعطاه إيّاها الموساد قبل سنوات عندما سافر إلى لندن. لكنّ قعرها الخفيّ كان قد نُزع منها[2]...

---

١ - بعد خمس سنوات على طرد ضبّاط الموساد الثلاثة، والذي أدّى عمليًا إلى إغلاق فرع الموساد في بريطانيا، عاد الجهاز إلى العمل من جديد. وفي عام ١٩٩٨ كان خمسة ضبّاط يعملون من مقرّ السفارة الإسرائيليّة في حيّ "كنزينغتون" في لندن بالتنسيق مع جهاز MI 5 و"الشعبة الخاصّة" لمحاربة بعض الفصائل في بريطانيا.

٢ - طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٠٧ - ٣٠٨، ٣١٠ - ٣١٤، ٣٢١ - ٣٢٥، ٣٢٦ - ٣٣٠.

إستئنافُ عمليّات الإرهاب اليهوديّ في الضفّة الغربيّة

تحدّثنا في الفصل السابق عن ظاهرات أعمال الإرهاب اليهوديّ التي بدأت بتفجير سيّارات العمد الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة، وعدم سماح مناحيم بيغن يوم كان رئيسًا للوزراء لرئيس جهاز شين بيت أفراهام أحيتوف بزرع عملاء شين بيت داخل المستوطنات اليهوديّة التي أنشأها إيريل شارون في الضفّة الغربيّة لمنع هؤلاء المستوطنين المتطرّفين من القيام بعمليّات إرهابيّة ضدّ عرب الضفّة الغربيّة المحتلّة. وعندما ترك أحيتوف أخيرًا شين بيت في عام ١٩٨١، بقيت عمليّات التفجير المذكورة مجهولة الفاعل، ما أدّى إلى تنكّر العديد من مستوطني الضفّة الغربيّة في الزيّ العربيّ، واقتحامهم حرم الجامعة الإسلاميّة في الخليل في حزيران - يوليو ١٩٨٣، وهم يطلقون الرصاص على الطلبة، ما أدّى إلى مصرع ثلاثة فلسطينيّين. وظلّت هذه الجريمة أيضًا دون حلّ حتّى أيّار - مايو ١٩٨٤.

يقول باحثون إنّه في ذلك الشهر، أيّار - مايو ١٩٨٤، حدثت نقطة تحوّل عندما اكتشف البوليس الإسرائيلي في القدس ١٢ قنبلة داخل أوتوبيسات عربيّة، تحمل ركّابًا من بينهم أطفال، في القدس الشرقيّة. وتمّ تجنّب مجزرة رهيبة بأعجوبة، فهذه المرّة استطاع شين بيت أن يتبيّن أمر الفاعلين.

كانت المتفجّرات التي عُثر عليها من الطراز المستخدم في الجيش الإسرائيليّ، ما يشير إلى أنّ جنودًا أو جنود احتياط قد سرقوها من ترسانات الجيش. وقد عرف شين

بيت على من يلقي القبض بالضبط، لأنّه بحلول عام ١٩٨٤، كان الجهاز قد زرع بالفعل عملاء في الحركة السريّة اليهوديّة. وكان بيغن قد استقال في العام السابق، وأخذ "أفراهام شالوم"، الرئيس الجديد لجهاز شين بيت، وهو نائب أحيتوف قبل نهاية عهد الأخير، على عاتقه حلّ رموز القضيّة. واكتشف خليّة إرهابيّة تتألف من قرابة عشرين من المستوطنين اليهود، قد كرّسوا أنفسهم لتهديد الفلسطينيّين وقتلهم. ويقول باحثون مستقلّون إنّ شين بيت قد عامل اليهود معاملة أفضل من معاملتهم لـ"الإرهابيّين" العرب، ومع ذلك فقد اعترف جميع المشتبه بهم، وحوكموا، وأدينوا، وسجنوا[١].

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٣٦٠.

فَضيحَة جُوناثان بُولارد

يُعتَبرُ "جوناثان بولارد" بالنسبة إلى كثيرين، "اليهوديّ الأميركيّ الذي تجسّس لصالح إسرائيل انطلاقًا من شعوره بأنّ الوثائق التي كان يطّلع عليها والمعلومات التي يعرفها قد تساعد إسرائيل في حربها ضدّ الإرهاب". وقد تمّ توقيف بولارد من قبل الـ FBI في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٢ بعد مرور ١٤ شهرًا فقط على نقله معلومات للإسرائيليّين... وقد اعتذرت إسرائيل لتجسّسها على الولايات المتّحدة واعترفت بأنّ تجنيد بولارد للعمل لحسابها كان خطأ فادحًا... يمضي الآن بولارد حكمًا بالسجن المؤبّد بتهمة التجسّس[1].

استطاع جهاز الموساد أن يزرع "جوناثان بولارد" عميلاً له داخل المخابرات المركزّة الأميركيّة CIA ليحصل على معلومات هامّة كان يحتفظ بها جهاز المخابرات الأميركية حول تفاصيل شحنات الأسلحة العراقيّة والإيرانية ومصانع إنتاج الأسلحة الكيماويّة والبيولوجيّة، وللحصول على تقارير توضح خريطة شبكة الاستخبارات الأميركية في البلدان العربيّة والأفريقيّة. وقد بدأ الموساد في الاستيلاء الكامل على معلومات الـ CIA في تلك المجالات عن طريق بولارد. كما استطاع عميل الموساد أن يزوّد الجهاز الإسرائيليّ بنشاطات التنصّت الإلكترونيّ في وكالة الأمن القومي NCA في إسرائيل وأساليب زرع أجهزة التجسّس في سفارة إسرائيل بواشنطن.

---

١ ـ هيرش سيمور م.، خيّار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢) ص٢٠١.

استنفرت الاستخبارات الأميركيّة مصادرها وعملاءها داخل الموساد لمعرفة الاختراق الذي تعرّضت له بكشف معلوماتها، وأخيرًا استطاعت أن تعتقل بولارد قبل أن يسلم المعلومات التي يحصل عليها الموساد من الـ CIA في ٢١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٥ أمام سفارة إسرائيل بواشنطن بواسطة الـ FBI، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[١].

وفي تفاصيل القضيّة أنّ "جوناثان بولارد" كان أميركيًّا يهوديًّا يؤمن من كلّ قلبه أنّ هناك رابطًا مقدّسًا بين الولايات المتّحدة الأميركيّة ودولة إسرائيل، ولم يكن يرى أيّ تناقض بين ولائه المطلق للولايات المتّحدة وولائه المطلق لدولة إسرائيل. بالنسبة له، كان الأمر واحدًا. هذه الإيديولوجيّة لم تنمُ لوحدها، بل كانت نتيجة مسيرة طويلة من العقدة التي طالت عددًا من الشباب اليهود بمساعدة كريمة لدولة إسرائيل على يد جماعة "شلشم" أو كما كانوا يعرفون "رسل عالية"، وهؤلاء هم أشخاص يعملون داخل المجتمع اليهوديّ لتركيز محبّة إسرائيل في قلوب الشباب اليهوديّ. وفي حالة جوناثان بولارد نجحوا بشكل كبير.

تطوّع الشابّ بولارد في لجنة الأعمال الأميركيّة ـ الإسرائيليّة، وهي مجموعة تشجّع اللوبي اليهودي وتتعاطف معه، وهي حلقة وصل في سلسلة المنظّمات التي تربط المجتمع اليهوديّ بإسرائيل بشكل عام، وبالجناح اليميني الإسرائيلي بشكل خاص. وبولارد، الذي كان عضوًا في لجنة الاستخبارات الأميركيّة، قد كرّس خدماته لصالح إسرائيل. وكعادة الإجراءات، أعطي اسمه لقسم الأمن في السفارة الإسرائيليّة لدى واشنطن، ومن هناك قُدّم للموساد كعضو فعّال ومهمّ في

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٧١.

"سايان[1]"، أي الجماعة اليهوديّة المتطوّعة لخدمة الموساد من دون مقابل. وبعد الاختبارات، قرّر الموساد ثبوت جدارته كعضو مناسب، خصوصًا أنّه صهيونيّ متحمّس وذو مركز مهمّ في لجنة البحوث الاستخباراتيّة الأميركيّة، ما يتيح له الوصول لمعلومات حيّة ضروريّة حول الشرق الأوسط وأفريقيا. وبما أنّه كان يهوديًا، لم يكن واردًا جعله جاسوسًا يتقاضى راتبًا.

في الواقع، كان بولارد الشخص المثاليّ في عمليّة "رايندير" التي تهدف إلى إعادة العلاقات بين مؤسّسة المخابرات الأميركيّة، وتلك التابعة لجنوبي أفريقيا، ليس لأنّه لم

---

١ ـ **السيان أو السيانيم:** هم المتطوعون اليهود الذين يعملون في خدمة جهاز الموساد، وهم منتشرون في كل أقطار العالم ويحملون جنسيات البلدان التي يعيشون فيها، وولاؤهم الرئيسي لإسرائيل، ويعملون لمساعدتها وحمايتها، وعلى سبيل المثال فإنهم في بريطانيا يزيدون عن خمسة آلاف، وفي أميركا يقدّر عددهم بأكثر من خمسة عشر ألفًا، ويعتبرون قوة بشرية هائلة تفوق العاملين في أجهزة الاستخبارات الدولية الأخرى، ويكلف المتطوعون بإنجاز العديد من المهام وتقديم الخدمات المطلوبة من مواقع مجالات عملهم ذات العلاقة بتنفيذ الخطط والبرامج التي يقوم بتنفيذها عناصر الموساد، فإذا كان أحدهم يدير وكالة لتأجير السيارات فهو يقدم لعناصر الموساد عربة دون الحاجة إلى الأوراق المطلوبة، وإن كان يعمل في تأجير العقارات السكنية فهو يوفر المطلوب بسهولة ويستطيع آخر أن يقدم مساعدات طبية في معالجة جريح دون إبلاغ الشرطة أو السلطات الأمنية الأخرى، ولدى بعضهم إمكانية وضع الخرائط للأهداف المحددة، والقيام بالتمويهات الاحتياطية اللازمة وغيرها من الأعمال التي تُعدّ ضرورية وهامة، كما أنهم يقدمون كافة أنواع المعلومات، وينشرون الشائعات، ويتناولون الأخبار في كافة أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة التي يعملون بها، ويجدّون في العمل على الاتصال بأصدقاء لهم في تلك المواقع، كما يلعب المتطوعون دورًا هامًا في عمليات تهريب أفراد الموساد وتضليل تحركاتهم وخصوصًا في حالات الاختطاف للأفراد المطلوب نقلهم عنوة لإسرائيل، ولهم دراية واسعة بإدارة البيوت السرية وإخفاء الأسلحة والقيام بالاتصالات وتقديم المعلومات الدقيقة، ويُعتمد عليهم بشكل أساسي، وبدونهم لا يستطيع الموساد إنجاز عملياته القذرة خارج إسرائيل، ومسؤولية التوسع في استقطاب المتطوعين مسألة ذات أهمية قصوى وضرورية ويشرف عليها قادة الموساد أنفسهم.

تكن هنـاك روابـط بيـن الدولتَيـن، إنّمـا مـن أجـل جعـل العلاقـة تحـت مراقبـة الموسـاد وإدارته، وبذلك يمكنها أن تكون أكثر أمنًا وإفادة ماليّة.

لم يبدِ بولارد من جانبه أيّ تردّد عندمـا قـام "يـوري"، عميـل الموسـاد العـامل فـي شركة العال الإسرائيليّة للطيران، بالاتّصال به بناء علـى توصيـة مـن صديـق لبـولارد في إسرائيل، تفيد بأنّ الموساد لم يعد يهتمّ ببـولارد، الـذي أعطيـت لـه التعليمـات لعـدم الاتّصال بالمنظّمات اليهوديّة ثانية. فقد أصبح منذ الآن "سايان" للموساد، أو كما قيل لـه في "منظّمة الأمن التابعة لإسرائيل".

في هذا الوقت، لم يكن بولارد يتقاضى أجرًا عن العمـل الـذي يقـوم بـه، فقـد كـان للموساد سياسة واضحة بعدم الدفع للمساعدين اليهود. وبهذه الطريقة لـن يُقـال أبدًا إنّ ما يقوم به هؤلاء هو بدافع غير دافع محبّتهم لإسرائيل واهتمامهم بها.

كـان "يـوري" قـد أمّـن مـدّ جنـوب أفريقيـا بصـور كـان الموسـاد قـد اسـتلمها مــن المخابرات الدانماركيّة عن سـلاح SSC-3 السـوفياتيّ الـذي كـان الأمـيركيّون يتوقـون لمعرفته. وقد دخل كلّ هذا ضمـن نطـاق عمليّـة رايندير التـي مـن خلالهـا اسـطاعت استخبارات جنوبي أفريقيا أن تتقرّب من الأميركيّين عبر أحد معارف بولارد منـذ أيّام الدراسة. وكان هذا الصديق قد تعلّم مع بولارد في المدرسة نفسها وبقي صديقًا له، ثمّ أصبح ذا منزلة رفيعة في استخبارات جنوبي أفريقيا.

لبعض الوقت، استغلّ يوري بولارد للحصول على قطع متنوّعـة مـن المعلومـات، دون أن يتمادى كثيرًا في علاقته إلى حدّ تعريض الرجل للشبهات. وفي تقاريره، حـذّر يوري على الدوام من أنّه لم يكن واثقًا تمام الثقة من أنّ بولارد يخبره كلّ الحقيقـة كلّ الوقت. كما كان يوري يعتقد أنّ بولارد يقحم نفسه في المشاكل، محاولاً الحصول على معلومات لم يطلب منه تقصّيها.

وإذا كان هذا صحيحًا، فلا يستطيع يوري مساعدته لأنّه لن يكون مدركًا للخطر.

في خلال العام ١٩٨٤، قرّر يوري بموافقة رؤسائه أنّ بولارد كان خفيفًا لدرجة يصعب معها التعامل معه، فهو دائمًا يحاول القيام بأكثر ممّا يُسأل، متّخذًا مجازفات غير لازمة، وبشكل عام، متحوّلاً إلى عائق أكثر من مصدر للقوّة والنفع داخل المخابرات الأميركيّة. من هنا، وضِع بولارد على القائمة في حالة تجميد. وأُعلم بولارد بأنّه كان ذا عون كبير لإسرائيل، ولكن من أجل سلامته الشخصيّة قرّرت الاستخبارات الإسرائيليّة أنّه يحتاج لمدّة تجميد، على أنّه يمكن في ما بعد البحث وإعادة النظر في ما إذا كان عمله لا يشكّل خطرًا عليه، ففي هذه الحالة سوف يجري الاتّصال به ليعاد إلى العمل.

لم يُثر الأمر بولارد الذي حسب أنّ يوري لم يبدِ أيّ احتجاج. والجدير ذكره أنّه حتّى هذا الوقت لم يكن بولارد قد تقاضى سنتًا واحدًا، إنّما كان يعمل لأسباب إيديولوجيّة بحتة.

لم يمضِ وقت طويل بعد أن صدر القرار بتنويم ملفّ بولارد حتّى وقع هذا الأخير بيد "رافي إيتان". وبالرغم من أنّ إيتان لم يكن وقتها ضابطًا في الموساد، إلاّ أنّه كما يقال عن عضو الموساد: إنّه دائمًا عضو في الموساد. وكان يستطيع الوصول إلى ملفّاتها بسبب ماضيه في الموساد، لأنّه كان مستشارًا لشؤون الإرهاب لدى رئيس الوزراء، وأيضًا لأنّه كان رئيس لاكام.

عندما وقع ملفّ بولارد بيد إيتان، شعر بأنّه وقع على منجم ذهب. ومن دون التقيّد بقواعد السرّيّة الخاصّة بإحياء العميل، تدبّر إيتان لقاء مع مخطّطه الجديد "إفيان سلاّح"، الذي كان طيّارًا إسرائيليًّا رفيع المستوى، شارك في قصف المفاعل النوويّ العراقيّ، وكان أهلاً للمهمّة التي كلّفه بها إيتان: تنشيط بولارد.

كان سلاّح يريد الدراسة في الولايات المتّحدة والعمل لمنظّمة لاكام في الوقت ذاته. ولم يكن عليه تجنيد بولارد، بل فقط تنشيطه. ودبّر إيتان اللقاء بين الإثنين ليبدو مصادفة شارك فيها فريق ثالث، وهو قريب لبولارد، كان قد استمع لخطاب ألقاه سلاّح، الذي اختير ليكون المحرّك لأنّه كان خبيرًا في تحديد الأهداف، ويمكنه التفاهم حول تجارته وعمله مع بولارد الذي بدوره كان خبيرًا بتحليلات الاستخبارات.

أدّى عدم كون سلاّح رجلاً مدرّبًا من قبل الاستخبارات إلى فشل بولارد الذي كان في هذه المرحلة الجديدة يتقاضى أجرًا، وكان هو الذي يقود نفسه ويدبّرها.

فقد تنامى إلى سمع الموساد من مصادر في الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA أنّهم كانوا بصدد تضييق الحصار حول بولارد، ولكنّ مؤسّسة الموساد فضّلت البقاء خارج الصورة، آملة في أن تحلّ القضيّة بهدوء وراء الأبواب المغلقة، مقصية لاكام بعيدًا عن اللعبة. ولكسب مزيد من الوقت، فسوف تكون المعالجة عندما تبدأ الأمور في التعقيد.

في هذا الوقت، أُرسل السفير الإسرائيليّ لدى واشنطن لدورة محاضرات في فرنسا، وكلّف أحد دبلوماسيّيه: "إلياكيم روبنشتاين"، بتدبير أمور السفارة في غيابه. وفي الوقت نفسه، غادر أعضاء لاكام الولايات المتّحدة، وتُرك بولارد ليناضل في سبيل قضيّته منفردًا. فلجأ إلى السفارة الإسرائيليّة في واشنطن مع زوجته.

داخل السفارة، طلب رجل الأمن التعليمات من روبنشتاين، الذي بدوره طلب رفع الأمر إلى ممثّل شبكات الاستخبارات الإسرائيليّة في الولايات المتّحدة ليعرف ماذا يقرّر، وحوّل هذا الأخير القضيّة إلى ممثّل الموساد، الذي لم يتحقّق من الأمر مع الجهات العليا. وظنًّا منه أنّ الأمور لن تتبدّل، أخبر ممثّل الشبكات أنّ بولارد ليس من الموساد، وبالتالي لا علاقة له بالأمر. عندها صرّح ممثّل الشبكات أنّه ليس لديه مطالبة

بشأن بولارد... وبما أنّ كلّ أعضاء اللاكام كانوا قد غادروا الولايات المتّحدة الأميركيّة، ولا يمكن الوصول إليهم، آلت معالجة القضيّة لروبنشتاين. وكان قد علم أنّ السفارة الإسرائيليّة لدى واشنطن حوّطت برجال الشرطة الفديراليّة FBI. ولم يكن بوسع روبنشتاين الاتّصال بإسرائيل عبر القنوات الآمنة التي تسيطر عليها الموساد داخل السفارة، فقد ادّعى هؤلاء بأنّها معطّلة. فقرّر روبنشتاين اتّخاذ المبادرة، فأخرج بولارد وزوجته إلى خارج السفارة ليقعوا في قبضة الشرطة الفدراليّة... المذهولة.

ويقول أوستروفسكي: علمت بعد ذلك بكثير من مصادر في الشرطة الفدراليّة لها ضلع في قضيّة بولارد واعتقاله أنّهم صُعقوا عندما أُخرج الرجل وزوجته من السفارة، وكان رجال الـ FBI قد جهّزوا أنفسهم للتفاوض في شبه تسوية مع إسرائيل. وعلمت أيضًا أنّ شريحة كبيرة من المعلومات التي صدّرها بولارد لإسرائيل شقّت طريقا إلى الكتلة الشرقيّة مقابل السماح لليهود بالخروج من تلك البلاد. هذه المعلومة، إلى جانب التحقّق من أنّ المعلومات أصبحت بأيدي السوفيات، كانت وراء مطالبة سكريتير الدفاع الأميركيّ "كسبار واينبرغر" بإنزال أقصى العقوبات ببولارد. وأُرغم يوري على مغادرة الولايات المتّحدة وقتها، إذ قلق الموساد من أن يعمد بولارد إلى إفشاء علاقته بالموساد، أملاً بتخفيف العقوبة. غير أنّ بولارد كان يعلم أنّ كشف هذه العلاقة من شأنه أن يفتح عليه بابًا جديدًا على المصائب، من شأنها أن تزيد موقفه سوءًا، ما جعله يتكتّم حول الموضوع، وما جعل قسم العدالة في الولايات المتّحدة يعدل عن وعده بتخفيف العقوبة ضدّ بولارد ويطلق سراح زوجته، التي حوكمت كشريكة له، مقابل فضح كلّ ما يتعلّق بتلك الوقائع[1].

---

١ ـ أوستروفسكي فيكتور، الوجه الآخر للخداع، ترجمة زينة كفروني ومحمّد ناصر، منشورات بيسان (بيروت،١٩٩٥) ص٢٤٦ ـ ٢٥٠.

وفي الرابع من آذار ـ مارس ١٩٨٧، حُكم على بولارد بالسجن المؤبّد بعد أن اعترف بذنبه. وحُكم على زوجته "آن" بالسجن خمس سنوات.

إثر تلك المحاكمة، بادر شقيق بولارد وأسرته في الولايات المتّحدة إلى تشكيل هيئة من المطالبين بالإفراج عن بولارد. وبدأت هذه المجموعة أوّلاً برفع القضيّة أمام محكمة اتّحاديّة تمّ اختيارها بعناية، وذلك لسحب إقرار بولارد بجرائمه في المبادلة القانونيّة التي أجراها المدّعي العام الذي وجّه إليه الاتّهام، والمعروف أنّ القانون الأميركيّ يسمح لأيّ متّهم بالاتّفاق مع المدّعي على الإقرار بجريمته مقابل تخفيف الحكم، وذلك بغية اختصار إجراءات المحاكمة، وفي حالة بولارد تركّز الاتّفاق على تخفيف الحكم على زوجة الجاسوس التي شاركت في نشاطه التجسّسي بدورها، فأقرّ بولارد بجريمته، ونال، رغم ذلك، حكمًا بالسجن مدى الحياة، في ما نالت زوجته حكمًا بالسجن خمس سنوات فقط كما ذكرنا سابقًا، ثمّ أُفرج عنها بعد انقضاء نصف المدّة لأسباب صحيّة. إلاّ أنّ زوجة بولارد: آنّ، لم تقم بزيارة زوجها في السجن ولو لمرّة واحدة، منذ الإفراج عنها، كما أنّها لم تكتب له أيّ رسالة، وتقول مصادر قريبة من قضيّة بولارد وآنّ أنّ آنّ فوجئت بعد خروجها من السجن، وعند اطّلاعها المتأنّي على أوراق القضيّة، بأنّ اعترافات زوجها كانت السبب الرئيسيّ الذي أدّى إلى اعتقالها، والحكم عليها بالسجن. ورغم أنّ المساومة القانونيّة المشار إليها قد خفّفت الحكم على الزوجة، إلاّ أنّها اعتقدت أنّه كان بالإمكان تجنّب الحكم تمامًا لو كان جوناثان بولارد أطبق شفتيه ورفض الإدلاء بأيّ اعترافات تفصيليّة. وتتابعت الأحداث بعد ذلك لتطلب الزوجة الطلاق من زوجها السجين رسميًّا، ووافق بولارد على الطلاق.

المحامي اليهودي :آلان ديرشوفيتز" الذي يتزعّم هيئة أنصار بولارد في الولايات المتّحدة يقول إنّ هذه المشكلة تؤثّر على الجانب العاطفيّ في تصوير قضيّة بولارد،

ورغم ذلك فإنّ ديرشوفيتز وأعضاء هيئته نجحوا في نقل القضيّة إلى مستويَين متجاورين: أولهما قانونيّ عن طريق مطالبة المحكمة الاتّحاديّة التي يرأسها قاض يهوديّ أيضًا بمراجعة مساومة بولارد وسحب إقراره بجريمته، وثانيهما سياسيّ، عن طريق بدء حملة مكثّفة لدفع المنظّمات اليهوديّة الأميركيّة إلى إثارة الأمر مع الإدارة في واشنطن. وكانت هذه المنظّمات تتجنّب عن عمد فتح ملفّ بولارد بسبب حساسيّته الشديدة، ولأنّه يعيد صورًا وذكريات ترغب هذه المنظّمات في دفنها إذ إنّ من شأن إثارتها أن تفتح الباب أمام اتّهامات الولاء المزدوج لليهوديّ الأميركيّ بين إسرائيل والولايات المتّحدة، وتثير شبهات كثيرة حول اليهود الذين يحتلّون مواقع حسّاسة في أجهزة الحكومة الأميركيّة.

يقول ديرشوفيتز إنّ بولارد تلقّى حكمًا غير عادل، لا يتناسب مع جريمته، ويرصد حالات أخرى لجواسيس صدرت ضدّهم أحكام بالحبس لمدد أقلّ، ثمّ يصل بعد هذه المداخلة إلى استنتاج واحد عرضه على كلّ المنظّمات اليهوديّة الأميركيّة، وهو أنّ الحكم الذي صدر على بولارد كان متشدّدًا لأنّ بولارد يهوديّ، ولأنّه تجسّس لصالح إسرائيل. والمقصود من هذا الحكم إذن ليس بولارد وحده، بل كلّ اليهود الأميركيّن، بالإضافة أيضًا إلى دولة إسرائيل، وعلى من يقولون إنّهم يدافعون عن اليهود وإسرائيل أن يتدخّلوا لإخراج الجاسوس الإسرائيليّ من السجن.

أدّى ذلك إلى صدور بيان أوّليّ صدر عن اللوبي الصهيونيّ في الكونغرس الأميركيّ يطالب بإعادة فتح محاكمة بولارد، ثمّ ما لبث أن تبعته بيانات مشابهة صدرت عن بقيّة المنظّمات اليهوديّة الأميركيّة الرئيسيّة. وليس من العادة أن نرى مثل هذا التجمّع من المنظّمات ذات النفوذ الكبير يفشل في تحقيق هدف تجتمع كلّ تلك المنظّمات حوله، إذ إنّ لكلّ منها كلمة مسموعة في أرجاء الحكومة الأميركيّة، فكيف

يكون الوضع إذا اجتمعت كلماتها جميعًا لتطالب بصوت واحد بالإفراج عن جوناثان بولارد. وقد أصدرت هذه المنظّمات بيانًا قالت فيه: "لقد علمنا أنّ هناك آراء لها ما يعزّزها تفيد بأنّ الحكم الذي صدر على جوناثان بولارد لم يكن عادلا، ولأنّ الأسلوب الذي تعاملت به الحكومة مع هذه القضيّة تأثّر بكون بولارد يهوديًّا وبأنّه اتّهم بالتجسّس لحساب إسرائيل. ولأنّ هذه الآراء تمسّ قضايا هامّة بالنسبة للجالية اليهوديّة الأميركيّة، فإنّنا ندعم المطالبة بفتح ملفّ هذه القضيّة مرّة أخرى أمام محكمة أميركيّة للنظر في صحّتها"...

ويقول باحثون إنّ تدخّل هذه المنظّمات يعني فتح الطريق أمام تدخّل الحكومة الإسرائيليّة، وقد ألمح "روبرت إيفتون" اليهودي المسؤول في الكونغرس الأميركي إلى ضرورة هذا التدخّل قائلاً: "إنّ الإتّصالات الدبلوماسيّة دائرة على قدم وساق بين إسرائيل وواشنطن، ومن الضروريّ استخدام هذه اللحظة لإثارة قضيّة جوناثان بولارد مرّة أخرى، إنّها قضيّة تعني إسرائيل في المقام الأوّل". ويحاول إيفتون تجاوز الحساسيّات التي أحاطت بالقضيّة منذ لحظتها الأولى قائلاً: "إنّنا لا نناقش ما إذا كان بولارد قد أذنب أم لا، إذ لا خلاف في ذلك، ولكنّنا نناقش الحكم الذي صدر ضدّه، إذ نعتقد أنّ هذا الحكم كان أكثر قسوة ممّا ينبغي، وتعكس هذه القسوة قدرًا من العداء للساميّة لدى المدّعي والقاضي والمحقّقين في آن، ونحن نرى أنّ لإسرائيل دورًا هامًّا في مقاومة العداء للساميّة وفي محو ما يترتّب على هذا العداء من نتائج غير منصفة".

وهكذا فإنّ مصير جوناثان بولارد سيصبح في ما يبدو معلّقًا على إثارة قضيّته بواسطة الحكومة الإسرائيليّة التي تجسّس لحسابها في اتّصالاتها مع الحكومة الأميركيّة التي سرق بولارد أسرارها لحساب دولة أجنبيّة[1]...

---

١ ـ الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، ج١، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ص٣٨٢ ـ ٣٨٤.

نَقلُ معلُومَات بولارد إلَى السُّوفيات

لدى توقيف بولارد، نفت أوساط الحكومة الإسرائيليّة أيّ علم لها بنشاطاته، وشُكّلت لجنتان حظيتا بموافقة الحكومة والكنيست للتحقيق في القضيّة، فتبيّن أنّ الحكومة تجهل كلّ شيء عن الأمر. إلاّ أنّ بولارد قال قبل إصدار الحكم عليه بالسجن المؤبّد، إنّ المتعاملين الإسرائيليّين معه في واشنطن أكّدوا له بأنّ اعتماد إسرائيل على معلومات من "مصدر خاص" قد ذُكر أمام الحكومة الإسرائيليّة، فضلاً عن أنّ لوائح بحاجات إسرائيل الاستخباراتيّة كانت تصله تباعًا وبشكل منتظم، ورد فيها سلّم أولويّات بالنسبة إلى كلّ من الأجهزة الأمنيّة الإسرائيليّة التي كان رئيس كلّ منها يوقّع تحت سلّم أولويّات جهازه.

كان معظم المعلومات إلى إسرائيل عبارة عن صور أقمار إصطناعيّة والتنصّت على الاتّصالات، وهي المعلومات التي كان يعرف المسؤولون الإسرائيليّون أنّها "لا تصل إلاّ عبر قنوات غير عاديّة". وقد تمكّن المتعاملون الإسرائيليّون مع بولارد في واشنطن من حمل حكومتهم على شراء أكثر آلات تصوير المستندات تطوّرًا التي تمّ شحنها إلى السفارة الإسرائيليّة في واشنطن بعد أن غُلّفت بغطاء معدنيّ واق لمنع اكتشاف وصولها بالطرق الإلكترونيّة، إذ كان يجب تصوير نسخ عن صور بالغة الأهميّة كتلك التي يلتقطها القمر الصناعيّ KH-11.

كان "آري بن مناشي" قلقًا من تهديد إيتان العلاقات الأميركيّة ـ الإسرائيليّة، ويعلم أيضًا أنّ إسحق شامير سمح، عندما تولّى منصب رئيس الوزراء في ربيع ١٩٨٤،

بإرسال بعض معلومات بولارد إلى الاتّحاد السوفياتيّ بعد حذف بعض الأجزاء وإعادة طبعها.

كان لبن مناشي، اليهوديّ العراقيّ، علاقات وثيقة مع شـامير. وفـي العـام ١٩٨٧، ترك قسم العلاقات الخارجيّة وعمل كمستشار استخباراتيّ لرئيس الوزراء شامير، وقاد عدّة عمليّات سريّة له. وكـان والـد بـن مناشـي قد خـدم فـي عصابـة شـتيرن المعاديـة للبريطانيّين قبل حرب ١٩٤٨.

كان معروفًا الكره الشديد الذي يكنّه شامير للولايات المتّحدة. وقد اغتاظ كثيرًا مـن نظرة بيغن الأخلاقيّة إلى العلاقات الدوليّة. وكان أوّل ما سعى إليه شـامير فـور تعيينـه رئيسًا للوزراء هو فتح قنـوات اتّصـال مـع الكتلـة الشرقيّة. وأرسـل برقيّـة إلـى ممثّـل الموساد في بوخارست عاصمة رومانيا تأمره ببدء اتّصالات وعمـل أيّ شـيء لحلحلـة الجمود في العلاقات بين إسرائيل ورومانيا.

أدرك السوفيات بأنّ الإسرائيليّين يحاولون الانفتاح عليهم، فدعوهم فـي ذلـك العـام إلـى مؤتمـر للاسـتخبارات فـي الهنـد لمناقشــة المنشـآت النوويّـة الباكسـتانيّة، وكـان المؤتمـر فـي "كاهوتـا" فـي مطلـع عـام ١٩٨٤، حيث سـمح شـامير بتبـادل المعلومـات مع السوفيات حول أنظمة أسلحة أميركيّة. كمـا تـمّ تبـادل معلومـات إستخباراتيّة، لكـن بعـد أن تكـون الأجهـزة الإسـرائيليّة قـد حذفـت مـن المعلومـات مـا قـد يلحــق ضـررًا بالأميركيّين.

لعبت هذه التبادلات دورًا كبيرًا في إزالة التوتّـر فـي العلاقـات الدبلوماسـيّة، وفـي رفع عدد المهاجرين السوفيات الذين تدفّقوا إلـى إسـرائيل. كمـا توجّـه بـن مناشـي إلـى وارسو، ممثّلاً دولة إسرائيل، لمناقشة شحن أسلحة من نوع "كلاشنيكوف" و"سـام ـ ٧" إلى إيران.

سلّم الإسرائيليّون بعض المعلومات الاستخباراتيّة إلى "يفغاني بريماكوف"، المسؤول عن دائرة الشرق الأوسط في وزارة الخارجيّة السوفياتيّة، الذي التقى شامير مرّات عدّة عندما كان رئيسًا للوزراء منذ خمسينات وستّينات القرن العشرين، أي منذ كان في الموساد. وشامير يؤمن بضرورة إقامة علاقات جيّدة مع الاتّحاد السوفياتيّ وجهاز الـ KGB. وقد ترك الموساد في ستّينات القرن العشرين لينضمّ في ما بعد إلى حزب "حيروت" بزعامة بيغن، ثمّ أصبح رئيسًا للكنيست عام ١٩٧٧ عندما كان بيغن رئيس وزراء.

كان شامير دائمًا شغوفًا بالدول ذات الأنظمة القويّة، ومشكّكًا في أنظمة الحكومات الديمقراطيّة. حتّى أنّه وصف الولايات المتّحدة بالبورجوازيّة والماديّة.

قام شامير بتبادل المعلومات مع السوفيات كخطوة حسن نيّة، وليظهر للسوفيات أنّه قادر على مساعدتهم في شؤونهم في الشرق الأوسط، خلافًا للعرب الذين ادّعى أنّ لا قدرة لهم على تزويده بهكذا معلومات.

عندما علم بيريز ورابين بقصّة بولارد، أدركا أنّه إذا وصل الخبر للولايات المتّحدة، فسوف يعني نهاية حكم الليكود، فضلاً عن تعرّض العلاقات الأميركيّة الإسرائيليّة للخطر، ممّا حملهما على إبقاء الأمر سرًّا. وقد درس "مابام" إمكانيّة تسريب أخبار عمّا فعله شامير للصحافة، إلاّ أنّ جماعة مابام رأوا أنّ الأمر أخطر من أن يُفشى.

دافع شامير عن تبادل المعلومات بقوله إنّه ينوي من خلاله تحسين العلاقات مع الاتّحاد السوفياتيّ، وإنشاء نوع من التعاون الاستراتيجيّ بين البلدين. وأضاف أنّه لا يُضرّ بذلك الولايات المتّحدة، بل إنّه يُعلم السوفيات بأنّ الأميركيّين يسمعون ويرون كلّ شيء.

أفاد أحد المسؤولين في الاستخبارات الأميركيّة بأنّ "الإسرائيليّين كانوا يهدفون من نقل معلومات بولارد إلى السوفيات، أن يظهروا لهم أنّهم يملكون قدرة استراتيجيّة، وأن يسهّلوا عمليّة هجرة اليهود السوفيات إلى إسرائيل. لكنّ المحزن في الأمر، هو الضرر الذي لحق بعملائنا في الخارج... فما أن اطّلع السوفيات على معلومات الإسرائيليّين التي سرّبها بولارد، حتّى أغلقوا مصادرهم"[1].

أفييم سيلا... العميلُ الإسرائيليُّ الفَار من وَجه العَدالَة الأميركيَّة

أصرّ جوناثان بولارد طوال مدّة التحقيق معه من قبل الأميركيّين على أنّه لم يبدأ نشاطه التجسّسيّ لصالح الإسرائيليّين إلاّ في تموز - يوليو ١٩٨٤، بعد لقائه الجنرال "أفييم سيلا" من سلاح الجوّ الإسرائيليّ الذي شارك في قصف مفاعل تمّوز العراقيّ عام ١٩٨١. وفي الواقع كان سيلا خبيرًا في قصف المراكز النوويّة واستهدافها، وقد كُلّف هو بالتعامل مع بولارد. واشتملت المعلومات التي قدّمها بولارد معلومات إستخباراتيّة أميركيّة بالغة السريّة عن الأهداف السوفياتيّة المتمثّلة بالمراكز النوويّة العسكريّة، فضلاً عن معلومات حول وسائل حماية هذه المنشآت عن طريق تمويهها أو تعزيز سماكة جدرانها. وزوّد بولارد الإسرائيليّين أيضًا بمعلومات أميركيّة عن وسائط الدفاع السوفياتيّة، وخاصّة أنظمة صواريخ جوّ - أرض من نوع "سام - ٥" المخيفة التي أثبتت فعاليّتها ضدّ القاذفات الأميركيّة من نوع B-52 في حرب فيتنام. وسلّمهم تقرير الاستخبارات الأميركيّة السنويّ حول أنظمة الصواريخ الاستراتيجيّة السوفياتيّة

---

١ - هيرش سيمور م.، خيَار شمشوم، الترجمة العربيّة، ص٢٠٩ - ٢١٤.

المعروفة برمز II-38 وهو التقرير الذي يُعتبر أحد أكـثر الوثـائق الحكوميـة الأميركيّـة حساسيّة نظرًا لما يحويه من صور للأقمار الصناعيّة والاتّصالات التي تمّ اعتراضهـا، ومعلومات التُقطت بواسطة الرادارات، فضلاً عن تقارير العملاء...

في الواقـع، كـان الموسـاديّ السـابق رافـي إيتـان، وهـو مستشـار رئيـس الـوزراء لشؤون الإرهاب، ورئيس لاكام، هو الذي سعى لتجنيد جوناثان بولارد لخدمة إسـرائيل كما ذكرنا سابقًا. وبعد افتضاح قضيّة بولارد مباشرة، لـم يتـأذَّ كثـيرًا رافـي إيتـان، ولا ولا أفييم سيلا... فقد عيّن شارون، بوصفه وزيرًا للصناعة والتجارة، في العام ١٩٨٤ إيتان في منصب إداريّ رفيع في شركة الكيميائيّات الإسرائيليّة، وهي أهمّ شركة تابعـة للحكومة. أمّا سيلا، فقد عُيّن عند عودته إلى إسرائيل من الولايات المتّحدة قـائدًا لـ"تـلّ نوف"، وهي قاعدة لسرب من المقاتلات الإسرائيليّة جاهزة للقيام بغـارات نوويّـة. لكن بعد احتجاج الأميركيّين، عُيّن سيلا مديرًا لمعهد أركان قوّات الدفاع الإسرائيليّة، إلاّ أنّه ما لبث أن استقال.

إتّفق الجميع على إلقاء كامل المسؤوليّة على إيتان، وقـد اهتـمّ شـارون بذلـك. فلـو طال التحقيق أشخاصًا أعلى من إيتـان، لسقطت حكومـة الائتـلاف الوطنـيّ، ولا يخـدم سقوط الحكومة أيّ طرف، لذلك اتّحد الإسرائيليّون في ما بينهم لتجنيب إسـرائيل أكـبر قدر من الضرر. لكن يبدو أنّ إيتان عاد فغيّر رأيـه. فقـد أعلـن فـي صحيفـة إسرائيليّة مطلع سنة ١٩٨٧ أنّه نفّذ كلّ ما لع علاقة بقضيّة بـولارد بمعرفـة رؤسـائه... وهـو لا يريد أن يكون كبش محرقة... ألاّ أنّه غيّر رأيه في اليوم التالي ونفى كلّ ما صدر عنه من تصريحات.

ما حرص الإسرائيليّون على تغطيته بعد افتضاح قضيّة بولارد، هـو مـدى تـورّط سيلا.

كانت مهمّة سيلا، بوصفه أهمّ خبير في سلاح الجوّ الإسرائيليّ في تحديد الأهداف النوويّة وفي تنظيم غارات من هذا النوع، أن يتأكّد من أنّ مقاتلاته الـ F-16 التي تحمل صواريخ نوويّة، قادرة على دخول الاتّحاد السوفياتيّ. فقد أدّت الرؤية الموسّعة للأمن القوميّ التي اعتمدها شارون إلى طلب كبير على المعلومات الاستخباريّة، خاصّة إثر اعتبار الاتّحاد السوفياتيّ مصدر تهديد كبير لإسرائيل. وكان سلاح الجوّ الإسرائيليّ هو الذي طوّر نظام صاروخ "أريحا" وزاد من مداه.

كما احتاج الإسرائيليّون إلى معلومات بولارد لمعرفة كلّ ما يتعلّق بوسائل الاتّصالات في مختلف الأحوال الجويّة، ومجالات الطوارئ، ومراحل إطلاق النار.

عندما علم الأميركيّون بأمر بولارد في أواخر عام ١٩٨٥، لم يفكّر سيلا في كيفيّة الخروج من الولايات المتّحدة قبل أن يُكتشف أمره هو الآخر، وقبل أن يصبح في وضع حرج لا يرغب به هو ولا حكومته.

لم يتعاون بولارد مع مكتب وزير العدل الأميركيّ إلاّ بعد مضيّ ستّة أشهر على القبض عليه... فأدلى له باسم سيلا. ولا يُعلم ما إذا كان عرف الأميركيّون بمهمّة سيلا النوويّة. وكلّ التقارير التي أعدّتها اللجان الفرعيّة التي شكّلتها الإدارة الأميركيّة للتحقيق، والتقرير المسهب الذي أعدّه وزير الدفاع غسبار واينبرغر، كلها بقيت سريّة ولم تُنشر. وفي ما بعد، طالبت الحكومة الأميركيّة باسترداد سيلا، وإذ رفض الإسرائيليّون الطلب، صدر في واشنطن قرار بإدانة سيلا غيابيًّا في آذار ـ مارس ١٩٨٧. وفي حزيران ـ يونيو ١٩٩٠ أُعلن أنّ سيلا فار من وجه العدالة...

روى سيلا نفسه قصّة الإشراف على بولارد: طلب منه الإسرائيليّون في عام ١٩٨٤، عندما كان على وشك الانتهاء من اختصاصه في الكومبيوتر وحيازته شهادة دكتوراه من جامعة نيو يورك، أن يتعامل مع بولارد. وكان يعلم أن بولارد بدأ يغدق

الوثائق على الاستخبارات الإسرائيليّة قبل عام ١٩٨٤ بوقت طويل. رأى سيلا في أنّ تكليفه التعامل مع جاسوس بمستوى بولارد، قد يؤدّي إلى حصوله على ترقية سريعة. وقبل أن يتّخذ قرارًا بهذا الشأن، ناقش الأمر مع رئيسه المايجور جنرال "عاموس لايبدوت" رئيس أركان سلاح الجوّ. وحصل على إذن لمهمّته هذه من وزير الدفاع آنذاك، إسحق رابين.

حصل إفشاء بولارد إسم سيلا للأميركيّين في حزيران - يونيو ١٩٨٦، وسرعان ما كلّفت إسرائيل معالجة الأمر مع الأميركيّين "ليونارد غارمنت".

كان الكولونيل غارمنت مساعدًا سابقًا للرئيس نيكسون، وكان قاضيًا مهمًّا ومستشارًا خاصًّا لوزير العدل الأميركيّ السابق "إدوارد مين"، كما كان من أبرز المدافعين عن إسرائيل.

وصل غارمنت إلى تلّ أبيب في أواخر حزيران - يونيو في محاولة لتضييق الهوّة بين الحكومتين قبل أن تنتشر القصّة في الصحافة وتؤدّي إلى أضرار لا تُحمد عقباها.

اقترح الإسرائيليّون أن تقدّم واشنطن دلائل حسيّة على تورّط سيلا، وادّعوا أنّ علاقة سيلا ببولارد اقتصرت على لقاءات اجتماعيّة. وأظهرت الحكومة الإسرائيليّة بالتالي للولايات المتّحدة بأنّها لا تملك إثباتًا ضدّ سيلا، وبأنها لا تملك أيّ دليل على ضلوعه بنشاطات تجسّس ضدّها. وقد أكّد كلّ المسؤولين الحكوميّين الذين قابلهم غارمنت أنّهم لا يعلمون أيّ شيء عن مهمّة بولارد.

عاد غارمنت مجدّدًا إلى الولايات المتّحدة، وحاول إيجاد حلّ دبلوماسيّ. وسعى من أجل الوصول إلى أيّ وثيقة من شأنها تبرئة سيلا من دون المسّ بالعدالة. وفي آب - أغسطس ١٩٨٦، وصل إلى واشنطن وفد إسرائيليّ غير عاديّ للتفاوض مع وزارتَي

الخارجيّة والعدل الأميركيتَين، وليبلّغ الأميركيّين بأنّ مسألة سيلا تشكّل أولويّة أمنيّة بالنسبة لإسرائيل، وقد ضمّ الوفد "حاييم زادوك" وزير العدل السابق، و"مائير روزين" المسؤول السابق في الموساد الذي عمل في سفارة إسرائيل لدى واشنطن، و"ألكاييم روبنشتاين" نائب روزين وأحد ألمع الدبلوماسيّين الإسرائيليّين الذي سيصبح في ما بعد سكرتير الحكومة، و"رام كاسبي" وهو محام وشخصيّة هامّة في حزب العمل ومن المقرّبين من بيريز، و"أفراهام شالوم" الرئيس السابق لجهاز شين بيت، وقد اضطرّ في أواخر حزيران - يونيو إلى الاستقاالة من منصبه بسبب تهم وُجّهت إلى شين بيت تشمل تغطية مقتل خاطفَين فلسطينيّين وهما قيد الاعتقال سنة ١٩٨٤، و"هنان بارون" نائب مدير عام وزارة الخارجيّة الإسرائيليّة، وقد عيّن بيريز شخصيًّا "كاسي" و"شالوم" و"بارون" للإهتمام في هذه القضيّة فور توقيف بولارد.

دعا غارمنت الإسرائيليّين الستّة إلى منزله قبل يوم واحد من اجتماعهم بمسؤولي وزارتَي الخارجيّة والعدل. وكان غارمنت قد صاغ مذكّرة بإعاقة عمل العدالة، بموجب القانون الأميركيّ، في محاولة لمنع الإسرائيليّين من الإصرار على اعتماد عرض القضيّة كما يريدون هم.

إستمرّ الاجتماع إلى ما بعد منتصف الليل. وكانت زوجة غارمنت، وهي صحافيّة في "وول ستريت جورنال" قد كُلّفت بكتابة مسوّدة العرض على الآلة الكاتبة. وروت أنّ زوجها طرح أسئلة عدّة مثل "أيّ نوع من اليهود أنتم" و"أنا أيضًا مواطن أميركي"... وعندما أصرّ أعضاء الوفد الإسرائيليّ على حماية موكّلهم بطريقة مفضوحة، تلا عليهم غارمنت الملاحظات التي دوّنها في حواره مع سيلا... ولمّا طلب منه الإسرائيليّون إعطاءهم الملاحظات، رفض. عندئذ قالوا له "إنّنا نعفيك من مهمّتك"...

وحذَّرهم غارمنت من مغبّة التعرّض له... وما لبث أن خرج من القضيّة... لكن بهدوء.

بانسحاب غارمنت، أنهت الحكومة الإسرائيليّة محاولتها لحماية سيلا، ووضعت حدًّا لحياته المهنيّة. وقد بقي سيلا، الذي استقال خائب الأمل، في إسرائيل، هاربًا من وجه العدالة الأميركيّة منذ منتصف العام ١٩٩١[1].

---

١ ـ هيرش سيمور م.، خيَار شمشوم، الترجمة العربيّة، ص٢٠١، ٢١١ ـ ٢١٤.

فَضَائحُ شين بيت في ثَمَانينات القَرن العشرين

في الثّالث عشر من نيسان ـ إبريل ١٩٨٤، قام أربعة فلسطينيّين باختطاف حافلة للركّاب تعمل على الخطّ رقم ٣٠٠ بعد أن غادر المحطّة الرئيسيّة للأوتوبيسات في تلّ أبيب، متّجهًا إلى عسقلون. وقد تمكّن جنود إسرائيليّون يتمركزون في موقع على الطريق من إصابة إطارات الحافلة بطلقات ناريّة، ما اضطرّها إلى التوقّف في قطاع غزّة على مسافة أقلّ من ستّة أميال عن الحدود المصريّة. وقام عدد كبير من رجال شين بيت ومن رجال البوليس بمحاصرة الأوتوبيس، وحضر "أفراهام شالوم" رئيس شين بيت بنفسه إلى موقع الحادث. وهرع معظم الصحافيّين بسيّاراتهم إلى الجنوب الفلسطينيّ سعيًا وراء قصّة مثيرة. غير أنّ الرقابة العسكريّة قد منعت نشر أيّ شيء عن دراما رهائن الحافلة. وسرعان ما انتشرت الشائعات وسط آلاف المندوبين الذين كانوا يتجمّعون في مؤتمر كتلة ليكود في شمال تلّ أبيب حيث كان الصراع على أشدّه بالنسبة لزعامة ليكود. وكان إذذاك إسحق شامير رئيسًا للوزراء. إلاّ أنّ منافسَي شامير داخل الحزب وهما "ديفيد ليفي" و"إرييل شارون"، قد رفضا الاعتراف به كزعيم لليكود، وأدرك شامير أنّ نتائج الانتخابات الداخليّة التي كان من المقرّر أن تجري في ذلك المؤتمر سوف تحسم الصراع. وعندما أُبلغ شامير بعمليّة اختطاف الحافلة، فبالرغم من جديّة الموقف والقلق الطبيعيّ الذي أبداه بشأن ركّاب الحافلة، إلاّ أنّه أحسّ بنوع من الارتياح، فقد كان على ثقة من أنّ قوّات الأمن، من جيش وشين بيت، ستهزم الفدائيّين، وأنّ النتيجة السياسيّة ستكون لصالحه. ودعم الحادث اعتقاد شامير بأنّه لا ينبغي تقديم تنازلات لجيران إسرائيل العرب، وبالطبع عدم تقديم تنازلات لمنظّمة

التحرير الفلسطينيّة لأنّ هذا لن يؤدّي إلاّ إلى تشجيع "الإرهاب"، على حدّ التعبير الإسرائيليّ.

عندما رمق رئيس شين بيت أفراهام شالوم الحافلة واقفة دون حراك، فكّر في أنّ لدى الجيش والبوليس وحدات مدرّبة خصيصًا لاجتياح كلّ أنواع المركبات التي تتعرّض للاختطاف، وإنقاذ الرهائن. واعتبر شالوم أنّ مهمّة شين بيت ستقتصر على استجواب المهاجمين العرب واكتشاف شركائهم ومصادر أسلحتهم وتمويلهم.

تحوّلت المنطقة الرمليّة على طول الطريق إلى غزّة خليّة نحل، وحوّلت الأضواء الكاشفة العملاقة ليل المنطقة إلى نهار، بينما اختلط الجنود المسلّحون مع رجال البوليس ورجال شن بيت بملابسهم المدنيّة. وسلّط عشرات المصوّرين الصحافيّين مزيدًا من الأضواء بوميض كاميراتهم. وعلى مسافة قصيرة وقفت الحافلة الإسرائيليّة تحت سيطرة أربعة من الفلسطينيّين المسلّحين. وكان في مكان الحادث شالوم وكبار ضبّاط الجيش ووزير الدفاع "موشي أرينز"، قبل الفجر بساعات، ولم يستطيعوا إخفاء الشعور بغياب النظام. وكان ذلك أمرًا تقليديًّا بالنسبة لأيّ حادثة هامّة في إسرائيل. فهناك الكثيرون جدًّا من الناس الذين يتحرّكون في غير نظام من أجل القيام بمهمّة. وعلى الرغم من وجود ثقة كبيرة، إلاّ أنّه بدا أنّ السلطات ستشقّ طريقها إلى النجاح بطريقة الارتجال وليس بواسطة اتّباع خطّة محكمة منظّمة.

وسط حشد المسؤولين والعملاء الذين قدموا أساسًا بدافع من الفضول يعادل رغبتهم في مدّ يد المساعدة، كان المتخصّصون في مكافحة الإرهاب يجمعون أكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة عن المختطفين، وأسلحتهم، والمواقع المحتملة للمتفجّرات على متن الحافلة. ولم يكن هناك أدنى تفكير في الانصياع لمطالب المختطفين الذين طلبوا الإفراج عن زملائهم الفدائيّين من السجون الإسرائيليّة. لكن لم يكن بمقدورهم

النجاح، فبعد تجميع كافّة البيانات الضروريّة بمساعدة أجهزة الرؤية الليليّة ومعدّات التنصّت، عرفت القوّات الإسرائيليّة أنّ الفدائيّين لا يحملون سوى أسلحة خفيفة ليس بينها مدفع رشّاش واحد، فقد كانوا هواة. واستعدّ جنود الكوماندوس المحترفون الإسرائيليّون، وأعطيت لهم إشارة الهجوم، وحطّموا في خلال ثوان العديد من نوافذ الحافلة، وأصبحوا بداخلها، وفتحوا نيران أسلحتهم على الفور، وقتلوا اثنين من الفدائيّين وجرحوا الإثنين الآخرين. وتمّ تحرير الرهائن رغم أنّ سيّدة عمرها ٢٢ عامًا لقيت مصرعها في مقعدها، وأصيب ركّاب آخرون بجروح طفيفة.

عادت قوّات الكوماندوس بسرعة إلى قاعدتها مع الحفاظ على السريّة كجزء من الغموض المحيط بها، وقامت هذه القوّات بتسليم الفدائيّين المصابين إلى وحدة أخرى من الجيش وإلى محقّقي شين بيت.

بعد بضع ساعات، صاح "أليكس ليباك"، المصوّر الفوتوغرافي في جريدة "حاداشوت" الجديدة، عندما سمع بيانات الجيش في الإذاعة قائلاً: "... لكنّ هذا لا يمكن أن يكون!".

كان المتحدّث الرسميّ قد أعلن في البداية أنّ اثنين من الفدائيّين قتلا، وجُرح آخران. وبعد ساعة تمّ تصحيح البيان ليتمّ إعلان أنّ مختطفي الحافلة الأربعة قد قتلوا في خلال هجوم وحدة الكوماندوس. وقد ذُهل المصوّر الصحافي لأنّه شاهد بنفسه الهجوم وعمليّة إطلاق النار، وهو يتذكّر جيّدًا جثّتي المختطفين المتفحّمتين جرّاء اشتعال النار خلال القتال، ولكنّه رأى أيضًا كيف قام الجنود ورجال آخرون بملابس مدنيّة بضرب الفدائيّين الآخرَين المجروحَين بقبضاتهم وبأعقاب بنادقهم. بل إنّه تذكّر حتّى نظرات الرعب في عيون الفلسطينيّين وهو يهرع إلى ستوديو التصوير في جريدة حاداشوت لتحميض الفيلم، ولم يبذل ليباك جهدًا كبيرًا للعثور على الصورة التي يبحث

عنها، وبالفعل فقد وجدها، وكانت تظهر رجال الأمن وهم يقودون أحد المختطفين لاستجوابه.

سأل "يوسي كلاين" رئيس تحرير الصحيفة مصوّر جريدته: "هل أنت متأكّد؟". وشعر بالدهشة عندما أراه ليباك الصورة، وحكى له عمّا شاهده، وأجابه المصوّر: "نعم... ألف في المئة".

يقول دان رافيف ويوسي ميلمان في كتابهما "أمراء الموساد": الأمر الذي كان غريبًا بالفعل، هو أنّ وزارة الدفاع نفسها بدت غير واثقة تمامًا بما حدث ليلة ١٣ ـ ١٤ نيسان ـ إبريل ١٩٨٤. فقد عيّن وزير الدفاع موشي آرينز لجنة داخليّة للتحقيق برئاسة الميجور جينيرال "مائير زوريا" من احتياطي الجيش، وهو رجل سجلّه مشرّف وحافل. واتّصل المتحدّث باسم آرينز "نيحمان شاي" بمكتب الرقابة العسكريّة، وطلب إليهم عدم نشر أيّ تقرير حول هذا الموضوع المثير للجدل. واتّصل الرقباء وشاي نفسه بجميع الصحف وعديد المراسلين الأجانب في إسرائيل لإبلاغهم بأنّ أيّ مقال حول حادث اختطاف الحافلة لا بدّ من أن يقدّم لمكتب الرقابة العسكريّة. وكان الطلب واضحًا: فأيّ مقال، أو تقرير، أو إرسال إذاعيّ أو تلفزيونيّ سيتمّ حظره. وتمثّل تفسير هذا القرار في أنّ أيّ إشارة إلى أنّ اثنين من الفدائيّين قد أُلقي القبض عليهما حيّين، ثمّ قُتلا في ما بعد، وهما في الأسر، يمكن أن تؤدّي إلى موت السجناء الإسرائيليّين الذين تحتجزهم الجماعات الفدائيّة الفلسطينيّة. غير أنّ يوسي كلاين رئيس تحرير جريدة حاداشوت شعر أنّ وراء هذا السبب المعلن عوامل أخرى تهدف إلى حرمان الرأي العام الإسرائيليّ من معرفة الحقيقة. وقد لفت انتباهه صورة ليباك الدراميّة منشورة في صدر الصفحة الأولى من حاداشوت وتحتها موضوع إخباريّ مقتضب مفاده أنّ وزارة الدفاع قد شكّلت لجنة تحقيق لبحث الظروف المحيطة بالحادث، في تحدّ سافر لقرار

الرقابة العسكريّة. وتقليدًا لصحيفة حاداشوت، التي دفعها للنشر شهيّتها المفتوحة للأخبار المثيرة من أجل المزيد من التوزيع، نشرت الصحف الأخرى تفاصيل القضيّة. وكان ردّ فعل آرينز وزير الدفاع عنيفًا، حيث استخدم سلطته القانونيّة لمعاقبة صحيفة حاداشوت عن طريق إغلاقها لمدّة أربعة أيّام.

ويشير الباحثان إلى أنّ تلك كانت المرّة الأولى التي يتمّ فيها إغلاق جريدة عبريّة منذ إغلاق صحيفة الحزب الشيوعيّ "كول هاعام" في عام ١٩٥٢، وذلك بالطبع باستثناء الإجراءات الإداريّة ضدّ الصحف العربيّة في القدس الشرقيّة والضفّة الغربيّة المحتلّة. وقد أدّى التصرّف العنيف تجاه صحيفة حاداشوت إلى دعم الشكوك بأنّ الرواية التي نشرتها دقيقة.

في الرابع والعشرين من الشهر التالي أيّار - مايو قدّمت لجنة زوريا تقريرها إلى وزير الدفاع، معلنة بوضوح أنّ اثنين من الفدائيّين قد أُخرجا حيّين من الحافلة، وبدا أنّه من الضروريّ البدء في التحقيق حول من قام بقتلهما. وقد كان تقرير زوريا سريًّا، ولم يتمّ تسريبه إلى الصحافة، ولكن تمّ إرساله إلى البوليس وإلى المدّعي العام "زامير"، ولمدّعي الدولة، وللبوليس الحربيّ.

وفيما بدا أنّ مسألة مقتل اثنين من الفدائيّين الفلسطينيّين في ظروف غامضة قد طواها النسيان، بعد أن أسفرت الانتخابات العامّة التي جرت في حزيران - يونيو ١٩٨٤ عن طريق مسدود، حيث تعادلت كفّتا ليكود والعمل، واضطر الحزبان إلى تشكيل حكومة ائتلافيّة مع تبادل منصب رئيس الوزراء بينهما دوريًّا بطريقة غير مألوفة، وقد تولّى شيمون بيريز منصب رئيس الوزراء في الدورة الأولى... شهد رجال شين بيت أمام لجنة زوريا أنّهم تسلّموا الفدائيّين من الجيش وهما في حالة سيّئة من شدّة الضرب الذي تعرّضا له إلى درجة لم تسمح لهم باستجوابهما. وأضافوا أنّ

الفدائيَّين ماتا بعد مدّة قصيرة من جرّاء الضربات التي ألحقت بهما. وتُعدّ تلك إشارة واضحة إلى مسؤوليّة الجيش عن مقتل الرجلين.

مال فريق التحقيق برئاسة مدّعي الدولة "يونا بلاتمان" إلى تصديق رواية شين بيت، وفي حزيران ـ يوليو ١٩٨٥، اتّهم بلاتمان البريغادير جنرال "إسحق موردخاي" قائد الجيش المسؤول عن عمليّة اقتحام الحافلة، بأنّه يتحمّل مسؤوليّة موت الفدائيَّين. ومثل موردخاي أمام محكمة عسكريّة، ولم ينكر أنّه ضرب الفدائيَّين بحافة مسدّسه، ولكنّه أوضح أنّه فعل ذلك من أجل احتياجات الاستخبارات الميدانيّة ليكتشف على وجه السرعة ما إذا كان قد تمّ زرع قنابل على متن الحافلة أم لا. وأضاف موردخاي في دفاعه قائلا: "وعلى أيّ حال، فإنّني عندما تسلّمت الفدائيَّين كانا في حالة سيّئة بالفعل". ووافقت المحكة العسكريّة على أقواله ومفادها أنّه وقت إرغام الفدائيَّين على الخروج من الحافلة بالقوّة، فإنّهما كانا ميتَين من الناحية العمليّة متأثّرين بجراحهما.

... وتمّت تبرئة ساحة الجنرال. وبناء على الأدلّة المتوافرة، أوصى بلاتمان والمدّعي العام زامير بمحاكمة اثنين من العاملين في شين بيت بتهمة ضرب الفدائيَّين. وسرعان ما تمّت تبرئة ساحة هذين الإسرائيليَّين أيضًا بعد محاكمة داخليّة في شين بيت، فالوكالة لديها محكمة نظاميّة خاصّة بها، تتألّف من ثلاثة أعضاء، أحدهم من شين بيت، والثاني من الموساد، والثالث قاضي محكمة فرعيّة يتولّى رئاسة المحكمة السريّة الخاصّة. وتنعقد هذه المحكمة عندما يوجَّه اتّهام لأحد رجال شين بيت بمخالفة القواعد العسكريّة السلوكيّة داخل الوكالة. والمحكمة معروفة بحزمها وشدّتها في التعامل مع أبسط المخالفات. فرجال شين بيت الذين يُضبطون وهم يستغلّون مناصبهم لمصالح شخصيّة يتمّ إعفاؤهم من الخدمة. فعلى سبيل المثال، يحاكم ويصرف من الخدمة كلّ من يكذب أو يتوانى عن تقديم التقارير الوافية إلى رؤسائه، ونادرًا ما

أعطيت فرصة ثانية لمن يخالف التعليمات. والهدف من ذلك هو خلق علاقات عمل على أساس من الثقة المتبادلة والتقارير الدقيقة، وفي ذلك نجحت شين بيت. غير أنّ مسألة التقارير لم تكن بالممتعة عادة، فالكلّ داخل شين بيت يعرف أنّه لا بدّ من القيام بجهود تثير الشكوك، وحيل قذرة، وإلاّ كيف يمكن حماية الدولة وسط كلّ التحدّيات والمخاطر في الشرق الأوسط؟ وقد أوضح رؤساء شين بيت لرجالهم دائمًا أنّه مهما كانت الظروف خطيرة أو مزعجة، يتعيّن عليهم تقديم تقارير حقيقيّة وكاملة إلى قيادتهم، وكانت القاعدة داخل شين بيت هي: أنّ طبيعة العمل تحتّم الكذب على العالم الخارجيّ، لكنّ الصراحة التامّة لا بدّ وأن تكون أساس التعامل مع الرؤساء في الداخل.

غير أنّ قضيّة الحافلة قد برهنت أنّ هذا توقّع مستحيل، فالشخص الذي سُمح له بالكذب في ظروف معيّنة، سوف يسمح لنفسه بالكذب في ظروف أخرى أيضًا... وهذا ما حدث مع ثلاثة من كبار العاملين في شين بيت وهم: "روفين هازاك" نائب شالوم، و"بيليغ راداي" رئيس إدارة الأمن، و"رافي مالكا". وعلى الرغم من أنّ هؤلاء كانوا في الأربعينات من أعمارهم، وشالوم رئيس شين بيت في الخمسينات، إلاّ أنّ الثلاثة كانوا يعتبرون بمثابة "أطفال إريبل" الين يعملون بهَدي من روح "يهودا إريبيل" المعادية للعمل الفدائيّ، وبعد نجاح ملحوظ في محاربة الفدائيّين، انهزم "أطفال إريبيل" بفعل قضيّة اختطاف الحافلة. فقد اكتُشف أنّ شالوم كان أمر هازاك وراداي ومالكا بالإدلاء بشهادات زور أمام المحكمة الداخليّة للوكالة. فقد كانوا مستعدّين لفعل أيّ شيء، بما في ذلك الكذب وتلفيق الوثائق وإخفاء الأدلّة... لكنّ مخالفة النظام الداخليّ أخذت تثقل ضمائرهم.

ذهب الرجال الثلاثة إلى شالوم طالبين توضيح كامل الأسباب التي دعته إلى إصداره مثل هذه الأوامر إليهم، وعندما لم يرضهم إيضاح شالوم، ضغطوا عليه لكي

يقدّم استقالته. غير أنّ شالوم رفض الاستقالة، لكنّه سمح لروفين وهازاك بمقابلة بيريز رئيس الوزراء. وقد كان اللقاء قصيرًا وباردًا، فلم يرغب بيريز في أن يصدّق ما يقوله هازاك، خاصّة وأنّه سمع مقدّمًا من شالوم أنّ هازاك يقوم بعمليّة صراع على السلطة من أجل الحصول على منصب رئيس شين بيت. وكان بيريز قلقًا أيضًا بشأن الآثار السياسيّة الضمنيّة، فهذه القضيّة ترجع إلى عهد كان فيه إسحق شامير رئيسًا للوزراء، وتولّى خلاله موشي آرينز منصب وزير الدفاع. والآن، وقد أصبح الجميع داخل الحكومة الائتلافيّة، فإنّ قيام بيريز بمساندة هازاك يمكن أن ينسف التحالف الائتلافيّ. فمن الممكن تصوّر أنّ شالوم كان يعمل بعلم شامير، والصراع السياسيّ الداخليّ استنادًا إلى فضائح المخابرات مثل فضيحة "لافون" في مصر قبل ثلاثة عقود، لم يجلب أيّ نفع على أيّ من الساسة المتورّطين فيها. لذلك من الأفضل أن تبقى هذه الأمور سرًّا طيّ الكتمان. كما كانت هناك أسباب عديدة دفعت بيريز إلى تصديق ادّعاء شالوم بأنّ هازاك يريد شنّ تمرّد داخل شين بيت.

قام شالوم مستندًا إلى دعم رئيس الوزراء بتصفية معارضيه الثلاثة. لكنّ شالوم أخطأ في اعتقاده أنّ ملفّ القضيّة قد أُقفل، فرجال شين بيت الثلاثة مضوا قدمًا في صراعهم وذهبوا إلى المدّعي العام الجنرال زامير في نهاية عام ١٩٨٥، وزوّدوه بتفاصيل يقف لها شعر البدن حول عمليّات الكذب والتغطية والتستّر.

إنقسمت شين بيت على الفور إلى معسكرين، أولئك الذين يؤيّدون شالوم، وهؤلاء الذين يدعمون المتمرّدين الثلاثة. ولم يكن من السهل الابتعاد عن هذا الصراع الذي يمسّ كلّ فرد تقريبًا في الوكالة السريّة. وبرزت على السطح انشقاقات بين الأخلاقيات والوصوليّة، بين العواطف والمنطق، وبين الولاء والوطنيّة العليا. وفي الوقت نفسه، أقام رافي مالكا دعوى إلى المحكمة العليا اتّهم فيها شالوم بوقفه عن العمل ظلمًا.

وفي مقرّ قيادة شين بيت في تلّ أبيب، أصبح الجميع يتحدّث عن القضيّة، وكأنّه لا يوجد عمل غير الحديث عن هذه المسألة. وتطايرت الشائعات الفاسية من كلّ نوع في جميع الاتّجاهات، وبدأت الاحتجاجات المدفونة لسنوات تعلو أصواتها، وتجد طريقها حتّى إلى الصحافيّين الذين لم يتمكّنوا من نشرها بسبب الرقابة على الصحف. ومن بين هذه الحكايات التي شاعت، واحدة تلمّح إلى وجود امرأة خلف هذه الفضيحة المتشعّبة بطريقة غير مألوفة. وأشيع أنّ أحد المتمرّدين الثلاثة كان على علاقة حميمة بمدّعية عامّة إسرائيليّة رفيعة المستوى، دفعته إلى تقديم شكوى إلى المدّعي العام. فلم يكن الجدل إذن يتعلّق بكيفيّة معاملة الفدائيّين بعد القبض عليهم، بل كان يتعلّق بالقيادة، والأخلاق، والثقة. ولم تشهد شين بيت حربًا داخليّة بمثل هذا العنف والشراسة.

هزّت جدّيّة الاتّهامات المطروحة زامير، الذي كان عميدًا لكليّة الحقوق في الجامعة العبريّة في القدس، قبل أن يعيّن في عام ١٩٨١ كمدّع عامّ وكمستشار قانونيّ للحكومة. وتوجّه زامير إلى بيريز وأخبره بما سمعه وأبلغه أنّه يعتزم تقديم الأدلّة والوثائق إلى البوليس لإجراء تحقيق رسميّ. وقد صُدم بيريز، ليس بسبب الأدلّة التي سمعها، لكن من جرّاء اعتزام المدّعي العام المضيّ قدمًا لكشف عمليّات الكذب والتستّر. وحاول رئيس الوزراء أن يوضّح لزامير أنّ تحقيق البوليس في الفضيحة سيلحق ضررًا جديًّا بالأمن القوميّ. وكحلّ وسط، اقترح زامير أن يستقيل شالوم على الفور، لكنّ شالوم وبيريز رفضا الاقتراح مباشرة. ثمّ عقد بيريز اجتماعًا عاجلاً مع شامير نائب رئيس الوزراء، ومع إسحق رابين وزير الدفاع. وقرّر هؤلاء الرجال الثلاثة المعروفون باسم "نادي رؤساء الوزارة" بحكم خبرتهم جميعًا في ذلك المنصب الرفيع، أن يفعلوا ما في وسعهم لوقف زامير عن المضيّ قدمًا في ما يعتزمه.

ويقول مراقبون إنّه لم يكن هناك أحد داخل الحزبين الرئيسيَّين: العمل وليكود، يرغب في رؤية شين بيت تتمزّق، وعند الصراع بين الديمقراطيّة والأمن القوميّ، فإنّ الزعماء الإسرائيليّين اختاروا الدفاع عن وكالة الأمن الداخليّ، شين بيت، وليس الدفاع عن القيم الديمقراطيّة.

كان "أعضاء النادي" الثلاثة يعرفون أنّ المدّعي العام قد طلب، قبل شهور، إعفاءه من منصبه لأسباب لا تتعلّق بقضيّة الحافلة، فقد كان يريد التقاعد من العمل الحكوميّ. فقرّر بيريز وشامير ورابين أنّه يتعيّن عليهم التعجيل باستقالة زامير، دون إثارة أيّ ضجّة، وبالتالي يمكن أن يعيَّن مدّعيًا عامًّا "أكثر مسؤوليّة". ولكنّه لم يكن للنادي أن يصل إلى مأربه بسهولة هذه المرّة، رغم أنّه اعتاد التصرّف على أنّه حكومة داخل الحكومة، وكان الساسة الثلاثة يتّخذون أقسى القرارات وحدهم، فالوقت كان قد فات لمنع فضيحة بدأت بالفعل. وفضّل زامير إرجاء رحيله المزمع، ليتمكّن من متابعة قضيّة شين بيت، فلم يكن يرى أيّ تناقض بين الحكم الديمقراطيّ للقانون وبين الأمن القوميّ. فعلى العكس من ذلك، كان يرى أنّ أيّ محاولة للتستّر وتغطية الأمور لا يمكن سوى أن تلحق الضرر بإسرائيل.

في ١٨ أيّار - مايو ١٩٨٦، قدّم زامير شكوى رسميّة إلى البوليس، ليجبره على التحقيق في الاتّهامات والاتّهامات المضادّة داخل شين بيت. وتحوّل آنذاك مجرى الأحداث الخاصّة وحتّى حديث الصحافة العامّة من التلميح إلى "حادث الحافلة"، إلى الحديث عن "عمليّة شين بيت". وبعد بضعة أيّام من بدء البوليس التحقيق، أذاعت التلفزة الإسرائيليّة المملوكة من قبل الدولة تقريرًا مقتضبًا عمّا أسمته "تحقيقًا يؤثّر على شين بيت". وبسبب نظام الرقابة الذي تفرضه أمان، لم تستطع النشرة الإخباريّة المتلفزة ذكر أسماء ضبّاط المخابرات المعنيّين. وبدلاً من ذلك، أشارت النشرة

الإخباريّة إلى "مسؤول كبير" وإلى "القضيّة" التي تعيد للأذهان عمليّة "لافون" في خمسينات القرن العشرين. ومرّة أخرى، لم يفهم تلك التلميحات سوى أولئك الذين على علم بالفضيحة، أمّا الجمهور العامّ فقد ظلّ في شبه ظلام دامس.

لقد أفلتت الحقيقة من عقالها عارية على بشاعتها عندما برهن نظام الرقابة في إسرائيل على عدم فعاليّته. فقد انتهكت شبكة التلفزة الأميركيّة ABC قواعد تلك الرقابة وذكرت إسم أفراهام شالوم بوصفه "المسؤول الكبير" الذي سبقت الإشارة إليه، إذ ذكرت أنّه متّهم بإصدار الأوامر بقتل الفدائيّين الفلسطينيِّين، وأن الحكومة تحاول التستّر على القضيّة بأسرها على الرغم من المواقف التي يتّخذها المدّعي العامّ الإسرائيليّ. ولأنّ الشعب الأميركيّ أصبح يعرف الكثير عن القضيّة، فقد اضطرّت الرقابة في إسرائيل أن تسمح للصحف الإسرائيليّة بإعادة نشر ما أُذيع في الولايات المتّحدة، وتردّد إسم شالوم على الملأ وانكشفت بذلك هويّة أحد قادة شين بيت.

أخذ التحقيق مسارًا يثير الدوار، حيث استجوب البوليس على مضض رجال شين بيت المتورّطين ومن بينهم شالوم، بالإضافة إلى الوزراء الذين كانوا في السلطة وقت اختطاف الحافلة ومن بينهم شامير وآرينز. وألمح شالوم، الذي قرّر الدفاع عن نفسه، إلى أنّه كان يتصرّف بمقتضى سلطة شامير رئيس الوزراء... لكنّه عندما شاهد الأدلّة تتصاعد ضدّه، وأنّ هناك فرصًا حقيقيّة لتوجيه تهمة القتل إليه، دبّر اجتماعًا ليليًّا سريًّا في ٢٣ حزيران - يونيو لمجلس الوزراء بأسره. وبناء على توصية من نادي "رؤساء الوزارة"، أقرّت الحكومة قرارًا لم يسبق له مثيل، وهو صرف كلّ من رئيس شين بيت والعاملين الثلاثة المتمرّدين من الخدمة، وفي إطار الصفقة تقرّر التجاوز عن محاكمة أحد عشر عضوًا آخرين من رجال شين بيت والعفو عنهم. كما عيّنت الحكومة لجنة تحقيق من ثلاثة مدّعين حكوميّين برئاسة "يهوديت كارب" للتحقيق في تفاصيل قضيّة

شين بيت. وكان شالوم والآخرون يتمتّعون بحصانة تحول دون مقاضاتهم، وكان ذلك من حسن حظّهم بالنظر إلى الأمور غير القانونيّة التي كشفت عنها لجنة "كارب".

في نهاية كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٨٦، نشرت اللجنة تقريرها الذي أشادت فيه بـ"هازاك"، و"راداي"، و"مالكا"، لإدلائهم بشهاداتهم، وأعلنت بحزم أنّ المتمرّدين الثلاثة قد قالوا الحقيقة، وأنّ رئيس شين بيت قد كذب وأمر معاونيه بالكذب، وأنّه ضلّل ثلاث عمليّات سابقة قام بها "زوريا" و"بلاتمان" ومحكمة شين بيت، وقرّرت اللجنة أيضًا أنّ هازاك وراداي ومالكا علموا بقرار شالوم بالكذب على زوريا ولجنة بلاتمان.

وتبيّن أنّه في محاولة للتستّر على الموقف، تمكّن رئيس شين بيت من أن يشرك أحد رجاله في لجنة زوريا للتحقيق. ولم تظهر نيّة شالوم الحقيقيّة في هذا الصدد إلاّ عندما نشرت لجنة كارب تقريرها. وكشف هذا التقرير أنّ ممثّل شين بيت في لجنة زوريا، وهو "يوسي جينوسار"، كان بمثابة حصان طروادة بالنسبة إلى شالوم، حيث أخبره باتّجاه لجنة التحقيق، كما قام بالتأثير على اللجنة للتوصّل إلى نتائج يرغبها رئيس شين بيت. وقد قام جينوسار بمهمّته بمنتهى الولاء لشالوم، فغيّر بعض الأدلّة، وأخفى وثائق ومستندات أخرى، وفعل كلّ ما في وسعه لضمان تغطية الموقف تغطية كاملة. وقبل كلّ جلسة للجنة، كان يلتقي برجال شين بيت المقرّر أن يمثلوا أمام اللجنة، ويلقّنهم ما ينبغي عليهم أن يقولوه، ويعمل على ألاّ تتعارض شهاداتهم مع بعضها البعض.

لقد كان جينوسار يتطلّع إلى أن يعاونه شالوم في أن يصبح الرئيس التالي لوكالة شين بيت. واسترشادًا بجينوسار، وجّهت لجنة زوريا اللوم، في ما يتعلّق بمصرع الفدائيّين الفلسطينيّين، إلى الجنرال موردخاي. وهكذا فإنّ تبرئة شالوم جاءت على حساب تلويث إسم ضبّاط الجيش المرموقين. فلقد أراد شالوم أن يرى موردخاي وقد

أدين، على الرغم من أنّ الشخص الذي أعطى التعليمات بقتل الفدائيِّين لم يكن سوى شالوم ذاته. وكانت الحقيقة كما كشفها تقرير لجنة كارب، أنّ مختطفي الحافلة المصابَين تمّ نقلهما إلى شين بيت لاستجوابهما، ثمّ تمّ قتلهما. وبرّرت هيئة الإدّعاء في شين بيت، التي تورّطت في عمليّة التستّر، مسلكها بأنّها قد حاولت حماية واحد من أخطر أسرار الوكالة.

وفي دفاعه، واصل شالوم ادّعاءه بأنّه تصرّف ببساطة بناء على السلطة التي فوّضها له رئيس الوزراء. ووفقًا لأقواله، فإنّه التقى إسحق شامير في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٨٣، قبل خمسة شهور من حادث اختطاف الحافلة، وفي خلال اللقاء نوقشت كيفيّة التعامل مع الفدائيّين المحتجزين عامّة دون الإشارة إلى حادث بعينه. وادّعى شالوم بالتحديد أنّ آرينز وزير الدفاع قد صرّح بقتل الفدائيّين المصابين. غير أنّ آرينز أنكر ذلك على نحو قاطع، في حين اعترف شامير رئيس الوزراء بحديثه مع شالوم، ولكنّه أنكر أن يكون قد أمر رئيس شين بيت بعدم احتجاز أسرى.

إختارت لجنة كارب أن تصدّق رئيس الوزراء ووزير الدفاع. وذكرت بوضوح في تقريرها أنّ ليلة اختطاف الحافلة، لم يتلقّ شالوم من رئيس الوزراء أيّ أوامر في ما يتعلّق بكيفيّة معاملة الفدائيِّين. وكنتيجة لهذا التقرير، تقرّر إحياء الممارسات التي كانت تتمّ في عهد رئاسة غولدا مائير وإسحق رابين للحكومة، والتي توجب أن يتمّ لقاء بين رئيس الوزراء وقادة وكالات المخابرات في حضور كاتب لتسجيل وقائع اللقاء. ومن المعروف أنّ أحدًا لم يشهد حديث شامير ـ شالوم في عام ١٩٨٣.

هزّ تقرير لجنة كارب الرأي العام الإسرائيليّ وزعزع ثقته في مؤسّسة المخابرات. فبعد سنوات عديدة لم يسمع فيها الشعب الإسرائيليّ عن شين بيت، شعر العديد من المواطنين أنّ رئيس أمن دولتهم قد تصرّف بأسلوب أسوأ من أيّ أسلوب

تسلكه أيّ دولة ديكتاتوريّة. ووفقًا للتقارير التي نشرتها الصحف الإسرائيليّة فإنّ شالوم تصرّف وكأنّه فوق القانون. وفي عيون العديد من الإسرائيليّين فإنّه كان من الممكن التجاوز عن مسلك شالوم لو كانت التهمة الموجّهة إليه تتعلّق بقتل الفدائيّين الفلسطينيّين فقط، ولكنّ عمليّة التستّر كما وصفتها الصحف تخطّت كلّ الحدود التي يمكن تقبّلها. وكما حدث في عمليّة لافون الإسرائيليّة، وفضيحة ووتر غيت الأميركيّة، فإنّ المادّة القابلة للانفجار لم تكن في العمل بحدّ ذاته بل في محاولة التستّر التي تبعته. وكما فهم أغلب الشعب، فقد بدا الأمر وكأنّ ذوي المناصب العليا في شين بيت قد تآمروا ضدّ رؤسائهم من الساسة وضدّ الرأي العام. وكان من الممكن احتواء الأزمة لو اعترفت إحدى الشخصيّات الرئيسيّة بأنّها هي التي أعطت الأوامر، ولكن كان كلّ شخص داخل شين بيت يحاول أن يقذف بالمسؤوليّة وينحي باللائمة على كاهل الآخرين.

إثر تلك الفضيحة، اضطرّ أفراهام شالوم رئيس وكالة شين بيت أن يبدأ حياة جديدة كمواطن عاديّ، وعاونه رئيس الوزراء شيمون بيريز في حصوله على وظيفة مع "شاؤول أيزنبيرغ" تاجر الطائرات والأسلحة والسلع والخدمات من كلّ نوع، والذي يتّخذ من إسرائيل مقرًّا له. وتمّ إرسال شالوم إلى نيو يورك، ولكي يتجنّب أيّ دعاية غير مرغوب فيها، ذهب تحت إسمه القديم "أفراهام بندور"، وهناك استفاد من خبرته المهنيّة للحصول على العديد من العقود المرتبطة بالدفاع لصالح أيزنبيرغ.

كانت نيو يورك منفى بالنسبة لشالوم، ولم يكن العمل يثير اهتمامه بالمرّة، حيث أنّه اضطرّ للاهتمام بتفاصيل كان قد عهد بها منذ سنوات عديدة لمرؤوسيه في شين بيت. ولكن لم يكن أمامه أيّ بديل آخر، فعمليّات القتل والتستّر في شين بيت كانت ما زالت ماثلة في الأذهان، ومثيرة للحرج للغاية إلى حدّ يحول دون أن يمنحه أحد وظيفة مريحة في إسرائيل. لقد واجه شالوم الرفض من وطنه. ولم تكن لديه حريّة التصرّف

في الخارج كذلك، فقد قامت هيئة الموانئ في نيو يورك ونيو جيرسي بإلغاء عقد قيمته ٧٥ ألف دولار مع شركة إسرائيليّة تدعى "آتويل للأمن" عندما علمت الهيئة أنّ رئيس الشركة هو شالوم أو بندور، وعرفت حقيقته. وقالت هيئة الموانئ، ببساطة، إنّها لم تعد راضية عن هذا الاتّفاق.

وفي غياب أيّ تفسير من جانب شالوم نفسه لقتل المحقّقين لمختطفَي الحافلة، خرج أصدقاؤه داخل شين بيت وخارجها بمبرّراتهم الخاصّة. فادّعى أحدهم أنّها كانت خطوة محترفة في محلّها الصحيح لمكافحة العمل الفدائيّ، لأنّ المختطفين من الهواة، وكان من الصعب أن يقدّما أيّ معلومات بشأن أيّ منظّمة فدائيّة، وبالتالي لم تكن لهما قيمة بالنسبة لوكالة شين بيت، حتّى أنّ تقديمهما للمحاكمة كان أكثر ممّا يستحقّان... وفسّر آخرون القرار استنادًا إلى تورّط شين بيت ونفوذها المتعاظم في لبنان في ما بين ١٩٨٢ و١٩٨٥، حتّى قامت حكومة الائتلاف في إسرائيل بسحب قوّاتها من لبنان. فلبنان كان بمثابة الوضع الضاري الخارج على القانون، بالنسبة لوكالة شين بيت، حيث أشارت التقارير الصحافيّة إلى "جينوسار" وهو يجوب لبنان كما لو كان "مأمورًا مسؤولاً". فكانت هناك حالات تهريب وحالات خرق للوائح الجيش ولوائح وكالة شين بيت. وقد علم رجال شين بيت أنّه في الوقت الذي توجد فيه ضوابط معيّنة وقواعد للسلوك نافذة المفعول في الضفّة الغربيّة وغزّة، فإنّ الفوضى كانت هي السائدة في لبنان. وقد امتدّ سوء السلوك من لبنان إلى الأراضي المحتلّة[1].

***

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص٤٠٧ ـ ٤٢٣.

لم يجد ما نشر عن شين بيت ومشكلاتها في عام ١٩٨٧ اهتمامًا مماثلاً لما لقيه في إحدى زنزانات أحد السجون العسكريّة في وسط إسرائيل حيث كان يجلس "عزّت نافسو" غارقًا في أفكاره وحالمًا بأسرته في "كفر كاما".

كانت صحف المساء تصل إلى زنزانة عزّت نافسو مثلما كانت تصل إليه على مدى السنوات السبع السابقة. وقد سيطر الإنفعال فجأة على نافسو وشحب لونه عندما شاهد في إحدى الصحف صورة لجينوسار أحد رجال شين بيت الذين كان رئيس الدولة الإسرائيليّة "حاييم هيرتزوغ" قد عفا عنهم للتوّ، في إطار قرار مجلس الوزراء الإسرائيليّ بإنهاء الفضيحة... وكان الخبر المنشور في الصحيفة يشير إلى أنّ جينوسار قد حصل على عمل في وزارة التجارة والصناعة التي يتولاّها إرييل شارون.

صاح نافسو متعجّبًا: "هذا هو الرجل الذي استجوبني وأوقعني في هذا المأزق". وأسرع يكتب رسالة إلى محاميه قال فيها:

"لقد قلت لنفسي إنّه لو مرّ مائة عام فإنّني لن أنسى ابتسامة جينوسار الساخرة وكيف طلب منّي أن أخلع ملابسي، ثمّ بصق عليّ وبعد ذلك، عندما تمدّدت على الأرض أخذ يضربني بقدمه وينزع شعري...".

كانت تلك بداية قضيّة جديدة، لا تقلّ عن فضيحة اختطاف الحافلة، والتي لطّخت سمعة شين بيت. وكانت هذه القضيّة مرتبطة بلبنان. ولم يكن أحد يتوقّع أن تظهر فضيحة أمن من بلدة مثل بلدة كفركاما النظيفة والمزدهرة والواقعة في التلال الريفيّة بالقرب من بحر الجليل. ومعظم أعضاء أصغر أقليّة في إسرائيل يعيشون هناك، وهم بضعة آلاف من الشراكسة المسلمين غير العرب، ترجع أصولهم إلى جبال القوقاز في الاتّحاد السوفياتيّ السابق. وقد تطوّع نافسو في الجيش الإسرائيليّ، مثل أكثر الشباب

في مجتمعه، وكان يشعر بالفخر لأنّه وصل إلى رتبة ملازم. وفي عام ١٩٧٦، قبل الغزوات الإسرائيليّة للبنان في ١٩٧٨ و١٩٨٢، تمّ إرساله إلى جنوب لبنان، على مسافة لا تزيد عن ثلاثين ميلاً عن بلدته كفركاما، ولكنّها خارج حدود الأراضي الإسرائيليّة. وكتب نافسو في مذكّراته يقول: "لم تكن لديّ مهمّة محدّدة، وكان ذلك في الأيّام الأولى لتورّط إسرائيل في المنطقة، وشاركت في جميع أنواع مهامّ المخابرات دون أيّ اطّلاع مسبق، فلم أحصل على أيّ تدريب متخصّص، أو يتمّ تحذيري بالإحتياطات المعيّنة الواجب اتّخاذها في مثل هذه الحالة، وكانت مهمّتي تتطلّب أن أعيش بين اللبنانيّين وكثير منهم مخبرون...".

إستخدم نافسو في مذكّراته كلمة عبريّة مقتبسة من الكلمة الإنكليزيّة Stinker أي "شخص حقير وجدير بالإزدراء" لوصف العملاء والمخبرين غير الهامّين الذين كانت المخابرات الإسرائيليّة تستخدمهم من بين عرب إسرائيل والدول الأخرى. وكتب الملازم الإسرائيلي ـ التركماني يقول إنّ وظيفته تلخّصت في إمداد المتعاملين مع إسرائيل في جنوب لبنان بالذخائر والأسلحة والإمدادات الطبيّة بوصفهم ممّن يعارضون الفلسطينيّين. ونتيجة وعيه وحساسيّته تجاه العداوات الدينيّة والتاريخيّة المعقّدة في لبنان، أطلق نافسو في مذكّراته على لبنان إسم "المكان الذي يخرب الأرواح". وأضاف في مذكّراته يقول: "كانت تصفية أيّ إنسان جسديًّا بالنسبة لي هناك أسهل من قيام المافيا بذلك في نيو يورك، ففي كلّ مكان حولي سادت وحشيّة قانون الغاب، فأينما تطلّعنا نرى أحداثًا تثير الذهول بصورة مطلقة... قتل، إنتقام.. وكانت الحياة البشريّة رخيصة تمامًا ولا قيمة لها".

وتسجّل المذكّرات حوادث لجنود وعملاء إسرائيليّين أصبحوا أغنياء عن طريق تهريب السجائر والساعات والأجهزة التلفزيونيّة وحتّى المخدّرات إلى داخل إسرائيل.

ويقول نافسو في مذكّراته: "بالنسبة لي، كان "أبو قاسم" رمزًا لكلّ هذه الأشياء. كان شخصًا حقيرًا يعمل لحساب جميع الأطراف. كان "زوربا" جنوب لبنان... داهية كالثعبان، وحاكمًا بأمره، وهو الذي قرّر مصيري".

ففي ليلة الرابع من كانون الثاني - يناير ١٩٨٠، وكانت ليلة ممطرة، أفاق نافسو على طرقات على باب منزله في كفركاما، كان ما زال شبه نائم وأخذ يسأل باللغة الشركسيّة من هناك؟ ولكن لم يردّ عليه أحد. وعندما كرّر السؤال باللغة العبريّة تلقّى الردّ، ففتح الباب ليجد صديقًا من أصدقائه، وهو "داني سنير"، الضابط في وحدته بالجيش، وطلب منه أن يرافقه في مهمّة سريّة إلى لبنان تستغرق حوالى يوم أو يومين. ووافق نافسو في الحال، وصعد إلى الطبقة العلويّة وأخذ كومة من الملابس، وقبّل زوجته "سيام" التي كان تزوّجها قبل ثلاثة أسابيع فقط، ثمّ خرج بصحبة سنير ولم يرَ نافسو بيته ثانية إلاّ بعد سبعة أعوام ونصف العام.

فبدلاً من أن يصطحب الضابط نافسو إلى وحدته العسكريّة، أخذه إلى جناح في فندق في ميناء حيفا، وهناك تعرّف على يوسي جينوسار. ولم يكن نافسو يعرف إسم الرجل الحقيقيّ آنذاك، وعومل نافسو معاملة حسنة إلى حدّ أنّه اعتقد أنّ شين بيت قرّرت تجنيده. ومع استمرار الحديث، أدرك نافسو أنّه يواجه استجوابًا، حيث ظلّ المحقّق المجهول يسأله على نحو مستمرّ عن رجل معيّن من منظّمة التحرير الفلسطينيّة كان على اتّصال بنافسو وفقًا لمعلومات شين بيت. وهنا بدأ الخوف يتسرّب إلى قلب الضابط الشركسيّ.

قال له رجل شين بيت: "عليك أن تعترف بأنّك كنت عميلاً مزدوجًا لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة. لا يمكنك أن تتلاعب بنا. نحن نعرف كلّ شيء وكنّا نتعقّبك منذ شهور..".

أنكر نافسو كلّ الاتّهامات على نحو محموم، وواصل إنكاره حتّى بعد نقله إلى سجن "كيشون" في حيفا، حيث تحتفظ شين بيت بزنزاناتها الخاصّة. وقد كتب نافسو في مذكّراته: "... بدأت أيّام وليال من التحقيق والتهديد والامتهان". وأوضح أنّ جينوسار الذي كان مجهولاً بالنسبة إليه في ذلك التاريخ كان له رئيس يطلق على نفسه إسم "باشوش". ويقول نافسو: "في إحدى المرّات دخل إلى الغرفة باشوش وادّعى أنّه نائب رئيس شين بيت، ورئيس قسم التحقيقات فيها. وهدّد بإرسالي إلى منشأة تستخدم في التحقيق مع الفدائيّين، وهدّد بحقني بمادّة تصيبني بالعجز الجنسي. وتكرّر التهديد بالحقن على نحو دائم طوال التحقيق، فكان شخص يفتح أحد الأدراج ويبدو كما لو كان يتناول حقنة". كما أشارت مذكّرات نافسو إلى أنّ محقّقي شين بيت هدّدوا باعتقال زوجته وتجريدها من ملابسها. فـ"في بعض الأحيان كانوا يأتون بمجلّة بلاي بوي وبصور النساء العاريات حتّى أستوعب الرسالة، كانوا يهدّدون أيضًا بإحضار زوجتي وإخبارها بأنّني على علاقة جنسيّة شاذّة مع أبو قاسم وأنّهم سينشرون في قريتي شائعات مفادها أنّي شاذّ جنسيًّا". وفهم نافسو أنّ القرائن ضدّه مبنيّة على شهادة أبو قاسم، وأنّ الدافع المزعوم لتعامله مع منظّمة التحرير الفلسطينيّة هو الابتزاز الجنسيّ. وكان لدى جينوسار شهود، من بينهم أبو قاسم، يزعمون أنّهم رأوه وهو يمارس الجنس مع رجال منظّمة التحرير ومع رجال الميليشيا في جنوب لبنان. وبعد التهديدات، أتى محقّقو شين بيت إلى زنزانة نافسو ولعبوا دور الرجال الطيّبين، ووعدوه بأنّهم سيسمحون له بزيارة زوجته لو أخبرهم بكلّ شيء...

ويقول باحثون إنّ السمة المميّزة لأيّ وكالة مخابرات ولوكالة شين بيت هي الموهبة في اكتشاف نقاط الضعف في الأناس الذين تتعامل معهم. وفي حالة نافسو، فإنّ نقاط ضعفه كانت زوجته ورجولته. فبوصفه عضوًا في المجتمع الشركسيّ، الذي

يحدّد بوضوح وضع الذكر، كان يخشى من المهانة التي سيعانيها إذا ما نشر المحقّقون ما يتّهمونه به.

بعد أربعين يومًا من التحقيق المتواصل، انهار نافسو، واعترف بجميع الجرائم التي اتّهم بارتكابها ومن بينها الخيانة والتجسّس ضدّ إسرائيل لصالح منظّمة التحرير الفلسطينيّة. لكن عندما بدأت محاكمته أمام محكمة عسكريّة سحب نافسو اعترافه، وادّعى أنّه اعترف تحت الضغط والتهديد. وأنكر محقّقو شين بيت ذلك بالطبع، وصدّهم القاضي، كما هو الحال في معظم القضايا النتعلّقة بوكالة الأمن. ودارت المحاكمة سرًّا ولم يُسمح حتّى لأسرة المتهم بالحضور، وبعد مداولات استمرّت سنتَين، أُدين نافسو وحُكم عليه في نهاية ١٩٨٢ بالسجن لمدّة ١٨ عامًا، وبخفض رتبته العسكريّة إلى رتبة نفر.

لم يؤمن أحد ببراءة نافسو غير أسرته ومحاميه، الذي كان مدّعيًا عامًّا عسكريًّا سابقًا. وحتّى بعد رفض العديد من طلبات الاستئناف التي قدّمها نافسو، فإنّه رفض اقتراحات قدّمها له رجال شين بيت وآخرون بأن يتقدّم بطلب للعفو، وقال إنّه يريد الحصول على حكم بالبراءة وليس على قرار بالعفو.

وأخيرًا حصل نافسو على ما أراد، بعد معاناة طويلة، وذلك في الرابع والعشرين من أيّار ـ مايو ١٩٨٧، عندما برّأته المحكمة العليا الإسرائيليّة من الاتّهامات بالخيانة والتجسّس، وألغت الحكم بالسجن عليه ١٨ عامًا، وهكذا أطلق سراحه، وتمّت ترقيته إلى رتبة رقيب، ودفع له راتبه المستحقّ منذ القبض عليه. وحكم عليه القضاة بالسجن لمدّة عامَين كان قد أمضاهما بالفعل، بتهمة عدم إبلاغه عن اجتماعاته مع أعضاء منظّمة التحرير الفلسطينيّة في لبنان. وركّز منطوق الحكم على توجيه انتقاد حادّ لوكالة شين بيت، ومحقّقيها، والأساليب التي يستخدمونها للحصول على اعترافات.

الرئيس الإسرائيلي هيرتزوغ الذي وافق على العفو عن كبار ضبّاط شين بيت أعلن أنّ قضيّة نافسو جعلته يشعر بالخجل. أمّا المدّعي العام الجديد "يوسف حريش" فتحدّى رغبات "نادي رؤساء الوزارة" ورغبات شين بيت ذاتها، وأمر بالتحقيق مع الذين حقّقوا مع نافسو. وكانت النيّة الرسميّة هي توجيه اتّهامات جنائيّة على الرغم من أنّه كان واضحًا أنّ جينوسار لن يمَسّ بعد حصوله على العفو. وتجاوبًا مع ضغط الرأي العام، كما عبّرت عن ذلك صحف ومجلاّت إسرائيل، عيّنت الحكومة لجنة تحقيق في ٣١ أيّار - مايو ١٩٨٧، برئاسة "موشي لاندو" القاضي السابق في المحكمة العليا، وكان المحقّقان الآخران إسحق حوفي الرئيس السابق للموساد، و"ياكوف مالتز" مراقب حسابات الدولة. وعلى مدى نصف عام، أخذت اللجنة تستمع إلى شهادات من رؤساء وزارات، ورؤساء شين بيت، والعاملين فيه ومستشاريه القانونيّين، وممثّلي الجمعيّة الإسرائيليّة للحقوق المدنيّة، وأيضًا مدّعين أجانب من منظّمة العفو الدوليّة.

ويقول باحثون إنّه في هذه الأثناء، ظهرت قضيّة أخرى، أكثر إثارة للقلق، في دائرة الضوء. ففي ١٩ تمّوز ـ يوليو ١٩٨٧، ألقى رجال شين بيت القبض على "عوض حمدان"، البالغ من العمر ٢٣ عامًا، والمقيم في قرية صغيرة بالقرب من بلدة طولكرم في الضفّة الغربيّة، للاشتباه في أنّه عضو في منظّمة التحرير الفلسطينيّة. وبعد يومين توفّي حمدان في زنزانته، وادّعى من حقّقوا معه أنّه مات من جرّاء إصابته بنوبة قلبيّة، لكنّ أسرته أعلنت أنّ هناك علامات على جثمانه تشير إلى تعرّضه للعنف البدنيّ. فثارت الشبهات حول قضيّة حمدان وأحاطت أيضًا بمعهد الطبّ التابع للحكومة حيث يقوم الخبراء بتحديد سبب الوفاة لكلّ من يقضي نحبه في ظروف غامضة أو تثير الشكوك في إسرائيل. وكان المعهد يتمتّع بسمعة طيّبة حتّى صدر قرار لجنة لاندو في أواخر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٨٧، ثمّ اتّضح أنّ عددًا من أطبّائه قد

شوّه الحقائق لأسباب تتعلّق بالأمن. فهؤلاء الأطبّاء هم الذين حدّدوا سبب وفاة الفدائيَّين اللذين اختطفا الحافلة، بما يتّفق مع رؤية شين بيت قدر الإمكان. كما وافقوا على أنّ وفاة حمدان نجمت عن إصابته بنوبة قلبيّة.

كان تقرير لاندو مدمّرًا، فهو تسجيل مطبوع ودليل ماديّ على مدى عمق تغلغل الفساد في شين بيت. فقد ذكر التقرير أنّه منذ ١٩٧١، وافق "يوسف هارميلين" رئيس شين بيت آنذاك، على أن يدلي العاملون في الوكالة بشهادات كاذبة أمام المحاكم الإسرائيليّة. وأشار التقرير إلى أنّ هارميلين لم يأمر رجاله بالكذب، ولكنّه تقبّل ذلك على أنّه أمر طبيعيّ وحقيقة من حقائق الحياة. وكشف لندو وحوفي ومالتز بالإجماع النقاب عن أنّ رجال شين بيت كانوا يكذبون أمام المحاكم الإسرائيليّة عادة، وبوصف ذلك أمرًا طبيعيًّا، على الرغم من أنّ القانون الإسرائيليّ يعاقب من يدلي بشهادة زور بالسجن لمدّة سبع سنوات. فقد وضع رجال شين بيت أنفسهم فوق القانون.

ويذكر باحثون أنّ القرار بالكذب قد نبع من الزيادة السريعة والمفاجئة والكبيرة في الأعمال الفدائيّة التي أعقبت استيلاء إسرائيل على الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة. ومع ازدياد الأعمال الفدائيّة، شعر محقّقو شين بيت أنّه لا بدّ لهم من استخدام الضغوط النفسيّة وبعض ألوان التعذيب لإكراه الموقوفين على الاعتراف.

بدأت شين بيت في القيام بمهمّة الحصول على معلومات وقائيّة لإعطاء تحذير مبكّر بقدر الإمكان حول أي هجوم فلسطينيّ محتمل، إلاّ أنّ أساليب شين بيت قد تجاوزت القانون. ولم تكن مئات المحاكمات التي أجريت للفدائيّين تزيد عن محاكمات عسكريّة صوريّة، يتلو خلالها المدّعون العسكريّون ببساطة وبصوت عال الاعترافات التي حصلت عليها شين بيت، وعندما كان المتّهمون يدّعون أنّهم تعرّضوا للتعذيب والإكراه للإدلاء باعترافات زائفة كان القضاة العسكريّون يقبلون إنكار شين بيت

لحدوث ذلك. واستمرّ نموذج الكذب ونمط التزوير على مدى ستّة عشر عامًا، طوال رئاسة كلّ من أفراهام أحيتوف، وأفراهام شالوم، لوكالة شين بيت. وقد ذكر تقرير لاندو أنّ شالوم أرسى تقليدًا في شين بيت يستند إلى شهادة الزور، وتوارثت أجيال الوكالة التقليد. ونقل التقرير عن شالوم قوله:

"عندما كنت أفكّر في الحرب ضدّ الفدائيّين لم أكن أضع في اعتباري نطاق القضاء الإسرائيليّ".

ولم يفهم شالوم أنّ تقليده هذا خاطئ، وقد اعتبرته لجنة لاندو أحد المسؤولين عن وجود هذا الأسلوب المتخلّف. كما أعرب التقرير عن استنكاره إزاء قيادة شين بيت بأسها، والتي أخفقت في فهم أنّه لا يحقّ لأحد أن يتجاوز القانون وينتهكه مهما كانت الاعتبارات الأمنيّة التي تبرّر ذلك. وأضاف التقرير أنّ قيادة شين بيت لم تفهم أنّه قد عهد إليها بمهمّة هامّة قد تبرّر استخدام بعض الوسائل، ولكنّها تحت أيّ ظرف من الظروف لا تبرّر الإدلاء بشهادة زور. وأشار التقرير بطريقة لا لبس فيها إلى أنّه داخل شين بيت كان الإدلاء بالحقيقة أمرًا ملزمًا للعاملين فيها وكان من يكذب يعاقب بصرامة تصل إلى حدّ الطرد من الخدمة، ولكن من ناحية أخرى، كان رجال شين بيت يدلون بشهادات زور أمام المحاكم. وأوضح التقرير أنّ هذا الموقف المزدوج استمرّ ١٦ عامًا دون أن يشعر أحد بالإنزعاج. وأعلن التقرير بوضوح أنّ محقّقي الوكالة كان لهم الحقّ في استخدام درجة معيّنة من الضغط على العرب الذين يتمّ استجوابهم دون أن يتمّ تحديد ما هي الحدود القصوى لهذا الضغط. وحذّر التقرير من أنّه لا ينبغي السماح لأيّ من رجال شين بيت بأن يضع اللوائح لنفسه. وبصفة خاصّة في ما يتعلّق بممارسة الضغط على الشخص الذي يتمّ استجوابه. "ففي مثل هذه الظروف من الممكن أن تتحطّم صورة إسرائيل بوصفها دولة ملتزمة بالقانون وتحترم الحقوق المدنيّة،

ويمكن أن يصل الأمر إلى تشبيهها بتلك الأنظمة التي تمنح أجهزتها الأمنيّة سلطات غير محدودة". ولدرء هذا الخطر "لا يجوز استخدام ضغط متزايد ضدّ أيّ شخص يجري التحقيق معه. وهذا الضغط لا ينبغي بأيّ حال من الأحوال أن يصل إلى درجة الإيذاء البدنيّ، أو التعدّي على شرف الإنسان بما يجرح كرامته الإنسانيّة".

وبهدف وضع "نقاط استرشاد"، كتب تقرير لاندو "أنّ درجة استخدام هذه الأساليب ينبغي موازنتها في مواجهة درجة الخطر المتوقّع، ولا بدّ من تحديد وبيان مفهوم أساليب الضغط البدنيّ والنفسيّ مسبقًا، وكلّ انتهاك لما هو مسموح به ينبغي أن يواجه بردّ فعل قويّ وحاسم من جانب القادة".

ويقول باحثون في هذا الصدد إنّ اللجنة قد اختارت موقفًا وسطًا بين وجهة النظر التي ترى أنّ السلطة العليا للقانون، بغضّ النظر عن تهديدات العمل الفدائيّ، وبين الرأي القائل بأنّ مقاتلة العمل الفدائيّ تتطلّب تجاوز حكم القانون الصارم. وعلى الرغم من قلق لاندو وزملائه في اللجنة من اتّجاه شين بيت نحو الوحشيّة، إلاّ أنّهم لم يحاولوا اقتلاع التقاليد غير القانونيّة التي اعتادت عليها الوكالة بين عشيّة وضحاها.

على أيّ حال، فقبل أن يجفّ حبر التقرير اتّضح أنّ ثلاثة من محقّقي شين بيت قد ضلّلوا لجنة لاندو. ولكن عندما علم رئيس شين بيت الجديد بالأمر، أوقف الثلاثة عن العمل. فكانت المفارقة أنّ الرئيس الجديد للوكالة لم يكن سوى "يوسف هارميلين" الذي نمت تحت عهد رئاسته الأولى للوكالة من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧٤ عادة كذب رجال شين بيت أمام المحاكم. وعلى الرغم من ذلك، كان هارميلين شخصيّة تلقى الاحترام، ولقي الترحيب في عام ١٩٨٦ كرئيس موقّت للوكالة خلال الأزمة التي كانت تمرّ بها. وكانت مهمّته هي إعادة النظام والثقة والأمل في الوكالة بعد أن مزّقتها الفضائح والتحقيقات المتعدّدة.

قد يكون هارميلين نجح بطريقته الهادئة في أن يجعل صفوف شين بيت تستقرّ وأن يهدّئ من روع رجال الوكالة. ذلك أنّ الروح المعنويّة داخل شين بيت كانت منخفضة إلى حدّ مخيف بعد تقريري كارب ولاندو. إلاّ أنّ هارميلين لم يتمكّن من ترميم الأضرار التي لحقت بسمعة شين بيت وبسمعة مؤسّسة المخابرات الإسرائيليّة بأسرها. وللمرّة الأولى في تاريخ إسرائيل، لم تعد الأجهزة السريّة تلك البقرات المقدّسة التي ليست بحاجة إلى أن يسائلها أحد عن أساليب عملها. فلقد أصبح الجمهور الإسرائيليّ معتادًا على الحقيقة الجديدة السلبيّة. فقبل عقد من الزمان، كان مجرّد ذكر إسم شين بيت ممنوعًا، وكان من غير المقبول على الإطلاق توجيه الانتقاد إلى وكالات المخابرات. أمّا الآن، وفي خلال حقبة قصيرة تقلّ عن العام، رفع نقاب السريّة مرّتين ليكشف عن شين بيت، وقد لطّختها أسوأ فضيحتين في تاريخها وهما: قتل مختطفي الحافلة، والمحاكمة غير العادلة لنافسو.

لقد رأى الشعب الإسرائيليّ وكالة أمنه الداخليّ للمرّة الأولى، ولم يحبّ ما شاهد[1].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٩، ٤٣٠ ـ ٤٣٤.

الحقبة السّابعة من تاريخ الموساد

الموساد في عهد شبطاي شافيت

انتهت ولاية ناحوم عدموني التي استمرّت ثماني سنوات عشيّة رأس السنة اليهوديّة، وخلَفه في رئاسة الموساد "شبطاي شافيت" الذي ورث سلسلة من الأفشال كقضيّة بولارد وإيران غيت وبالطبع جوازات السفر البريطانيّة المزوّرة التي عُثر عليها في كشك هاتف في بون والتي آذنت بقرب نهاية عهد عدموني.

وجاء شافيت ليقع في خلاف دائم مع رئيس جهاز أمان "يوري ساغي".

وكان عهده مليئًا بالأخطاء والتقصير والمؤامرات والفضائح والفشل.

ولعلّ أفظع فضيحة وقعت في عهده، بل في عهود سائر رؤساء أجهزة المخابرات في العالم، فضيحة قضيّة اغتيال رئيس الوزراء إسحق رابين، التي لا تزال خفاياها ملفلفة في أذهان المتآمرين من أجهزة المخابرات الإسرائيليّة الذين خطّطوا لها ونفّذوها.

الإنتِفَاضَةُ الفلسطينيَّة

في السنوات الأخيرة من ثمانينات القرن العشرين، توسّع نطاق الانتفاضة الفلسطينيّة بسرعة هائلة أذهلت الإسرائيليّين وقوّت تماسك الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة وغزّة. وكلّما زاد عدد من يعتقلهم الجيش الإسرائيليّ ويُصيبهم بالرصاص ويقتلهم ويضربهم بقسوة ويقتلعهم من منازلهم، كلّما زادت سرعة انتشار الانتفاضة. وكانت لافتة حالةُ الرضى الضمنيّ في أنحاء العالم عندما استخدم فتى عربيّ طائرة شراعيّة لاختراق دفاعات إسرائيل المتطوّرة على الحدود مع لبنان والهبوط في بستان قريب من مستعمرة "كريات شمونة"، التي تقوم مكان بلدة "الخالصة" الفلسطينيّة. وفي خلال دقائق قتل ستّة جنود إسرائيليّين مدجّجين بالأسلحة وجرح سبعة غيرهم قبل استشهاده.

ترسّخت العمليّة المثيرة في عقول الفلسطينيّين وأحيطت بالقداسة. أمّا في أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة فقد راح الجميع يتبادلون الاتّهامات الغاضبة بالتقصير. إتّهم شين بيت جهاز أمان، وكلاهما اتّهما الموساد لفشله في الحصول على إنذار مبكّر من لبنان. وزاد الأمر سوءًا في ما بعد. فقد تمكّن ستّة مناضلين مسجونين بتهم الإرهاب من الفرار من سجن شديد التحصين في غزّة. واتّهم الموساد شين بيت بالتقصير، فردّ شين بيت بأنّ خطّة الهرب نُظّمت من خارج إسرائيل ممّا أعاد التهمة إلى الموساد.

وكان لا يكاد يمرّ يوم من دون سقوط الجنود والمدنيّين الاسرائيليّين قتلى بالرصاص في شوارع القدس وتلّ أبيب وحيفا. وكان وزير الدفاع إسحق رابين في

أمسّ الحاجة لاستعادة زمام المبادرة فأعلن تنفيذ "سياسة القوّة والبأس وعمليّات الضرب المبرّح". إلاّ أنّها لم تفلح.

أعجزت الصراعات العميقة بين أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة هذه الأجهزة عن الاتّفاق على سياسة منسّقة لمواجهة مقاومة فلسطينيّة ضخمة لم ترَ مثلها إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨. وزاد في الطين بلّة النقد الأميركيّ المستند إلى الأدلّة المتزايدة المعروضة على شاشات التلفزة عن الطرق الوحشيّة التي يستخدمها الجنود الإسرائيليّون. وللمرّة الأولى بدأت شبكات التلفزة الأميركيّة المعروفة باتّجاهها المؤيّد لإسرائيل بعرض أفلام ضاهت الوحشيّة التي ظهرت فيها تلك التي استخدمت في أحداث "تيانانمن" في "بيكين". أحد هذه الأفلام أظهر جنديّين إسرائيليّين وهما يحطّمان ذراع شابّ فلسطينيّ بحجر ضخم. وأظهر فيلم آخر دوريّة إسرائيليّة وهي تضرب امرأة فلسطينيّة حاملاً. وفي فيلم آخر أيضًا ظهر أطفال من الخليل وهم يتلقّون ضربات وحشيّة على أجسادهم بأعقاب بنادق الجنود الإسرائيليّين.

إندمجت الأطراف المشاركة في الانتفاضة وشكّلت القيادة الوطنيّة الموحّدة للثورة. وزُوّد كلّ حيّ عربيّ بتعليمات بالعربيّة تتعلّق بكيفيّة تنظيم الاضرابات وإغلاق المحالّ ومقاطعة البضائع الاسرائيليّة ورفض الاعتراف بالإدارة المدنيّة. وكان الأمر شبيهًا بالمقاومة التي ظهرت في الأيّام الأخيرة في الاحتلال الألماني لفرنسا في الحرب العالميّة الثانية.

كان مدير الموساد ناحوم عدموني في حاجة ماسّة لتأكيد دور الموساد البارز بين أجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة فلجأ إلى خطوات عمليّة. وفي ١٤ شباط - فبراير ١٩٨٨، أرسل فريقًا من القتلة إلى ميناء ليماسول القبرصيّ فزرعوا قنبلة شديدة الانفجار في هيكل سيّارة فولسفاكن من طراز "غولف" يملكها أحد قادة الانتفاضة

ويدعى "محمّد التميمي". وكان معه ضابطان كبيران من منظّمة التحرير الفلسطينيّة، فقُتل الثلاثة في الانفجار الضخم الذي اهتزّ له الميناء كلّه.

وفي اليوم التالي نفّذ الموساد عمليّة أخرى، فزرع لغمًا أُلصق بهيكل "سوي فاين"، وهي سفينة الركّاب التي كانت منظّمة التحرير الفلسطينيّة قد اشترتها في إطار عمليّة دعائيّة منظّمة. وكان مؤمّلاً أن تُبحر السفينة إلى حيفا وعلى متنها ممثّلو الصحافة العالميّة فتثير المشاعر وهي تذكّر العالم بـ"حقّ العودة" إلى الوطن الذي حُرم منه الفلسطينيّون. ومن شأن هذه الرحلة أن تعيد إلى الذاكرة بصورة أكثر حدّة حادثة الزوارق اليهوديّة التي تحدّت قبل أربعين سنة البحريّة البريطانيّة وجاءت بالناجين من المحرقة النازيّة إلى فلسطين تحت شعار "الحقّ بالعودة" أيضًا... ولكنّ "سوي فاين" دُمّرت على أيدي رجال الموساد.

لم تنجح عمليّتا الموساد في تحطيم عزيمة الفلسطينيّين. وفي كلّ مناسبة، تمكّن الثوّار من التفوّق بذكاء على الاسرائيليّين الذين كان ردّ فعلهم الوحيد اللجوء إلى العنف ومزيد منه. وراح العالم يراقب إسرائيل وهي تظهر عجزها عن وقف الانتفاضة، بل وأكثر من ذلك، فقد خسرت إسرائيل الحرب الدعائيّة. وعقد المعلّقون المقارنة، فأشاروا إلى أنّ ما يجري هو نزاع عصريّ بين "داود" و"غوليات"، يقوم فيه الجيش الاسرائيلي بدور العملاق الكريه[١].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٢٢٢ ـ ٢٢٤.

جَرِيمَةُ اغتِيال فَتحي الشّقَاقي

مساء أحد أيّام تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٩٥، عقد في منزل سرّيّ تابع للموساد يقوم بالقرب من شارع "بيسنكر" في تلّ أبيب، ليتقرّر فيه إعدام ضحيّة أخرى من ضحايا الموساد. وقد اختير للإعدام في ذلك الاجتماع الرئيس الدينيّ لمنظّمة الجهاد الإسلامي "فتحي الشقاقي".

في تلك الليلة عندما كان مصيره يتقرّر في البيت السرّي للموساد في تلّ أبيب، كان الشقاقي في منزله بدمشق مع زوجته فتحيّة. وكان في خلال تناوله العشاء مع زوجته يطمئنها إلى أنّه لا خوف على حياته في رحلته إلى ليبيا التي سيسعى من خلالها إلى جمع أموال دعم أخرى من الرئيس الليبي معمّر القذافي. وكان يأمل في أن يحصل على كامل مبلغ المليون دولار الذي طلبه في رسالة بالفاكس بعث بها إلى طرابلس الغرب. وكالمعتاد، سوف يُدفع المبلغ عبر مصرف ليبيّ في "فاليتا" في جزيرة مالطا. وكان الشقاقي يعتزم أن يمضي أقلّ من يوم واحد في الجزيرة قبل أن يعود أدراجه. ودفعت أخبار توقّفه في مالطة بابنيه المراهقَين إلى تقديم قائمة مشتريات: بعض القمصان لكلّ منهما من متجر في مالطا كان الشقاقي قد زاره من قبل. وتتذكّر فتحيّة الشقاقي تلك المرحلة فتقول: "كان زوجي مقتنعًا بأنّه لو كان الاسرائيليّون يخطّطون للتعرّض له لكانوا فعلوا ذلك قبلاً... لكنّ زوجي كان متأكّدًا جدًّا من أنّهم في حالته لن يفعلوا ما من شأنه أن يُغضب سوريا".

حتّى قبل ثلاثة أشهر من ذلك التاريخ، كان الشقاقي مصيبًا في حكمه على مزاج الحكومة الاسرائيليّة. ففي أوائل صيف ١٩٩٥ رفض رابين خطّةً وضعها الموساد لشنّ هجوم بالقنابل الحارقة على شقّة الشقاقي في ضاحية دمشق الغربيّة. كان "أوري ساغي" وقتها رئيسًا للاستخبارات العسكريّة والقائد الأعلى الفعلي للاستخبارات الاسرائيليّة وذا سلطان حتّى على الموساد. وقد أبلغ رابين أنّه "استشفّ تغييرًا في موقف دمشق. فلا يزال الأسد عدوّنا صراحة. لكنّ الطريقة الوحيدة للتغلّب عليه هي أن نفعل ما هو غير مألوف، أي أن نتخلّى عن مرتفعات الجولان كليًّا، ونُخرج جميع جماعتنا من هناك حتّى آخر فرد منهم. إنّه ثمن باهظ... ولكنّه السبيل الوحيد إلى سلام دائم ولائق".

أجّل رئيس الوزراء تنفيذ خطّة الموساد لقتل الشقاقي بينما تابع ساغي استكشاف حقيقة آماله. كانت هذه الآمال قد ذبلت في حرارة الصيف، فأمر رابين، الذي كان قد حصل على جائزة "نوبل" للسلام... باغتيال الشقاقي. وفي آخر عمليّة كبرى وقعت في خلال ولايته على رأس الموساد، أمر شبطاي شافيت أحد عملائه في دمشق باستئناف المراقبة الإلكترونيّة لشقّة الشقاقي. كان الجهاز الأميركيّ الذي يستعمله العميل متطوّرًا إلى حدّ مكّنه من إبطال عمل قاطع الرادارات الدفاعيّة في نظام الاتّصالات الروسي الصنع في شقّة الشقاقي. وأرسلت إلى تلّ أبيب تفاصيل زيارة الشقاقي العتيدة إلى ليبيا ومالطا.

في تلك الليلة من ليالي تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٩٥، اخترق رؤساء أقوى ثلاثة أجهزة استخبارات في إسرائيل الجموع السائرة في شارع "بينسكر" في طريقهم إلى الاجتماع. كان أوّل الواصلين شبطاي شافيت الذي كان زملاؤه يقسون عليه فيقولون إنّ تصرّفاته تشبه تصرّفات موظّف الاستقبال في فنادق تلّ أبيب. فهو مثله يرتدي

ملابس مكويّة داكنة، ومثله يصافح زوّاره بيد لا تطيل المكوث. وكان شافيت قد أمضى في منصبه سنوات قليلة وكان يوحي بأنّه لا يعرف كم سيبقى فيه. بعده وصل العميد "دوران تامير" كبير ضبّاط الاستخبارات في الجيش الإسرائيلي، وهو شاب في مقتبل العمر، كان مظهره يوحي بالنفوذ الذي اكتسبه من سنوات طويلة في القيادة. وأخيرًا وصل "أوراي ساغي" مدير الاستخبارات العسكريّة أمان وهو يختال في مشيته... وكان يصرّ على أنّ سوريا مستعدّة للتفاوض السلميّ على رغم نوبة غضبها المتجدّدة، وكانت وجهة نظره هذه التي يعرضها بصوته الرقيق وتواضعه تثير الجدل بين نظرائه. وقد كانت العلاقة بين الرجال الثلاثة "وديّة بحذر" على حدّ تعبير شافيت. بينما يقول أوري ساغي: "إنّنا لا نستطيع أن نتبارى في ما بيننا. وكرئيس لأمان كنت أعهد بالمهام للرجلين الآخرين. كنّا نتنافس في ما بيننا، ولكن طالما كنّا نعمل للهدف ذاته فلا بأس". وعلى مدى ساعتين جلس الثلاثة حول طاولة غرفة الجلوس وراجعوا خطّة اغتيال فتحي الشقاقي.

في ٢٤ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٩٥، غادر شابّان في أواخر العشرينات من عمرهما إسماهما الرمزيّان "جيل" و"ران" من تلّ أبيب في رحلتين منفصلتين، فطار ران إلى أثينا وجيل إلى روما. وعلى المطارين سُلّم كلّ منهما جواز سفر بريطانيًّا حملهما متطوّعان محليّان. ووصل الاسرائيليّان إلى مالطا في وقت متأخّر من الليل ونزلا في فندق "دبلومات" المطلّ على مرفأ فاليتا العاصمة. وفي مساء ذلك اليوم تلقّى ران درّاجة ناريّة قال لموظّفي الفندق إنّه سيستخدمها في التجوّل في الجزيرة. ولا يذكر أيّ من موظّفي الفندق أنّ جيل وران أجريا أيّ اتّصال، بل إنّهما أمضيا معظم الوقت في غرفة كلّ منهما. وعندما قال أحد الحمّالين أنّ حقيبة جيل ثقيلة، غمزه جيل وقال إنّها مليئة بسبائك الذهب...

في تلك الليلة اتّصلت سفينة شحن، كانت قد أبحرت من ميناء حيفا في اليوم السابق متّجهة إلى إيطاليا، باللاسلكي بسلطات ميناء مالطا لتبلّغها عن حدوث عطل في محرّكها وأنّها ستضطرّ بينما يجري إصلاح العطل إلى اتخاذ اتّجاه معيّن قرب الجزيرة. كان على متن السفينة شبطاي شافيت وفريق صغير من تقنيّي الاتّصالات في الموساد. وقد أقاموا اتصالاً باللاسلكي مع جيل الذي كان ينقل في حقيبته جهازًا صغيرًا لكنّه فعّال. وكان قفلا الحقيبة مصمّمين بطريقة تحدث انفجارًا في شحنتين داخل غطاء الحقيبة إذا فتح القفلان باتّجاه اليسار بدلاً من اتّجاه اليمين. وكان هوائي اللاسلكي، وطوله ربع ميل من السلك ذي الألياف البصريّة، ملفوفًا بإحكام بشكل أسطوانة قطرها ستّ بوصات متّصلة بأربعة هوائيّات ثنائيّة الاستقطاب ثبّتت داخل زاوية الحقيبة. وقد تلقّى جيل خلال الليل عددًا من الرسائل اللاسلكيّة مصدرها السفينة.

كان فتحي الشقاقي قد وصل في اليوم السابق على طوّافة تعمل بين طرابلس الغرب وفاليتا وبرفقته عدد من رجال الأمن الليبيّين ظلّوا على متن الطوّافة. فقد انتهت مهمّتهم مع بلوغ الشقاقي الشاطئ.

كان الشقاقي حليقًا وقدّم نفسه إلى مسؤول قسم الجوازات المالطيّ باسم "إبراهيم درويش"، وهو اسمه على جواز سفره الليبيّ. وبعدما سجّل اسمه في فندق "دبلومات" أمضى عدّة ساعات في المقاهي المطلّة على البحر يحتسي القهوة، ويتذوّق الحلويّات العربيّة، كما أجرى عددًا من الاتّصالات الهاتفيّة. وفي صباح اليوم التالي كان الشقاقي عائدًا وهو يحمل القمصان التي وعد بها ولديه، وفيما هو يسير بمحاذاة البحر سار رجلان يمتطيان درّاجة ناريّة على مهل بجانبه وأطلق أحدهما النار على رأس زعيم حركة الجهاد من مسافة قريبة فأرداه قتيلاً. واختفى الرجلان ولم يُعثر على أيّ منهما. ولكن بعد ساعة كان زورق صيد يبحر من ميناء فاليتا ويلقي مرساة إلى جانب سفينة

الشحن... ولم يلبث ربّان السفينة أن أبلغ سلطات الميناء أنّ العطل في المحرّك قد أُصلح موقّتًا، وأنّ السفينة ستعود إلى حيفا لمزيد من أعمال الصيانة...

في إيران، أُعلن يوم حداد وطنيّ على الشقاقي. أمّا في تلّ أبيب، فعندما سئل رئيس الوزراء إسحق رابين التعليق على الاغتيال قال: "إنّني لست حزينًا بالطبع". ولكن بعد أيّام قليلة، وتحديدًا في ٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٥، قُتل رابين في مهرجان للسلام أُقيم في تلّ أبيب على مقربة من البيت السريّ الذي جرى فيه الإعداد لتنفيذ أمره باغتيال الشقاقي. وكان مقتله على يد متعصّب يهوديّ يدعى "يغال عمير" كان يتحلّى بصفات القسوة نفسها التي أثارت إعجاب رئيس الوزراء بالموساد[١].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٣٤ ـ ١٤١.

المُوسَاد، والأسلحَةُ المحرَّمةُ دوليًّا

في الخامس من تشرين الأول - أكتوبر ١٩٩٢، هوت طائرة شحن تابعة لشركة العال الإسرائيليّة في مبنى سكنيّ يقع بالقرب من مطار شيبول في أمستردام، فقُتل ثلاثة وأربعون شخصًا وأصيب عشرات آخرون بجراح. ومنذ وقوع الحادث اعتلّت صحّة المئات من سكّان المنطقة. وعلى رغم حملة التضليل المتواصلة لإخفاء حقيقة أنّ الطائرة كانت تحمل موادّ كيماويّة قاتلة، ومنها العناصر المستعملة في إنتاج غاز الأعصاب المهلك "سارين"، فقد تكشّفت الحقائق وتسلّطت الأنظار على مركز أبحاث سرّي يقع في ضواحي تلّ أبيب ينتج فيه بعض العلماء من ضمن ما ينتجونه تشكيلة من الأسلحة الكيماويّة والبيولوجيّة ليستخدمها القتلة المحترفون في الموساد.

يقع معهد الأبحاث البيولوجيّة على بعد اثني عشر ميلاً جنوب شرقي وسط تلّ أبيب. والمعهد صلة وصل داخل نظام الدفاع المتعدّد الطبقات في إسرائيل. فداخل مختبراته وورشاته يجري تصنيع تشكيلة واسعة من الأسلحة الكيماويّة والبيولوجيّة. وبعض كيميائيّي المعهد عملوا من قبل لدى جهاز استخبارات KGB السوفياتيّ وجهاز "ستاسي" الألمانيّ الشرقيّ، وقد صنعوا مع زملائهم السمّ الذي استُخدم في محاولة قتل خالد مشعل في عمّان، وهو أحد زعماء منظّمة حماس الفلسطينيّة. وتتضمّن برامج الأبحاث في المعهد إنتاج تشكيلة من الكائنات المسبّبة للأمراض التي يقول تقرير سرّي أعدّته وكالة CIA لوزير الدفاع الأميركي "وليم كوهين" إنّه "سيوجّه إثنيًّا". ويقول التقرير إنّ العلماء الإسرائيليّين "يحاولون استخدام الاكتشافات الطبيّة لتعيين المورثات

الخاصّة التي يحملها بعض العرب حتّى يصنعوا بكتيريا أو فيروسًا معدّلاً وراثيًا يناسبهم". ويخلص التقرير إلى القول "إنّ المشروع لا يزال في مراحله الأولى لكنّ القصد منه هو استغلال أثر الفيروسات وبعض أنواع البكتيريا في تعديل الهويّة الوراثيّة DNA داخل الخلايا الحيّة للجسم الذي تدخله".

يحاكي عمل معهد الأبحاث الإسرائيليّ هذا عملاً مماثلاً قام به علماء في جنوب أفريقيا خلال حكم الفصل العنصريّ لصنع "سلاح إصطباغيّ هدفه الأشخاص السود دون غيرهم". وقد تخلّت جنوب أفريقيا بالطبع عن المشروع عندما وصل "نلسون منديلا" إلى السلطة، لكنّ اثنين على الأقلّ من العلماء الذين عملوا في البرنامج في جنوب أفريقيا انتقلا إلى إسرائيل، حيث انضمّوا إلى فريق العلماء في معهد الأبحاث.

إثر اكتشاف ضلوع الدولة اليهوديّة في مثل هذه البرامج، دُقّت نواقيس الخطر لأسباب ليس أقلّها ذلك الشّبه الرهيب بينها وبين الاختبارات الخاصّة بالهندسة الوراثيّة التي أجراها النازيّون. حتّى أنّ عضوًا في البرلمان الإسرائيليّ إسمه "ديدي زوكر" قد أعلن أنّه "يجب ألاّ نسمح لأنفسنا بصنع مثل هذه الأسلحة".

كانت طائرة العال التي تحطّمت بالقرب من مطار شيبول في هولندا في تلك الليلة من ليالي تشرين الأول - أكتوبر ١٩٩٢ تحمل الموادّ الأوليّة لصنع هذه الأسلحة. كانت حمولتها تزن ١١٤ طنًّا، وكان فيها أيضًا صواريخ "سايد ويندر"، وأدوات إلكترونيّة. وأخطر ما في الحمولة اثنا عشر برميلاً من مادّة DMMB، أحد مكوّنات غاز الـ"سارين"، وقد اشترتها إسرائيل من شركة "سولكاترونيك" لإنتاج المواد الكيماويّة ومقرّها "نيو جرسي" في الولايات المتّحدة الأميركيّة. وقد أصرّت الشركة على الدوام على أنّ إسرائيل أبلغتها بأنّ المواد الكيماويّة "ستستخدم لاختبار الأقنعة الواقية من الغازات". لكنّ معهد الأبحاث البيولوجيّة لا يقوم بمثل هذه الاختبارات.

تأسّس هذا المعهد عام ١٩٨٢ في غرفة محصّنة صغيرة تحت الأرض، وهو اليوم يتمدّد على مساحة تزيد على أربعين ألف متر مربّع. ومنذ زمن بعيد أزيلت أشجار الفاكهة وحلّ مكانها حائط إسمنتيّ عال زُنّر أعلاه بأجهزة حسّاسة. ويتولّى حرّاس مسلّحون تسيير دوريّات في محيط المعهد الذي لم يعد منذ مدّة طويلة موضوعًا للتدقيق العلنيّ. وقد أُسقط عنوانه المضبوط في ضواحي "نس زيونا" من دليل الهاتف الخاص بتلّ أبيب. كما أُزيل موقعه عن خرائط المنطقة كلّها. ولا يُسمح لأيّ طائرة بالمرور في فضائه. ولا يفوقه في السريّة إلاّ مركز "ديمونة" النوويّ في صحراء النقب. ففي دليل الهاتف السرّي للجيش الإسرائيليّ يوصف المعهد على أنّه "يتولّى تقديم الخدمات لوزارة الدفاع". ولا يلفت شكل المعهد الخارجيّ النظر إذ ليس ثمّة سوى بضع نوافذ في جدرانه الإسمنتيّة القاتمة اللون، أمّا في الداخل، فيقوم نظام أمنيّ شديد التطوّر. فالدخول إلى أيّ منطقة يستلزم استخدام كلمات سرّ ووسائل تعرّف بصريّ. ويجوب الحرس الممرّات، والأبواب المنزلقة المضادّة للقنابل لا تفتح إلاّ بتمرير بطاقات تتغيّر رموزها يوميًّا. ويخضع جميع الموظّفين في المعهد إلى كشوفات طبيّة كلّ شهر، وقد أُخضعوا جميعًا إلى غربلة دقيقة، كما أُخضعت عائلاتهم لتدقيق مماثل.

وكما الحال في ديمونة، فإنّ عددًا من مختبرات الأبحاث والتطوير التابعة للمعهد مخفيّ على عمق كبير تحت الأرض. وهناك يقيم العلماء البيولوجيّون وعلماء الخلايا الوراثيّة إلى جانب عوامل الموت المعلّبة، السموم التي تتسبّب بتسمّم غذائيّ مُشلّ وتؤدّي إلى الموت، وحتّى السمّ الأكثر زعافًا الذي يتسبّب بالتهاب الدماغ والنخاع الشوكيّ في الخيل والحمير. وفي مختبرات أخرى يعبر إليها العلماء من الغرف المحكمة يعمل هؤلاء على مجموعة من عوامل الأعصاب، كالعوامل الخانقة وعوامل الدم والعوامل المسبّبة للقروح، ومن هذه مادّة الـ"طابون" التي لا تُرى ولا تُشَمّ عندما

تنتشر في الهواء. وغاز "صومان" وهو آخر غاز أعصاب أنتجه النازيّون لا يُرى في شكله البخاريّ، لكن له رائحة الفاكهة. وتضمّ تشكيلة العوامل المسبّبة للقروح الـ"لكورين"، والـ"فوسجين"، والـ"دايفوسجين" التي تشبه رائحتها رائحة العشب الغضّ الذي جزّ حديثًا، وتدخل في إنتاج العوامل المسبّبة للقروح عوامل مماثلة استُخدمت في الحرب العالميّة الأولى. أمّا عوامل الدم فتضمّ ما يدخل الـ"سيانيد" في تركيبه.

وتقوم داخل المعهد دائرة خاصّة لصنع أسلحة السموم القاتلة ليستخدمها عملاء الموساد في تنفيذ المهامّ التي تقرّها الدولة العبريّة وقتل الأعداء بدون محاكمتهم. وفي خلال السنوات الماضية مات ما لا يقلّ عن ستّة عمّال في المعهد، لكنّ الرقابة العسكريّة الصارمة في إسرائيل تخفي أسباب موتهم.

هذا الستار الأمنيّ تعرّض للتفسّخ لأوّل مرّة على يد ضابط سابق في الموساد هو "فيكتور أُستروفسكي" الذي قال: "كنّا نعلم جميعًا بأنّ السجناء الذين يأتون بهم إلى المعهد لن يخرجوا منه أحياء. فقد استُخدم المتسلّلون من منظّمة التحرير الفلسطينيّة كحقول تجارب. فبواسطتهم يتحقّق العلماء من سلامة عمل ما ينتجونه من أسلحة ويتمكّنون من تحسين أدائها".

وحتّى الآن لم يصدر عن إسرائيل أيّ نفي لهذه التهم[1].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٧١ ـ ٣٧٤.

أسرارُ اغتيالِ إسحق رابين

يعتبر مائير عميت الذي ترأس الموساد بين ١٩٦٣ ـ و١٩٦٨ أنّ الهبوط الحلزوني للموساد قد بدأ عندما جرى اغتيال رئيس الوزراء إسحق رابين في خلال مظاهرة سلميّة في تلّ أبيب في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٥.

قبل اغتيال رابين على يد أحد المتطرّفين اليهود، وفي ذلك مؤشّر إضافيّ إلى التوعّك العميق الذي رأى عميت أنّه أصاب المجتمع الاسرائيليّ، كان المدير العام للموساد "شبطاي شافيت" قد حذّر موظّفي مكتب رابين من محاولة اغتيال تستهدف رئيس الوزراء. ووفقًا لأحد هؤلاء الموظّفين جرى تجاهل الاحتمال باعتبار أنّ غموضه لا يجعله يشكّل خطرًا محدّدًا[١].

غير أنّ كاتب تحقيقات صحافيّة إسرائيليّ يدعى "باري خميش" قد جمع بصفة خاصّة تقارير طبيّة وأخرى تتعلّق بعلم القذائف بالإضافة إلى روايات شهود عيان بينهم حرّاس رابين الشخصيّون وأرملته والأطبّاء والممرّضون وعدد من العاملين في أجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة ممّن تحدّث إليهم. ومعظم ما تجمّع لديه كان أدلّة قُدّمت إلى جلسة سريّة للمحكمة.

بحلول عام ١٩٩٩، بدأ باري خميش، على رغم المخاطرة التي يعرّض نفسه لها، بنشر ما توصّل إليه من نتائج على شبكة الإنترنت، وهي إعادة مخيفة لمسلسل الشكوك

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٨٥.

التي أُثيرت حول قصّة المسلّح الوحيد في اغتيال جون ف. كينيدي عام ١٩٦٣. والخلاصات المحكمة التي قدّمها خميش آسرة مقنعة على أقلّ تقدير. وقد خلص إلى أنّ "نظريّة المسلّح الوحيد التي قبلتها لجنة "شمغار" الحكوميّة الاسرائيليّة في قضيّة اغتيال رابين هي لفلفة لما كان في البدء محاولة اغتيال غير ناجحة مدبّرة لزيادة شعبيّة رابين المتراجعة لدى الناخبين.

كان "يغال عمير" قد وافق على أن يقوم بوظيفة المسلّح الوحيد بتوجيه من رئيسه أو رؤسائه في أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة. أطلق عمير رصاصة فارغة. وأطلق طلقة واحدة فقط، وليس ثلاثًا كما زُعم. وإنّ الفحوص المخبريّة التي أجرتها الشرطة الإسرائيليّة على بقايا الطلقة التي عُثر عليها في مكان الحادث لا تتماثل مع نوع مسدّس عمير. وعند حصول حادث إطلاق النار، لم يشَاهَد الدم يسيل من رابين. ثمّ هناك سرّ اختفاء سيّارة رابين لمدّة تتراوح بين ثماني دقائق واثنتي عشرة دقيقة في رحلة لا تستغرق سوى خمس وأربعين ثانية إلى المستشفى في طرقات خالية طوّقتها الشرطة بنطاق من أجل مهرجان السلام الذي كان يشارك فيه رابين".

وأكثر مزاعم خميش إثارة، هو زعم آخر لم ينقضه أيّ مسؤول إسرائيليّ، يفيد أنّه "في خلال تلك الرحلة الغريبة إلى المستشفى بقيادة سائق ذي خبرة طويلة أُطلق الرصاص الحقيقيّ مرتَين على رابين، وهذه المرّة من مسدّس أحد حرّاسه الشخصيّين "يورام روبين". وقد اختفى مسدّسه في المستشفى ولم يُعثر عليه من بعد. أُخرجت من جسد رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين رصاصتان وقد اختفتا لمدّة إحدى عشرة ساعة. وروبين... انتحر في ما بعد".

تحدّث خميش إلى ثلاثة جرّاحين ناضلوا في غرفة العمليّات لإنقاذ حياة رئيس الوزراء، وناقش معهم شهادة ضبّاط الشرطة الذين كانوا حاضرين عندما أطلق عمير

النار. وقد شهد الضبّاط جميعًا بأنّهم لم يـروا جروحًـا ظـاهرة فـي جسم إسحق رابيـن عندما وُضع في السيّارة. كان الجرّاحون متأكّدين من أنّه عندما وصل رئيس الوزراء إلى المستشفى كانت هناك دلائل واضحـة علـى أنّـه أُصيـب بجـرح عميـق فـي صـدره وبأذى بالغ بعموده الفقريّ وعند أسفل الرقبة. وأصرّ الجرّاحون علـى أنّـه ليس هنـاك من جرح ناشئ عن إصابة بطلق ناريّ يمكن أن يسمح لرابين بمغـادرة مكـان الحـادث من دون أن تظهر دلائل على الجرح، ثمّ يصل إلـى المستشفى وقـد أصيـب بكـلّ هـذا الأذى. بينما خلصت لجنة "شمغار" إلى أنّها لم تعثر على دليل يؤكّد حدوث مثـل هـذه الجروح!... وبناء عليه، رفض الأطبّاء مناقشة المسألة.

وبالإضافة إلى تحقيق خميش الخاص، هناك شهادة مستقلّة أدلى بها صاحبها تحـت القسم تؤكّد زعمه بأنّ "ما حدث عميـق وتـآمريّ". وفـي جلسـة محاكمـة عمير، المتّهم الوحيد بإطلاق النار علـى إسحق رابيـن، قـال عمـير فـي المحكمـة: "لـو قلـت الحقيقـة سينهار النظام بكامله... إنّ ما أعرفه كفيلٌ بتدمير هذا البلد"...

وفي جلسة سريّة، شهد عميل لشين بيت كان قريبًا مـن عمـير عندمـا أطلـق النـار علـى رابيـن: "إنّنـي سـمعت رجـل شـرطة يصيـح طالبًـا مـن النـاس الهـدوء... الطلقـة فارغة".

وقالت ليا رابين في الجلسة نفسها إنّ زوجهـا لـم يترنّـح ولـم يسـقط بعدمـا أُطلقت عليه الرصاصة من مسافت قريبة. قالت: "كان واقفًا وكان يبدو في صحّـة تامّـة". كمـا أصرّت على القول إنّها مُنعت من رؤية زوجها لمدّة ساعة كاملـة بعدمـا وصلـت إلـى المستشفى. ويَنقل خميش عنها أنّ ضابط استخبارات رفيع المستوى قال لها إنّهـا يجـب ألاّ تقلق لأنّ القصّة كلّها تمثيليّة. وقد رفضت أرملـة رئيس الـوزراء بـأصرار الإدلاء بأيّ تصريح علنيّ حـول هـذا الأمـر أو حـول أيّ جـانب مـن جوانـب اغتيـال زوجهـا.

ويعتقد خميش أنّها، كحال الممرّضين السبعة عشر الذين كانوا في المستشفى عندما جيء برابين في ذلك اليوم، قد أُسكتت بعامل الخوف.

ويقول خميش: "كانت الخطّة شرّيرة وذكيّة. لقد أقنعوا رابين بأن يدع أحدًا يطلق عليه النار لمساعدته على استعادة شعبيّته. ولهذا لم يرتدِ سترته الواقية من الرصاص. واختاروا عمير بعناية ليجعلوا منه نجمًا. كان مغفّلاً لها به رئيسه أو رؤساؤه... وما لم يستطع أن يعرفه هو كيف استغلّوا طلقته الفارغة لاغتيال رابين في سيّارته في الطريق إلى المستشفى".

ويقول باحثون إنّه لا تنطبق على خميش مواصفات المهووس بنظريّة التآمر. فهو يعتني بما يكتب، ويسند كلّ دليل بشهادة تؤيّدها وسمعتها المحكمة. لم يندفع إلى الاستنتاج وهو يعطي الانطباع بأنّ هناك أمورًا كثيرة أخرى يمكنه أن يقولها لكنّه لن يقولها... الآن. إنّه من فئة قليلة من جيل الصحافيّين الحالي في إسرائيل. فهو مستقلّ في نهجه لا يوالي أحدًا، والأهمّ من هذا كلّه أنّه محلّ ثقة. لقد نشر كلّ الدلائل التي حصل عليها حتّى الآن على شبكة الإنترنت، لأسباب منها ضمان الانتشار ومنها أيضًا أنّه يريد أن يصل إلى الحقيقة. وتجعله واقعيّته على اقتناع بأنّ الحقيقة قد لا تظهر في صورة تصلح لتقديمها إلى محكمة العدل[1].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٥٢ ـ ١٥٤.

نهاية دَور شافيت

إستمرّ شبطاي شافيت رئيسًا للموساد حتّى عام ١٩٩٦، وبذل كلّ ما في وسعه لئلاّ يثير نشاط الموساد في جمع المعلومات اهتمامًا عظيمًا وأن يبقى بعيدًا عن مفبركي القصص الخرافيّة. وبعيدًا عن رقابة الجمهور، استمرّ الصراع على السلطة داخل أجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة بكلّ قوّة. وتذكّر السياسيّون الذين ظلّوا أعضاء في اللجنة الفرعيّة لمراقبة أعمال الاستخبارات كيف بزّهم شافيت بعد حرب الخليج. وذاكرة الناس في إسرائيل لا تختلف عن ذاكرة غيرهم، فلم تلبث حملة التهامس على شافيت أن استؤنفت، فقيل إنّه ضيّق الأفق وإنّ باب اتّصالاته الخاصّة مع CIA بالكاد موارب، وإنّه لا يُحسن تفويض صلاحيّاته، وإنّه متعال على المستوى القاعديّ الذي تتراجع في صفوفه المعنويّات.

واختار شبطاي شافيت تجاهل هذه التحذيرات. وفجأة في صباح يوم ربيعيّ عام ١٩٩٦، جرى استدعاؤه إلى مكتب رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو حيث أُبلغ أمر استبداله. لم يحاول شافيت المجادلة فما رآه من نتنياهو أقنعه بأن لا فائدة من ذلك. ولم يسأل إلاّ سؤالاً واحدًا: من هو خليفته؟ فأجاب نتنياهو: داني ياتوم[١].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٥٣ ـ ٣٥٤.

الحقبة الثامنة من تاريخ الموساد

الموساد في عهد داني ياتوم

عيّن رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو داني ياتوم في منصب المدير العام للموساد بعد دقائق من رحيل شبطاي شافيت. وكان ياتوم في الأسابيع الأولى التي عقبت تسلّمه منصبه يسهر ليلة واحدة على الأقلّ كلّ أسبوع مع رئيس الوزراء. كانا يتناولان الجعة الباردة وحبّات الزيتون ويحلّلان المشاكل التي تعترضهما، ويتذكّران الحقبة التي كان ياتوم يصدر الأوامر لنتانياهو الملقّب باسم "بيبي" في وحدة كوماندوس تابعة للجيش. بعدها عُيّن نتنياهو سفيرًا لإسرائيل في الأمم المتّحدة، ثمّ أصبح خلال حرب الخليج خبيرًا من نوع خاصّ بما يسمّى "الإرهاب العالميّ"، فيظهر على شاشات التلفزة وهو يضع قناعًا مضادًّا للغازات اتّقاء لوقوع صاروخ "سكود" بالقرب منه. أمّا ياتوم فقد عبّر عن مبلغ استساغته دور الغريب الذي أعطي أهمّ منصب في أجهزة الاستخبارات في إسرائيل. كان ياتوم الجندي المحترف النموذجي، وقد عُيّن ملحقًا عسكريًّا لرئيس الوزراء إسحق رابين.

كان شعر ياتوم المتراجع ونظّاراته ذات الإطار الفولاذيّ وشفته الناتئة السفلى تتناسب مع لقبه: "البروسي". وكان يعرف أنّ مصدر قوّته في القيادة هو الرعب. وقد

بقي ياتوم ونتنياهو لا يفترقان حتّى وقعت حادثتان محرجتان فأنشأتا بينهما بونًا شاسعًا. كانت الأولى العمليّة الخرقاء في عمّان التي أمر بها نتنياهو بهدف قتل القائد الفلسطينيّ زعيم حركة "حماس" خالد مشعل، وعند فشل الهجوم وافتضاح دور الموساد أمام وسائل الإعلام العالميّة ألقى رئيس الوزراء اللوم في الهزيمة الكاملة على ياتوم، فتحمّل هذا اللوم من دون أن يرفّ له جفن، لكنّه كان يقول لأصدقائه الخلّص إنّ شجاعة نتنياهو "ناشئة عن إدانات الآخرين".

ثمّ وقعت حادثة ثانية أكثر إحراجًا وأشدّ خطورة من الأولى، هي فضيحة ضابط الموساد "يهودا غيل". فكانت العمليّة التي أطاحت نهائيًّا بمنصب ياتوم. غير أنّه كانت لياتوم "إنجازات" أخرى قبل تينك العمليّتين.

لكَم أصبح الوضع مختلفًا عمّا كان عليه عندما تسلّم ياتوم منصبه وراج اسمه في وسائل الإعلام العالميّة. وصفه الصحافيّون بأنّه اليد الأمينة، وروّجوا لتكهّنات بأنّه سيستعيد المجد القديم الذي صنعه أسلافه السابقون عميت وحوفي وعدموني، والذي تعمّد شبطاي شافيت الحطّ من شأنه.

وبالفعل، فبرغم اتّفاق أوسلو الذي يعترف لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة بوطن يقام في غزّة والضفّة الغربيّة، زاد ياتوم عدد العملاء الفلسطينيّين الذين كُلّفوا التجسّس على ياسر عرفات، وأمر مبرمجي الكومبيوتر في الموساد بتطوير برامج جديدة لاقتحام كومبيوترات منظّمة التحرير، ونشر أجهزة التنصّت الإلكترونيّة لتدمير أنظمة الاتّصالات لديها عندما تدعو الحاجة. وطلب ياتوم من العلماء في أقسام الأبحاث والتطوير التركيز على أسلحة الحرب المعلوماتيّة التي بإمكانها نشر الدعاية السوداء في أنظمة البثّ المعادية. فقد أراد أن يكون الموساد جزءًا من العالم المستقبليّ الجديد حيث تخزّن الأسلحة في لوحة المفاتيح التي تعطّل قدرة العدوّ على تعبئة قوّاته

العسكريّة. وقد عاد ياتوم إلى ميدان الموساد القديم: أفريقيا. وفي أيّار ـ مايو ١٩٩٧ زوّد الجهاز الاستخباراتي القوّات المتمرّدة بمعلومات سريّة مهمّة ساعدتها على إطاحة الرئيس الزائيري موبوتو الذي حكم أفريقيا الوسطى عهدًا طويلاً. وعزّز الموساد علاقاته مع جهاز الأمن في جنوب أفريقيا وساعده على تعقّب المتطرّفين البيض الذين كان عدد كبير منهم يتعاون مع الموساد من قبل. وزاد ميزانيّة وقوّة وحدة الموساد الخاصّة "أل" المكلّفة سرقة آخر الأبحاث العلميّة.

كان داني ياتوم في الحادية والخمسين من عمره، لكنّه كان لا يكلّ ولا يتعب ولا يرحم. كان يتمتّع بشراسة مقاتلي الشوارع، والمثال على ذلك ردّه على اكتشاف مكتب FBI الأميركيّ في كانون الثاني ـ يناير ١٩٩٧ "ميغا"، عميل الموساد الرفيع المستوى المستتر في أعماق إدارة الرئيس كلينتون.

دور المُوساد في فَضيحَة كلينتُون ـ لُوينسكِي

إثر تمكّن أجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة في خلال النصف الأوّل من تسعينات القرن العشرين من اختلاس كميّات من اليورانيوم من الوثائق الخاصّة بالتقنيّات المتقدّمة من الولايات المتّحدة الأميركيّة، تبيّن لجهازي الـ CIA والـ FBI الأميركيّين أنّ هناك عميلاً أميركيًّا يعمل لحساب المخابرات الاسرائيليّة إسمه الحركي "ميغا"، فسعى الجهازان بمختلف الوسائل للكشف عن هويّة ذلك العميل دون جدوى. وقد تردّد في إسرائيل لاحقًا أنّ "ميغا" يحتلّ منصبًا رفيعًا في إدارة الرئيس كلينتون. ولم يعرف أحد إذا كان الرئيس قد ورثه من حكومة جورش بوش الأب. وحده رئيس الموساد العامل كان يعرف كم من الوقت أمضى "ميغا" في موقعه. لكن أعضاء لجنة رؤساء

أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة كانوا يعرفون أنّ قسم مكافحة الاستخبارات في مكتب الـ FBI كان يعتقد بالفعل بأنّ القعود عن معاقبة الموساد في قضيّة تهريب المستندات العلميّة واليورانيوم إلى إسرائيل، مردّه إلى قوّة اللوبي اليهودي في واشنطن، وتمنّع الإدارات الأميركيّة المتعاقبة عن التصدّي للمصالح الاسرائيليّة وإن كانت غير شرعيّة. وبإمكان اللوبي أن يستجيب مرّة أخرى للطلب إليه إطفاء اللهيب المتّقد منذ اكتشاف الـ FBI لـ "ميغا" أوّل مرّة. وفي ١٦ شباط ـ فبراير ١٩٩٧، كانت وكالة الأمن القومي CIA قد أمدّت الـ FBI باعتراض لمكالمة هاتفيّة ليليّة من السفارة الاسرائيليّة بين ضابط استخبارات في الموساد عرف باسم "دوف" ورئيسه في تلّ أبيب الذي لم يُكشف النقاب عن اسمه في خلال المكالمة القصيرة. وكان "دوف" يسأل عن "توجيهات" بشأن "الاتّصال بميغا" للحصول على نسخة من رسالة كتبها "وارن كريستوفر" الذي كان يومئذ وزيرًا للخارجيّة إلى رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة ياسر عرفات. وتضمّنت الرسالة جملة تطمينات قدّمها كريستوفر إلى عرفات في ١٥ كانون الثاني ـ يناير تتعلّق بانسحاب القوّات الاسرائيليّة من مدينة الخليل في الضفّة الغربيّة. وأمر الصوت في تلّ أبيب "دوف" بأن ينسى الرسالة. فـ"هذا ليس أمرًا نستعين بميغا فيه".

كانت هذه المحادثة القصيرة أوّل مفتاح عثر عليه مكتب الـ FBI عن أهميّة ميغا. فلم يسبق سماع هذا الاسم الرمزيّ من قبل في خلال المراقبة المتواصلة على مدار الساعة للسفارة الاسرائيليّة ودبلوماسيّيها. واستعان المكتب بكومبيوترات متطوّرة فضيّق البحث المستعجل عن هويّة ميغا إلى حدود أن يكون أحد أعضاء مجلس الأمن القوميّ على صلة بمسؤول كبير في هذا المجلس الذي يقدّم المشورة للرئيس في القضايا المتعلّقة بالدفاع والاستخبارات. ويقوم مكتب هذا المجلس في البيت الأبيض ويضمّ في عضويّته نائب الرئيس ووزيري الخارجيّة والدفاع. ويقوم مدير

الاستخبارات المركزيّة CIA ورئيس الأركان المشتركة بدور استشاريّ فيه. أمّا الموظّفون الدائمون فيرأسهم مستشار الرئيس للأمن القوميّ.

لا تزال سرًّا، مثل هويّة ميغا، كيفيّة معرفة السفارة الاسرائيليّة بأنّ اتصالاتها السريّة بتلّ أبيب قد اخترقت. وسفارة إسرائيل في واشنطن، كحال جميع السفارات الاسرائيليّة الأخرى، تزوّد على الدوام بما يستجدّ من أنظمة أكثر تطوّرًا للبحث المرمّز وفكّ الرموز. والجزء الأكبر من هذه المعدّات مقتبس عن مخطّطات هندسيّة أميركيّة مسروقة.

صباح ٢٧ شباط ـ فبراير ١٩٩٧، عقدت لجنة رؤساء الأجهزة الاستخباراتيّة الاسرائيليّة المختلفة اجتماعًا في تلّ أبيب برئاسة "داني ياتوم" الذي عيّنه رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو حديثًا رئيسًا للموساد. ويُعرف ياتوم بتطرّفه السياسي كحال نتانياهو، وقد سرت إشاعات في تلّ أبيب مفادها أنّ مدير الموساد الجديد حضن رئيس الوزراء المحاصر عندما كانت حياته الشخصيّة المثيرة تهدّد مستقبله السياسيّ.

أصغى الرجال المتحلّقون حول طاولة الاجتماع باهتمام لياتوم وهو يطلعهم على الاستراتيجيّة الواجب اعتمادها إذا تحوّلت قضيّة "ميغا" إلى أزمة مستشرية. ووفقًا لتلك الاستراتيجيّة ستعمد إسرائيل إلى تقديم احتجاج شديد اللهجة لانتهاك الحصانة الدبلوماسيّة لسفارتها في واشنطن بزرع أجهزة تنصّت، ومن شأن هذه الخطوة أن تتسبّب بإرباك إدارة كلينتون. يلي ذلك خطوة ثانية يوجّه فيها المتطوّعون الذين لهم علاقات قويّة بوسائل الإعلام الأميركيّة باختلاق روايات تفيد بأنّ "ميغا" هو فكّ رمز غير دقيق لعبارة شعبيّة عبريّة هي "إلغا" طالما كان الموساد يطلقها على وكالة الاستخبارات الأميركيّة CIA، يضاف إلى ذلك أنّ كلمة "ميغا" جزء من كلمة معروفة للاستخبارات الأميركيّة في "ميغاواط"، وهي الإسم الرمزيّ الذي كان متداولاً حتّى

الآونة الأخيرة ويستخدم من قبل الموساد أيضًا للإشارة إلى تقاسم المعلومات السريّة. ولحسن الدلالة يقتضي أن يشير المتطوّعون أيضًا إلى أنّ هناك كلمة أخرى هي "كيلوواط" التي تستخدم للمعلومات المتعلّقة بالإرهاب التي هي برسم التقاسم بين استخبارات البلدين. وختم ياتوم كلامه بالقول إنّه لا حاجة الآن لاتّخاذ أيّ تدبير.

وفي آذار ـ مارس ١٩٩٧ اتّخذ ياتوم تدبيره لدى تلقّيه معلومات من ضابط الموساد المقيم في واشنطن، فأرسل فريقًا من خبراء الاتّصالات إلى واشنطن لمتابعة ما جاء في تقرير الضابط والمتعلّق بمعلومات عن إجراء الرئيس كلينتون مكالمة جنسيّة مع موظّفة سابقة في البيت الأبيض تدعى "مونيكا لوينسكي". كان كلينتون يجري الاتّصالات من المكتب البيضاوي إلى شقّتها في مجمّع مباني "ووترغيت". وإذ إنّ البيت الأبيض يتمتّع بحماية وقائيّة إلكترونيّة كاملة، فقد ركّز الفريق الاسرائيلي على شقّة لوينسكي وراحوا يعترضون المكالمات الهاتفيّة الجريئة من الرئيس إلى لوينسكي. وكانت التسجيلات ترسل عن طريق ساع بالحقيبة الدبلوماسيّة إلى تلّ أبيب. وفي ٢٧ آذار ـ مارس دعا كلينتون لوينسكي مرّة أخرى إلى المكتب البيضاوي وكشف لها أنّه يعتقد بأنّ سفارة أجنبيّة تسجّل مكالماتها على شريط. ولم يطلعها على أيّ تفصيل آخر لكنّه أنهى العلاقة معها بعد ذلك بوقت قصير.

في تلّ أبيب راح استراتيجيّو الموساد يفكّرون في كيفيّة استخدام المكالمات المسجّلة المخجلة والتي تصلح كمادّة للابتزاز. إلاّ أنّ أحدًا لم يقترح إجراء أيّ محاولة لابتزاز رئيس الولايات المتّحدة. لكنّ البعض رأى في التسجيلات سلاحًا قويًّا بيد إسرائيل يمكنها أن تستعمله كملاذ أخير في قضايا الشرق الأوسط إذا لم تستطع الاعتماد على دعم كلينتون. وكان هناك إجماع عام بضرورة إطلاع مكتب الـ FBI على المكالمات التي جرت بين كلينتون ولوينسكي. وحثّ بعض الاستراتيجيّين ياتوم على استخدام

"القناة الخلفيّة" مع واشنطن وإفهام الـ FBI بأنّ الموساد على علم بمكالمات الرئيس الهاتفيّة. فتكون هذه طريقة تعوزها البراعة لجعل مكتب الـ FBI يتوقّف عن البحث المستمرّ عن "ميغا". واقترح جمهور آخر من المحلّلين اعتماد سياسة التروّي بحجّة أنّ المعلومات ستكون بالغة الإثارة في أيّ وقت إذيعت فيه. وانتصرت وجهة النظر هذه. وفي أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٨، نشر تقرير "ستار"، وكان ياتوم قد تخلّى عن منصبه كمدير عام للموساد. وتضمّن التقرير إشارة مقتضبة إلى تحذير كلينتون للوينسكي في آذار ـ مارس ١٩٩٧ بأنّ هاتفها يخضع لمراقبة سفارة أجنبيّة. ولم يتابع ستار المسألة عندما أدلت لوينسكي بشهادتها أمام هيئة المحلّفين الكبرى في شأن علاقتها العاطفيّة بكلينتون. لكنّ مكتب الـ FBI لم يرَ في المعلومات المثيرة التي كشف النقاب عنها سوى دليل آخر على عجز المكتب عن فضح هويّة "ميغا"...

وبعد ستّة أشهر، وتحديدًا في ٥ آذار ـ مارس ١٩٩٩، نشرت مجلّة "نيو يورك بوست" موضوع غلاف ارتكز إلى الأسرار التي كشفت عنها الطبعة الأولى لكتاب "غوردون طوماس" حول الموساد، وجاء في بداية التحقيق:

> مارست إسرائيل الابتزاز ضدّ الرئيس كلينتون بشرائط تسجيل المكالمات الهاتفيّة للأحاديث الجنسيّة الساخنة مع مونيكا لوينسكي، على حدّ ما جاء في كتاب جديد مثير. وكان الثمن الذي دفعه كلينتون لشراء صمت وكالة التجسّس "الموساد" هو وقف عمليّة البحث التي كان يقوم بها مكتب الـ FBI عن عميل إسرائيليّ سرّي في أعلى مستوًى...

وفي خلال ساعات ظهرت رواية "نيو يورك بوست" في آلاف الصحف الصادرة في أنحاء العالم، وهي تشويه تامّ للحقائق التي نقلها الكتاب المذكور، حيث يقول الكاتب في الطبعة الثانية من كتابه إنّه "اعتنى بالتثبّت منها بالاستناد إلى مصادر في إسرائيل

وهي حقائق يؤكّدها "آري بن مناشي" المستشار السابق لشؤون الاستخبارات لدى الحكومة الإسرائيليّة. فقد سقطت النقطة الأساسيّة في القصّة التي رويتها وهي أنّ المدّعي العام "كينيث ستار" لم يضغط بصورة كاملة لبلوغ تحقيقاته لإدانة الرئيس كلينتون إلى نهايتها المرجوّة. وقد لاحظ ستار في تقريره الشهير أنّه في ٢٩ آذار – مارس ١٩٩٧، قال كلينتون للوينسكي إنّه يشكّ بأنّ سفارة أجنبيّة (لم يعيّنها بالضبط) تسجّل مكالماتها الهاتفيّة. وإذا سألها أيّ كان عن ممارسة الجنس على الهاتف فيجب أن تقول أنّهما كانا يعلمان أنّ مكالماتهما تخضع للمراقبة طوال النهار وأنّ ممارسة الجنس على الهاتف كانت مصطنعة".

وأشارت كلمات الرئيس بأقوى ما يمكن إلى أنّه أصبح يدرك أنّه تحوّل إلى هدف محتمل للابتزاز. وتحدّث كلينتون إلى لوينسكي عبر شبكة هاتف عامّة، وليس هناك أيّ دليل على أنّه حاول أن يجعل الهاتف في شقّتها سريًّا، فكأنّه تعمّد أن يجعل نفسه عرضة لاعتراض المتنصّتين الأجانب... ونظرًا إلى أنّ كلّ رئيس يتلقّى بصورة منتظمة أثناء ولايته تقارير وكالة الأمن القوميّ، فلا شكّ في أنّه كان يعلم أنّ مكالماته إلى مونيكا تصل إلى مفبركي الإشاعات في واشنطن.

على أيّ حال، فقد تبيّن أنّ الموساد لم تكن المنظّمة الوحيدة التي سجّلت على شريط المكالمات الهاتفيّة الجنسيّة. فقد نقلت صحيفة "ذي أريزونا ريبابليك" المحليّة عن السيناتور الجمهوري لولاية أريزونا "جون كيل"، وهو عضو في اللجنة البرلمانيّة للاستخبارات، قوله: "إنّ وكالة استخبارات أميركيّة قد تكون سجّلت على شريط المحادثات الهاتفيّة بين الرئيس كلينتون ومونيكا لوينسكي. إنّ وكالات مختلفة في الحكومة جعلت عملها تسجيل بعض الأمور لأسباب معيّنة، وكانت إحدى هذه الوكالات". ورفض "كيل" أن يكشف للصحيفة هويّة الوكالة أو الوكالات قائلاً: "إنّ ذلك

أمر لا يمكنني إطلاقًا أن أتحدّث عنه بالتفصيل". وتحدّث كيل عن مصادره فقال "من واقع هويّتهم فهم يتمتّعون بالصدقيّة. ويمكنك أن تفترض أنّهم أشخاص كانوا لحيّز من الزمن موظّفين في الحكومة الاتّحاديّة". وعمد إلى مقارنة وجود أشرطة التسجيل بالبرهان الدامغ في فضيحة ووترغيت. غير أنّ هذه المزاعم لم تجر متابعتها في الميدان العام.

وبتوجيه من داني ياتوم رئيس جهاز الموساد، تصدّى اللوبي الصهيوني القوي في الولايات المتّحدة لمطالب المنظّمات العربيّة بتعقّب "ميغا"، بالشراسة نفسها التي كان يظهرها مكتب الـ FBI تجاه جواسيس الدول الأخرى. فلم يفوّت الضيوف اليهود في حفلات العشاء التي يقيمها البيت الأبيض فرصةً دون تذكير الرئيس كلينتون بالضّرر الذي سينجم عن عمليّة بحث غير مسؤولة. وكان هؤلاء الذين بينهم نجوم سينمائيّون ومحامون ورؤساء تحرير صحف يشيرون إلى أنّ الضرر سيكون أعظم إذا قُبض على أحد موظّفي البيت الأبيض. ولمّا كانت رئاسة كلينتون محاصرة بفضيحة لوينسكي، فإنّ مثل هذا التطوّر سيمهّد لانهيارها.

في ٤ تموز ـ يوليو ١٩٩٧، وهو عيد الاستقلال في الولايات المتّحدة، علمَ ياتوم أنّ مكتب FBI قلّل بهدوء من حماسته في البحث عن "ميغا". وبقيت شخصيّة "ميغا"... في المحصّلة، مجهولة[1].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١١٩ ـ ١٢٦، ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

وحدة الاغتيال في الموساد

عام ١٩٩٨ كانت وحدة الاغتيال في الموساد تضمّ ثمانية وأربعين عضوًا ستّة منهم من النسوة. وكانوا جميعًا في العشرينات من أعمارهم، ويتمتّعون بلياقة بدنيّة عالية. كانت إقامتهم وعملهم خارج مقرّ الموساد في تلّ أبيب في منطقة محظورة داخل قاعدة عسكريّة في صحراء النقب. وكان بإمكانهم إحداث تغييرات في تلك المنشأة لتصبح صورة عن الشارع أو العمارة التي سينفّذون فيها عمليّة الاغتيال. وكانت بتصرّفهم سيّارات للفرار، كما كانت توضع عقبات في طريقهم. والمدرّبون أعضاء سابقون في الوحدة، وهم يشرفون على التدريب على استخدام أنواع مختلفة من المسدّسات، ويلّمون أعضاء الوحدة كيف يخفون القنابل ويحقنون أحد الناس بحقنة سامّة وسط الزحام، ويجعلون عمليّة القتل تبدو عرضيّة. وكان أعضاء المجموعة يشاهدون أفلامًا لعمليّات اغتيال ناجحة، مثل اغتيال الرئيس جون ف. كينيدي مثلاً. وكانوا يدرسون وجوه وعادات عشرات الأهداف المحتملة المخزونة في كومبيوتر تابع للقسم وبالغ السريّة. ويحفظون عن ظهر قلب خرائط شوارع المدن الرئيسيّة المتغيّرة باستمرار بالإضافة إلى تصاميم الموانئ الجويّة والبحريّة. وتعمل الوحدة في فرق يتألّف كلّ منها من أربعة أشخاص يسافرون بصورة منتظمة في رحلات للتآلف إلى لندن وباريس وفرانكفورت ومدن أوروبيّة أخرى. كما يقوم هؤلاء من حين إلى آخر برحلات إلى نيو يورك ولوس أنجيلوس وتورنتو. وخلال هذه الأسفار الخارجيّة كان يرافق الفريق مدرّبون يقيّمون مهارات أعضائه في التخطيط لإحدى العمليّات من دون لفت الأنظار إلى ما يفعلونه. وكانت الأهداف المختارة من المتطوّعين المحليّين الذين

كانوا يُخطَرون فقط بأنّهم بشاركون في تمرين أمنيّ يهدف إلى حماية منشأة تملكها إسرائيل. وكان المتطوّعون يجدون أنفسهم هدفًا لهجوم باغت في شارع هادئ ومحشورين داخل سيّارة، أو كانوا يهاجَمون في بيوتهم في منتصف الليل فيستيقظون ليجدوا أنفسهم في مواجهة السلاح.

أسوأ يَومٍ في تَارِيخِ نَتَنيَاهُو السِّياسيّ

في ٣١ تمّوز ـ يوليو ١٩٩٦، ثاني يوم مقتل ١٥ إسرائيليًّا وجرح ١٥٧ آخرين في عمليّة انتحاريّة دبّرتها حركة "حماس" في سوق القدس، حضر رئيس الموساد داني ياتوم اجتماعًا برئاسة رئيس الوزراء "بنيامين نتنياهو"، الذي كان قد عاد لتوّه من مؤتمر صحافيّ مشحون بالعاطفة تعهّد في خلاله بألاّ يهدأ حتّى يقتصّ من مدبّري العمليّات الانتحاريّة.

كان نتنياهو يبدو للعيان هادئًا وموطّد العزم، وكانت ردوده على الأسئلة مدروسة ورزينة. كان يقول إنّ حركة "حماس" لن تنجو من العقاب، ولكن شكل هذا العقاب ليس موضوعًا للنقاش العلنيّ. كان هذا هو "بيبي" الذي ظهر على شاشة قناة CNN التلفزيونيّة الفضائيّة في خلال حرب الخليج، وأدلى بتقديرات محكمة عن ردود فعل الحكومة العراقيّة وكيف تنظر إسرائيل إليها. لكنّ نتنياهو، في غياب الكاميرات وبحضور ياتوم وكبار ضبّاط الاستخبارات الآخرين ومستشاريه السياسيّين، كان في ذلك اليوم الخانق شخصًا آخر. لم يكن هادئًا ولا محلّلاً. بل إنّه كان في غرفة المؤتمرات الحاشدة المجاورة لمكتبه كثيرًا ما قاطع المتحدّثين ليصيح بأنّه سيقتصّ من

"لقطاء" حماس حتّى ولو كان آخر عمل يقوم به. وينقُل عنه أحد المخبرين قوله: "جئت بكم لتقولوا لي كيف أفعل ذلك. ولا أريد أن أقرأ في الصحف شيئًا عن انتقام "بيبي" فهذا أمر يتعلّق بالعدالة... عقاب عادل".

كان ياتوم معتادًا على نوبات المزاج الزئبقيّ التي تنتاب رئيس الوزراء، فجلس قبالته على الطاولة صامتًا بينما استمرّ نتنياهو بالوعيد: "أريد رؤوسهم. أريد موتهم. لا يهمّني كيف يحصل ذلك، فقط فليحصل. وأريد ذلك عاجلاً وليس آجلا".

اشتدّ التوتّر عندما طلب نتنياهو من ياتوم أن يزوّده بقائمة لجميع زعماء حركة حماس وأماكن وجودهم الراهنة. لم يسبق لأيّ رئيس وزراء أن طلب تفاصيل عملانيّة حسّاسة في مثل هذه المرحلة المبكّرة. وظنّ غير واحد من الحضور أنّ "بيبي يريد إفهامنا أنّــه سيتولّى الإشراف على هذه العمليّة بنفسه". وتعمّق لدى بعض ضبّاط الموساد الشعور المربك بأنّ نتنياهو يقرّب الجهاز منه أكثر ممّا يُحتمل. وربّما لشعور ياتوم بذلك أبلغ رئيس الوزراء أنّه سيزوّده بالقائمة في ما بعد. وقدّم رئيس الموساد بديلاً قائلاً: "إنّ الوقت قد حان لبحث الجانب العمليّ للأمور". فالعثور على أماكن إقامة زعماء حماس أمر دونه صعوبات.

ومرّة أخرى انفجر نتنياهو بالصياح. فهو لا يريد الأعذار بل يريد أعمالاً. وهو يريد أن يبدأ العمل "هنا الآن".

بعدما انفضّ الاجتماع كان لدى عدد من ضبّاط الاستخبارات انطباع بأنّ بيبي نتنياهو تجاوز الخطّ الدقيق الفاصل بين الضرورة السياسيّة والشروط العملانيّة. لم يكن في الغرفة أحد لم يفهم أنّ نتنياهو كان بحاجة ماسّة إلى ضربة موفّقة للاستهلاك المحلّي لإقناع الجمهور بأنّ سياسة التصدّي الحازم لأعمال المقاومة الفلسطينيّة التي أوصلته إلى السلطة لم تكن كلامًا فارغًا. كذلك فكان قد خرج من فضيحة إلى أخرى،

وكان في كلّ مرّة ينقذ نفسه بإلقاء اللوم على الآخرين. كانت شعبيّته عند أدنى مستوياتها، وحياته الشخصيّة مادّة للصحافة. وكان في أمسّ الحاجة إلى الظهور بمظهر الحاكم الفعليّ، وكان الإتيان برأس حماس وصفة موثوقة.

لعلّ ضابط الاستخبارات الكبير الذي علّق على ما يجري كان يتحدّث باسم الآخرين إذ قال: "كنّا متّفقين على عدم الاعتراض على مبدإ قتل الحيّة بقطع رأسها، ولكن ما أقلقنا هو إطار الوقت. كلّ كلام بيبي عن "العمل الآن" كان هراء. فأيّ عمليّة لها هذه الطبيعة تتطلّب التخطيط المتأنّي. كان بيبي يريد نتائج سريعة كما لو أنّ العمليّة لعبة كومبيوتر أو كما لو أنّ واحدنا مثل أبطال أفلام الأعمال المثيرة القديمة التي يحبّ مشاهدتها. لكنّ مثل هذه الأمور لا تحدث في العالم الحقيقيّ".

أمر ياتوم بإجراء عمليّة تفتيش واسعة في كلّ قرية عربيّة، وأرسل ضبّاط الاستخبارات إلى غزّة والضفّة الغربيّة لجمع مزيد من المعلومات عن أماكن وجود قادة حماس السريّين. وقد استدعاه رئيس الوزراء إلى مكتبه مرّات عدّة في خلال شهر آب - أغسطس ١٩٩٧ ليسمع تقريره عن مدى التقدّم الذي حقّقه... ورأى أنّه أنّه لم يحقّق شيئًا. وتعجّ أجهزة الاستخبارات الاسرائيليّة بروايات عن طلب رئيس الوزراء من ياتوم أن يرسل أعدادًا أخرى من الرجال في إطار العمليّة، وكيف أنّه ألمح إلى أنّه ما لم يرَ نتائج ملموسة قريبًا جدًّا فقد يلجأ إلى "إجراءات أخرى". وسواء أراد نتنياهو أن يكون كلامه تهديدًا أخرق لرئيس الموساد أم لا، فإنّ ذلك لم يفلح. فقد ردّ ياتوم بالقول إنّه "يفعل كلّ ما هو ممكن". كان مغزى الكلام أنّه إذا أراد رئيس الوزراء أن يطرده من منصبه فهذا بعض صلاحيّاته، ولكنّ الجدال العلنيّ الذي سيعقب ذلك لا محالة سيطرح أسئلة تتناول دور نتنياهو نفسه. لكنّ رئيس الوزراء استمرّ بطلب موت أحد قادة حماس وكان يريد ذلك بأسرع وقت.

بحلول أيلول - سبتمبر ١٩٩٧، كان نتنياهو قد بدأ يتّصل بياتوم خلال كلّ ساعات الليل ليسأل عن سير الأمور. وأذعن رئيس الموساد للضغوط، فاستدعى ضبّاطًا من مواقع أخرى. ويقول أحدهم إنّ ياتوم "كان يعيد رسم الخريطة كردّ فعل انعكاسيّ على إلحاح بيبي. وياتوم رجل صلب. ولكن حين يتعلّق الأمر بالدفع والجذب فهو ليس ندًّا لنتنياهو الذي كان قد بدأ يتحدّث عن السرعة الفائقة التي بها وضع أخوه الخطّة للإغارة على عنتيبي. لم يكن لهذه المقارنة أيّ معنًى. ولكن هذه هي طريقة نتنياهو دائمًا: إستخدم أيّ شيء لإنفاذ إرادته".

في ٩ أيلول سبتمبر وصلت إلى إسرائيل أنباء تفيد بأنّ حماس نفّذت عمليّة جديدة أدّت هذه المرّة إلى إلحاق إصابات بالغة بحارسَين إسرائيليّين للملحق الثقافي في سفارة إسرائيل المفتتحة حديثًا في العاصمة الأردنيّة عمّان.

بعد ثلاثة أيّام وقُبيل بدء العطلة الرسميّة الأسبوعيّة طلب نتنياهو من ياتوم أن يأتي لتناول الغداء معه في منزله في القدس. وقد تناول الرجلان وجبة من الحساء والسلطة والسمك وتجرّعا بعض الجعة والمياه المعدنيّة، وعلى الفور أثار رئيس الوزراء موضوع عمليّة عمّان. كيف تمكّن مسلّحو حماس أن يصلوا إلى هذا القرب ويطلقوا النار؟ لماذا لم يحصل الإنذار المبكّر؟ ماذا سيفعل فرع الموساد في عمّان بهذا الشأن؟... قاطع ياتوم نتنياهو وهو في عزّ اندفاعه بقوله: "هناك زعيم لحماس في عمّان، إسمه خالد مشعل، يدير المكتب السياسي للحركة من مكتب في المدينة. أمضى الأسابيع الأخيرة وهو مسافر في مختلف البلدان العربيّة، لكنّ الموساد في عمّان أفاد أنّه عاد إليها".

فأجاب نتنياهو كمن مسّه تيّار كهربائيّ: "إذًا اذهبوا إليه واصرعوه، هذا ما يجب أن تفعلوه. إصرعوه، أرسلوا جهازكم في عمّان ليتولّى ذلك".

كان رئيس الموساد تحت وطأة ضغط لا يرحم مارسه عليه رئيس الوزراء طوال نحو ستّة أسابيع، وقد أظهر نتنياهو خلال ذلك أنّه لا يحيط بالحساسيّة السياسيّة لأيّ عمليّة استخباراتيّة. فراح يشرح لنتنياهو درسًا واضحًا. وخلف نظّارتيه ضاقت عيناه وهو يحذّر رئيس الوزراء من أنّ شنّ هجوم في عمّان سيدمّر العلاقة مع الأردنّ التي أنشأها سلفه إسحق رابين. وقتل مشعل على التراب الأردنيّ سيقوّض عمليّات الموساد في بلد قدّم فيضًا متواصلاً من المعلومات السريّة للموساد... وكان ياتوم يرى أنّه من الأفضل انتظار خروج مشعل مرّة أخرى من عمّان ثمّ قتله. ويُروى أنّ نتنياهو قد ردّ على ياتوم بالصياح: "أعذار... لا أسمع منك إلاّ الأعذار. إنّني أريد عملاً. وأريد ذلك الآن. الناس تريد عملاً. قريبًا يحلّ عيد رأس السنة (اليهوديّة). وهذه ستكون هديّتي لهم".

منذ تلك اللحظة، صارت كلّ خطوة يتّخذها ياتوم بحاجة إلى موافقة شخصيّة من نتنياهو. لم يسبق لأيّ رئيس وزراء أسرائيلي أن أظهر هذا الاهتمام الشخصيّ الكبير بعمل إجراميّ ترعاه الدولة[1]...

كان خالد مشعل في الحادية والأربعين من عمره، فهو من مواليد قرية "سلواد" في قضاء رام الله سنة ١٩٥٧، غادر إلى الكويت مع عائلته، وكان والده إمام مسجد في الكويت. درس في المدارس الكويتيّة، ثمّ في الجامعة الكويتيّة، وحصل على بكالوريوس في الفيزياء، في عام ١٩٨١، تزوّج وأنجب سبعة أطفال.

كان خالد شابًّا ملتحيًا وقويّ البنية، قاد أثناء دراسته "التيّار الإسلاميّ" في الكويت، وانضمّ إلى حركة "الإخوان المسلمين، وانضمّ في عام ١٩٧٨ إلى حركة حماس. وفي

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٤٣ ـ ١٤٧.

سنة ١٩٩١ أُبعد من الكويت إلى الأردن في أعقاب حرب الخليج، وأصبح عضوًا في المكتب السياسيّ لحماس الذي يرأسه صديقه الدكتور "موسى أبو مرزوق"، بعدها أصبح الممثّل الخارجيّ لحماس، وأجرى اتّصالات خارجيّة مع دول عديدة.

بعد اعتقال أبو مرزوق في الولايات المتّحدة الأميركيّة عام ١٩٩٦، عيّن خالد مشعل رئيسًا للمكتب السياسيّ لمنظّمة حماس، وأصبح الشخصيّة القياديّة الأولى في المنظّمة.

في أعقاب التفتّت الصهيونيّ وعدم الاستجابة للنداءات الدوليّة لتنفيذ اتّفاقيّات أوسلو، وفي ظلّ الحصار الاقتصاديّ للشعب الفلسطينيّ، وتوسيع المستوطنات، واتّباع سياسة التجويع للشعب الفلسطينيّ، كان لا بدّ من عمل ما يدوس الغطرسة الإسرائيليّة المعتادة، طالما أنّ الشعب الفلسطينيّ في الداخل لم يزل قادرًا على متابعة الكفاح. وعلى هذا الأساس، قامت كتائب "عزّ الدين القسّام" بسلسلة عمليّات استشهاديّة داخل القدس في سوق "بامحانيا" و"مدرحوف"، نجم عنها أكثر من ثمانين قتيلاً وجرح نحو مائتين وأربعين إسرائيليًّا[١].

كان خالد مشعل يقيم إلى جوار قصر الملك حسين في عمّان، وكان معروفًا بتعلّقه بزوجته وأطفاله السبعة. كان مهذّبًا وعذب الحديث، وقد بقي شخصيّة محاطة ببعض الغموض في الحركة الإسلاميّة.

المعلومات المتجمّعة على عجل لدى فرع الموساد في عمّان أفادت أنّ مشعل هو العقل المدبّر وراء الهجمات الانتحاريّة على المدنيّين الاسرائيليّين. وتوافرت لدى

---

١ ـ النمر مروان توفيق، ورشيد ربيع سليمان، الموساد والإخفاقات الأخيرة، دار الفارابي (بيروت،١٩٩٨) ص١٢٦ ـ ١٣٥.

الموساد تفاصيل عن تحرّكات مشعل بالإضافة إلى صورة فوتوغرافيّة له التقطها خلسة رئيس فرع الموساد. أرفق هذا الأخير تقريره بمناشدة شخصيّة أن يسعى ياتوم مرّة أخرى إلى إقناع نتنياهو بألاّ يمضي في خطّة الاغتيال في عمّان. إنّ مثل هذا العمل الأرعن سيعرّض للخطر عملاً مهمًّا مضادًّا للتجسّس استغرق عامين تعاون فيه الأردن. إلاّ أنّ نتنياهو رفض المناشدة قائلاً إنّها نذير فشل وهو أمر لا يطيقه.

في هذه الأثناء، كان فريق اغتيال من ثمانية أشخاص يعدّ العدّة: كان شخصان سيتولّيان فعليًّا عمليّة إطلاق النار في وضح النهار، أمّا الأخرون فسيقدّمون المساندة بما في ذلك السيّارات. وسينطلق الفريق بكامل أعضائه عائدًا إلى إسرائيل عبر جسر أللنبي قرب القدس. وكان سلاح الجريمة الذي سيستخدمه الموساد غير مألوف. فهو ليس مسدّسًا بل قارورة معبّأة بغاز الأعصاب. كانت تلك أوّل مرّة يستعمل فريق اغتيال إسرائيليّ طريقة القتل هذه التي كانت الاستخبارات السوفياتيّة KGB وغيرها من وكالات الاستخبارات في الكتلة السوفياتيّة قد طوّرتها إلى درجة الكمال. وكان العلماء الروس اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل حديثًا قد تجنّدوا في خدمة الموساد لصنع تشكيلة من الغازات السامّة المميتة، بما في ذلك "طابون" و"سارين" و"سومان" وجميعها غازات أعصاب تحرّمها المعاهدات الدوليّة. وقد صمّمت هذه الموادّ لتتسبّب بالموت الفوريّ أو البطيء. وفي كلّ الحالات يفقد الضحيّة السيطرة على أعضائه الداخليّة ويعاني ألمًا مبرّحًا يتمنّى معه الموت. وقد اختار الموساد هذا الشكل من الموت لمشعل.

في ٢٤ أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٧، وصلت وحدة الاغتيال جوًّا إلى عمّان من أثينا وروما وباريس حيث أمضى أعضاؤها أيّامًا قبل بدء تحرّكهم. كان بعض الأعضاء يحمل وثائق سفر فرنسيّة وإيطاليّة، وأعطي القاتلان الفعليّان جوازي سفر كنديّين

بإسمي "باري بيدس" و"شون كندال". وقد زعما لموظّفي فندق "إنتركونتيننتال" في عمّان أنّهما سائحان. أمّا أعضاء الوحدة الآخرون فقد باتوا ليلتهم في السفارة الاسرائيليّة على مسافة قصيرة من الفندق. وفي اليوم التالي التحق بيدس وكندال بالباقين. وتفحّص الرجلان من جديد القارورة، سلاح الجريمة. وما كان أحد يعرف ما نوع غاز الأعصاب الذي تحتوي عليه. وتكهّن العملاء بأنّه قد يُحدث كلّ الأعراض من الهلوسة إلى النوبة القلبيّة قبل إحداث الوفاة.

وأطلعهم رئيس فرع الموساد على آخر تحرّكات مشعل. وكان مسؤول الموساد هذا في لندن في أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٨ عندما قُتل منشقّ بلغاريّ يدعى "جورجي ماركوف" بغاز الأعصاب. كان أحد المارّة قد طعنه في فخذه بطرف مظلّة، ومات ماركوف ميتة شديدة الألم تسبّب بها سمّ "الريسين" القاتل المصنوع من بذور نبتة زيت الخروع. كان من طعنه عميلاً في الاستخبارات السوفياتيّة ولم يُقبض عليه أبدًا. وقد أحسّ بيدس وكندال بالتفاؤل بعد سماعهما هذه القصّة، وعادا إلى فندقهما قُبيل منتصف الليل. وطلب كلّ منهما طعام الفطور في غرفته وفيه قهوة وعصير برتقال ومعجّنات دانماركيّة. وفي صباح اليوم التالي عند الساعة التاسعة وصل بيدس إلى بهو الفندق ووقّع على قسيمة ليتسلّم سيّارة مستأجرة زرقاء اللون من طراز تويوتا. وبعد قليل وصلت سيّارة ثانية خضراء اللون من طراز هيونداي كان كندال قد استأجرها. وقال كندال لموظّفي الاستقبال إنّه وصديقه عازمان على استكشاف جنوب البلاد.

عند الساعة العاشرة صباحًا كان مشعل في سيّارة يقودها سائق شخصيّ متّجهًا إلى مقرّ عمله. وفي المقعد الخلفيّ للسيّارة كان ثلاثة من أطفاله، صبيّ وبنتان. تبعه بيدس بسيّارته المستأجرة بحذر. وكان باقي أعضاء الفريق في الطريق في سيّارات أخرى. وحالما دخلوا منطقة الحدائق في المدينة، أبلغ السائق مشعل بأنّ أحدًا يتعقّبهم، فاتّصل

مشعل هاتفيًا من السيّارة بدائرة الشرطة في عمّان ليبلّغهم ماركة سيّارة بيدس ورقم لوحتها.

عندما مرّت سيّارة التويوتا لوّح أطفال مشعل بأيديهم لبيدس كما كانوا يفعلون لسائقي السيّارات الآخرين، فتجاهلهم عميل الموساد. بعدئذ خرجت سيّارة كندال الهيونداي الخضراء من الصفّ أمام سائق مشعل، واختفت السيّارتان في الزحام. وبعد لحظات اتّصل ضابط في دائرة شرطة عمّان بمشعل ليقول له إنّ السيّارة يستأجرها سائح كنديّ. فارتاحت أعصاب مشعل وراح يراقب أطفاله من جديد وهم يلوّحون بأيديهم لسائقي السيّارات وقد وضعوا وجوههم على زجاج النافذة. كلّ صباح كانوا يتناوبون على الذهاب مع والدهم إلى عمله قبل أن يوصلهم السائق إلى مدرستهم.

قُبيل الساعة العاشرة والنصف دخلت سيّارة مشعل شارع "وصفي التلّ" حيث كان حشد من الناس يتجمّعون عند مدخل مكتب حماس. وكان بينهم كندال وبيدس اللذان لم يثر وجودهما الارتياب، فكثيرًا ما كان السيّاح الفضوليّون يأتون إلى المكتب ليستزيدوا معرفة بطموحات حماس.

قبّل مشعل أطفاله بسرعة قبل أن يغادر السيّارة. وخطا بيدس نحوه كما لو كان يريد مصافحته. وكان كندال فوق كتفه يتحسّس بارتباك كيسًا بلاستيكيًّا. وسأل بيدس بلطف: "السيّد مشعل"؟ فنظر إليه المشعل بارتياب. في تلك اللحظة أخرج كندال القارورة وحاول أن يرشّ ما فيها داخل أذن المشعل اليسرى. إلاّ أنّ زعيم حماس تنبّه وتراجع مذعورًا، وراح يمسح شحمة أذنه. وحاول كندال مرّة أخرى أن يرشّ الغاز داخل أذن المشعل، غير أنّ الناس من حوله كانوا قد بدأوا يستفيقون من دهشتهم فامتدّت الأيدي تحاول الإمساك بالعميلين... وصاح بيديس بالعبريّة: أهرب. وركض بيدس مسرعًا إلى سيّارته المركونة على مسافة قصيرة وكندال وراءه. وإذ كان سائق

المشعل قد رأى ما يجري بدأ يتراجع بسيّارته ليصدم سيّارة التويوتا. في هذا الوقت، كان المشعل يترنّح ويئنّ والناس يحاولون الإمساك به حتّى لا يقع، وكان آخرون يصيحون طالبين سيّارة إسعاف.

تمكّن بيدس من تجنّب الاصطدام بسيّارة المشعل، وقاد سيّارته بسرعة إلى أعلى الطريق، بينما كندال إلى جانبه لا يزال يتشبّث بالقارورة نصف الفارغة. وكانت سيّارات أخرى تتعقّبه. وكان أحد السائقين يستخدم هاتفًا خلويًا ويدعو إلى إغلاق الطرق في المنطقة. كما كان سائق المشعل يتّصل بدائرة الشرطة من هاتف سيّارته. وعند هذا الحدّ، كانت عناصر المساندة في فريق الاغتيال قد وصلت. فتوقّف أحدهم ولوّح لبيدس أن يترك سيّارته ويصعد معه. وما أن خرج رجلا الموساد من سيّارة التويوتا حتّى كانت عربة أخرى تقطع عليهما الطريق، ويخرج منها عدد من الرجال المسلّحين الذين أرغموا بيدس وكندال على الانبطاح أرضًا. وبعد لحظات وصلت الشرطة. وإذ تأكّد لباقي عناصر فريق الاغتيال أن الأمر أفلت من أيديهم، رحلوا بسيّاراتهم، وتمكّنوا أخيرًا من العودة إلى إسرائيل خلسة.

نُقل بيدس وكندال إلى مقرّ الشرطة في عمّان وهناك أخرجا جوازي سفرهما الكنديّين وظلاّ يصرّان على أنّهما ضحيّتان "لمخطّط رهيب". لكنّ وصول قائد وحدة مكافحة الاستخبارات الأردني المرعب "سميح البطيحي" وضع حدًّا لادّعائهما. قال لهما إنّه يعرف من يكونان وإنّه قد أنهى للتوّ مكالمة مع مدير فرع الموساد... ويقول البطيحي إنّ مسؤول الموساد في ما بعد "باح بكلّ شيء. وقال إنّ هذين من جماعته وإنّ إسرائيل ستعالج الأمر مباشرة مع الملك".

أمر البطيحي باحتجاز عميلَي الموساد في زنزانتَين منفصلتَين، على ألاّ يُلحَق بهما أيّ إذى.

في هذه الأثناء، أُدخل المشعل إلى وحدة العناية الفائقة في مستشفى عمّان الرئيسي. كان يشكو من طنين مستمرّ في أذنه اليسرى، ومن "شعور بالرعشة كما لو أنّ صدمة كهربائيّة تسري في جسدي"، وكان يجد صعوبة متزايدة في التنفّس. فوضعه الأطبّاء على جهاز للتنفّس الاصطناعيّ.

بلغت أخبار فشل عمليّة ياتوم عبر اتّصال هاتفيّ سرّي من رئيس فرع الموساد في السفارة الاسرائيليّة في عمّان. ويُقال إنّ الرجلَين كانا وراء حدود الغضب إزاء الفشل. وعندما وصل ياتوم إلى مكتب نتنياهو كان الأخير قد تلقّى مكالمة هاتفيّة من الملك حسين على الخطّ الأحمر الذي أقيم بين الزعيمَين لمعالجة الأزمات الطارئة. وقد تحدّث أحد ضبّاط الاستخبارات الاسرائيليّة عن جوّ المكالمة في ما بعد، فقال: "سأل حسين بيبي سؤالَين: ماذا يظنّ أنّه يفعل؟ وهل عنده ترياق للسمّ في غاز الأعصاب؟".

قال الملك إنّه يشعر كما لو أنّ أعزّ أصدقائه قد اغتصب ابنته، وإنّه إذا كان نتنياهو يفكّر بإنكار المسؤوليّة فليعلم أنّ عميليه أدليا باعترافات كاملة على شريط فيديو هو في طريقه إلى واشنطن لتشاهده وزيرة الخارجيّة الأميركيّة "مادلين أولبرايت".

جلس نتنياهو محنيًّا فوق الهاتف "كلصّ ضُبط متلبّسًا". وعرض أن يأتي جوًّا وعلى الفور إلى عمّان لشرح الموقف إلى الملك. فنصحه حسين بألاّ يضيّع وقته. ويستعيد ضابط الاستخبارات ما جرى: "كان جوّ المحادثة جليديًّا. ولم يحتجّ بيبي عندما أبلغه الملك حسين بأنّه يتوقّع الآن أن تُطلق إسرائيل سراح الشيخ أحمد ياسين[1]، بالإضافة إلى عدد من السجناء الفلسطينيّين... وقد استغرقت المكالمة بضع دقائق. ولعلّها كانت أسوأ لحظة في تاريخ بيبي السياسي".

---

١ ـ الشيخ أحمد ياسين: زعيم حركة "حماس" الذي كانت تعتقله إسرائيل منذ سنوات، ثمّ اغتالته في ربيع ٢٠٠٤.

بعدها تسارعت الأحداث. وفي خلال ساعة أُرسل الترياق جوًا إلى عمّان على متن طائرة عسكريّة إسرائيليّة وقُدّم لمعالجة المشعل، فبدأ يتماثل للشفاء. وخلال أيّام تحسّنت صحّته، وعقد مؤتمرًا صحافيًّا استخفّ فيه بالموساد. وعقد رئيس فرع الموساد في عمّان وسميح البطيخي اجتماعًا قصيرًا تحدّثا في خلاله على الهاتف مع ياتوم الذي وعد بجدّية بألاّ ينفّذ الموساد أيّ حادثة اغتيال أخرى على أرض الأردن. وفي اليوم التالي أجرت مادلين أولبرايت مكالمتَين هاتفيّتَين مع نتنياهو أوضحت فيهما رأيها بما جرى مستخدمة أحيانًا عبارات بمثل قسوة عبارات الملك حسين. وإذ علمت كندا كيف أسيء استعمال جواز سفرها، استدعت سفيرها في إسرائيل، في خطوة تبعد مسافة قصيرة عن قطع العلاقات الدبلوماسيّة. وما أن بدأت التفاصيل تتّضح حتّى تناولت الصحافة الاسرائيليّة والعالميّة نتنياهو بالنقد الشديد الذي كان سيدفع بأيّ مسؤول آخر إلى تقديم استقالته. وفي غضون أسبوع، أُطلق سراح الشيخ ياسين فاستُقبل استقبال الأبطال في غزّة. وعاد كندال وبيدس إلى إسرائيل من دون جوازي سفرهما اللذين سلّما إلى السفارة الكنديّة في عمّان "ليحفظا". ولم يعد ضابطا الاستخبارت إلى وحدة الاغتيال، فقد أحيلا إلى الأعمال المكتبيّة العامّة في مقرّ الموساد. ووفقًا لأحد ضبّاط الاستخبارات الاسرائيليّة فإنّ ذلك "قد يعني تكليفهما أمن مراحيض المبنى". أمّا ياتوم، فقد أصبح منذ ذلك التاريخ "رئيسًا كسيحًا". وشعر كبار مساعديه أنّه لم يتصدَّ لنتنياهو. وهبطت المعنويّات أكثر في صفوف الموساد. وسرّب مكتب رئيس الوزراء أنباء تفيد بأنّ "رحيل ياتوم أصبح لا بدّ منه". وقد حاول ياتوم أن يجتثّ ما شبّه به أحد كبار ضبّاط الموساد بـ"موجة الوهن العارمة التي كنّا نغرق فيها". فاتّخذ ياتوم ما أسماه "وقفة بروسيّة"، محاولاً أن يُخضع موظّفيه، فوقعت مجابهات غاضبة وتهديدات بالاستقالة[١].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص١٤٣ ـ ١٥٢.

عَمليَّة انصَاريَه أو "فخّ العبَّاس"

انصاريّة، وتتبعها منطقة دير تقلا، قرية جنوبيّة لبنانيّة تقع في قضاء صيدا ـ الزهراني على متوسط ارتفاع ١٠٠م عن سطح البحر، وعلى مسافة ٦٦ كلم عن بيروت عبر صيدا ـ الزهراني ـ عدلون. مساحة أراضيها ٧٣٥ هكتارًا، وزراعتها حمضيّات وخضار وحبوب. عدد أهاليها المسجّلين نحو ٢,٤٠٠ نسمة من أصلهم حوالى ١,١٠٠ ناخب، ينزح بعضهم إلى العاصمة والضواحي طلبًا للعمل.

عند الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة من بعد منتصف ليل الرابع ـ الخامس من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٧، دوّى انفجار كبير في قرية انصاريه، تلاه سلسلة انفجارات أقلّ قوّة من الانفجار الأوّل، وارتفعت ألسنة النار. وبعد دقائق قليلة انطلقت الرشّاشات والأسلحة الخفيفة في منطقة انصاريه لتبدأ معركة عنيفة بين الطوّافات الإسرائيليّة والمقاومين في الجنوب اللبنانيّ من رجال المقاومة الوطنيّة والإسلاميّة والجيش اللبنانيّ هناك، ولم تُعرف تفاصيل تلك المعركة إلاّ بعد مرور ساعات على وقوعها.

تبيّن بعد ذلك أنّ وحدة من رجال الكوماندوس الإسرائيليّ، تابعة للبحريّة، اقتربت من الشاطئ ثمّ استعمل عناصرها أجهزة غطس ليصلوا إلى الساحل، وما لبثوا أن سلكوا سيرًا على الأقدام طريقًا باتّجاه القرية، وهم يحملون عبوات للتفجير وأسلحة رشّاشة، دون أن يُعرف بالضبط ما هو الهدف المقصود من هذه العمليّة، حيث

تضاربت الآراء حول إمكانيّة نسف مركز للمقاومة الإسلاميّة، أو خطف مسؤول أمنيّ عسكريّ، أو القضاء على مجموعة قادة دفعة واحدة...

وعلى ما يبدو، فإنّ عبوّة ناسفة كان قد زرعها المقاومون اللبنانيّون في تلك المحلّة قد تمّ تفجيرها عن بعد، وأدّى الانفجار إلى تفجير العبوات التي كان يحملها الجنود الإسرائيليّون الغزاة، الذين كلّفوا من جهاز الموساد، وبتخطيط منه، بالتوجّه إلى الأراضي اللبنانيّة، تحت جناح الظلام، وإلى قرية انصاريه تحديدًا، لكنّهم فوجئوا بيقظة المقاومة الوطنيّة والإسلاميّة اللبنانيّة، وبتصدّيها البطوليّ للمجموعة الإسرائيليّة وإبادتها، كعنوان عريض لفشل ذريع وقاس للموساد، قلّما عرفت مثيله أيّ عمليّة مشابهة من هذا النوع.

كانت القوّة الإسرائيليّة قد خرجت على متن زورق صاروخيّ إسمه "ساطيل"، وكانت عبارة عن مجموعتَين، الأولى للتنفيذ، وهي مؤلّفة من ستّة عشر رجلاً، والأخرى مجموعة إنقاذ وإخلاء، بقيادة ضابط برتبة عقيد. أمّا مجموعة التنفيذ فكانت بقيادة ضابط برتبة مقدّم يدعى "يوسف كوركين"، يساعده الرائد "إسحق بن طوف"، والنقيب "رام لونيم" والنقيب "تسفي كروسمان"، والنقيب "راز تيف"، ومجموعة من ضبّاط الصفّ. وكانت النتيجة مقتل أحد عشر جنديًّا وضابطًا إسرائيليًّا وجرح أربعة آخرين.

أمّا في مجموعة الإخلاء، فقد قُتل طبيب برتبة رائد، وجُرح ممرّض، وأصيب جسم الطائرة الحوّامة بأضرار طفيفة، وقد اعترفت السلطات الإسرائيليّة بإصابتها قائلة إنّها تمكّنت من الوصول إلى قاعدتها بسلام. وقد عرضت التلفزة الإسرائيليّة صورًا لهذه المروحيّة وهي من طراز "بيسعور"، وقد أُصيبت بشظايا قذيفة هاون أثناء عمليّة إخلاء المصابين.

وفي اليوم التالي كانت ردّة الفعل الإسرائيليّة عنيفة على هذه العمليّة التي تمثّل "قمّة الفشل والإخفاق" على الصعيد العسكريّ والأمنيّ والإستخباراتي. وقد سارعت الصحافة الإسرائيليّة، على غير عادتها، إلى نشر المعلومات الكاملة عن العمليّة، وشنّت هجومًا صارخًا على حكومة نتنياهو وعلى الأجهزة الاستخباراتيّة الفاشلة، واعتبر بعضها أنّ لبنان بات "لعنة على رؤوس الإسرائيليّين"[1].

رئيس الحكومة الإسرائيليّة آنذاك، بنيامين نتنياهو، بعد اجتماع للمجلس الأمنيّ في مكتبه أعلن أنّ "الوحدة المختارة في سلاح البحريّة، دخلت لبنان لتنفيذ عمليّة معيّنة، ولكن حدثت مأساة... إنّها واحدة من أسوإ المآسي التي واجهتنا... ليست هذه العمليّة الأولى من نوعها، فنحن نقوم بعمليّات كهذه منذ عشرات السنين، وشاركتُ أنا في بعضها في حينه... وقد وقعت مآس في الآونة الأخيرة... وسنفحص تفاصيل ما حدث جيّدًا ونستخلص دروسًا... ولكن ما دامت هناك عمليّات عدائيّة ضدّنا من جنوب لبنان، فإنّ النتيجة واحدة لا تتغيّر".

وقال نتنياهو أيضًا في مجال آخر: "إنّ هذه العمليّة هي واحدة من أسوإ المآسي التي واجهتنا... ولست أبالغ إذا قلت بأنّنا فقدنا بعض أفضل جنودنا... لقد ذهبت وحدة إلى هناك، وفي مثل هذه الحالات هناك دائمًا خطر حصول شيء رهيب... لقد سبق وحصل العديد من المآسي لكنّي لم أرَ مأساة من هذا النوع"[2].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٠٥ ـ ١٠٦؛ النمر مروان توفيق، ورشيد ربيع سليمان، الموساد والإخفاقات الأخيرة، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

٢ ـ المعلوف رفيق خليل، وتقيّ الدين رندة، جريدة "الحياة" اللبنانيّة، عدد ٦ أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٧؛ جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٦ أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٧.

بالرغم من كلّ الإجراءات التي اتّخذتها السلطات الإسرائيليّة، وعلى مختلف الصعد، فقد مُنيت بهزيمة أخرى عندما قُتل طبيب قوّة الإنقاذ ومساعده. هذا في الوقت الذي كانت فيه أوامر وزير الدفاع "إسحق مردخاي" لقوّات الإنقاذ: "لا عودة لكم إلاّ مع الجثّة المفقودة"... ولكن من دون جدوى، إذ كان النهار قد بدأ يشقّ طريقه وسط الظلام، فكان القرار عندئذٍ بمغادرة المنطقة، حيث تمّ سحب المجموعة على متن مروحيّة من طراز "بلاك هوك"، وكانت الساعة قد قاربت الرابعة والنصف فجرًا.

وبينما كان جنود الجيش اللبنانيّ وعناصر المقاومة الوطنيّة والإسلاميّة يجرون عمليّة تمشيط خلف قوّات الاحتلال خوفاً من وجود ألغام وعبوات موقوتة، قاموا بجمع العتاد والأجهزة المتروكة، وعثروا على جثّة أحد عناصر قوّة الكوماندوس الإسرائيليّة "إينمار إلياهو"، بالإضافة إلى أشلاء جنود آخرين. في حين احتفظ حزب الله بمستندات ووثائق خطيرة لأسباب وظروف أمنيّة، أعلن أنّه سينشرها في الوقت المناسب.

في هذا الوقت، كان وفد من رئاسة الأركان الإسرائيليّة يقوم بتوزيع الجثث على عائلات القتلى عبر أصوات الشتائم واللعنات والمطالبة بالخروج فورًا من لبنان... حتّى أنّ العضو الليكوديّ في الكنيست "روبي ريبلن" صرّح قائلاً: "مسألة وجودنا في لبنان باتت أكبر من أن نتحمّلها"...

نجح حزب الله في قطف ثمار فشل العمليّة الإسرائيليّة في قرية انصاريه، بغضّ النظر عن تعدّد الروايات حولها. إذ فيما كانت دولة الاحتلال الصهيونيّ تحاول التفاوض على استعادة الطيّار الإسرائيليّ "رون آراد"، وجدت نفسها تستعدّ لدفع ثمن كبير مقابل استعادة أشلاء بعض جنودها الذين قتلوا في العمليّة الفاشلة.

ضاعت اللجان الإسرائيليّة المعيّنة لتقصّي أبعاد فشل عمليّة انصاريه بين قائل بأنّ عمليّة المقاومة كانت مخطّطة ومدروسة، وقائل بأنّها كانت عشوائيّة... فإنّ لجنة

التحقيق الأولى بقيادة الجنرال "غابي أوفير" قرّرت أنّه "باحتمال كبير، وإن يكن بشكل غير مؤكّد، لم تكن لدى حزب الله معلومات استخباراتيّة مسبقة حول العمليّة الإسرائيليّة". غير أنّ لجنة التحقيق الثانية برئاسة المدّعي العام العسكريّ العميد "أوري شوهم" قرّرت أنّ "هناك احتمالاً ما بأنّ الكمين كان مخطّطًا له". ثمّ جاء تقرير لجنة التحقيق الثالثة في شباط ـ فبراير ١٩٩٩ ليقول بأنّ "الكمين كان مخطّطًا له وليس عرضيًا... خلافًا لرأي لجنة التحقيق الأولى". وقد سلّمت اللجنة تقريرها إلى رئيس الأركان وعائلات الجنود القتلى[١].

بعيدًا عن لجان التحقيق الإسرائيليّة، ماذا تقول المقاومة الإسلاميّة في حقيقة هذه العمليّة التي تُعرف عند حزب الله بـ"فخّ العبّاس"؟

نتيجة للديناميّة الاستخباراتيّة والأمنيّة للمقاومة الإسلاميّة وقدراتها وكفاءتها العملانيّة، استطاعت قراءة التوجّه الإسرائيليّ الجديد القاضي بالقيام بعمليّات نوعيّة في الجنوب اللبنانيّ بهدف رفع معنويّات مقاتليه المنهارة نتيجة ضربات المقاومة الموفّقة لهم، وقراءة استهدافاته المحدّدة بخطّة بالغة الخطورة والإتقان هي عبارة عن وضع طعم في سنّارة أُعدّت خصيصًا لاصطياد السمكة الإسرائيليّة. ولم يكن ذلك الطعم إلاّ ما اشتهر لاحقًا على أنّه "فخّ العبّاس".

كانت خطّة المقاومة الإسلاميّة تقضي باستدراج قوّة صهيونيّة كبيرة والإيقاع بها في مكمن لا فكاك منه لتتمكّن المقاومة عبره من إبادة العديد من أفراد القوّة الإسرائيليّة وأسر البعض الآخر، الأمر الذي يؤهّلها لاحقًا لمبادلتها بمئات المعتقلين في السجون الإسرائيليّة من مجاهدين لبنانيّين وفلسطينيّين.

---

١ ـ جريدة "السفير" اللبنانيّة، عدد الجمعة ١٩ شباط ـ فبراير ١٩٩٩، ص٥.

للقيام بهذا العمل، كان على المقاومة أن تجد عميلاً موثوقًا لدى الإسرائيليّين تستطيع من خلاله تنفيذ خطّتها. وبعد تحريّات واستقصاء، استطاعت المقاومة أن تجد العميل الهدف، فكانت الخطّة جاهزة لتجنيده في المهمّة المطلوبة. وبعد اجتماعات سريّة عدّة فهم العميل الذي أصبح الآن عميلاً مزدوجًا تفاصيل مهمّته. وكان عليه إقناع الإسرائيليّين باكتشافه لصيد ثمين... ولم يكن هذا الصيد سوى أحد قادة المقاومة الأساسيّين.

نقل العميل المزدوج لرابطه الإسرائيليّ معلوماته عن الصيد الثمين وأماكن تردّده ومبيته، وكان عليه الانتظار حوالى الشهر قبل أن يأتي الردّ الإسرائيليّ المقتضب: تابع مراقبته عن كثب وعليك تزويدنا يوميًّا بتحرّكاته لمدّة أسبوعين.

في هذا الوقت كانت استخبارات المقاومة تتابع مراقبة العميل المزدوج على مدار الساعة، كذلك كان محيطه وعلاقاته موضوع مراقبة، وسرعان ما اكتشفت أجهزة المقاومة أنّ العميل المذكور هو موضع مراقبة مكثّفة ورصد دائم من الإسرائيليّين عبر أحد العملاء الآخرين. وهو ما كانت المقاومة قد افترضت حدوثه منذ البداية، إذ ليس من المنطقيّ أن يركن جهاز الاستخبارات لمعلومات قدّمها عميل دون التحرّي الكافي عنها للتأكّد من صحّتها، ذلك أنّ تواتر المعلومة الواحدة من مصادر متنوّعة يلعب دورًا حاسمًا في قبولها أو رفضها. كما أنّ المعلومة الخاطئة غالبًا ما تكون مهلكة وقاتلة. ولكنّ الذي حصل في انصاريه أنّ المقاومة كانت تعطي معلومات صحيحة لكنّها قاتلة لسبب بسيط، هو أنّها معلومات مفخّخة.

ثمّ جاء دور المقاومة في تجنيد العميل الثّاني. وهو أمر لم تلاقِ فيه صعوبة نسبيًّا، ويعود السبب في ذلك إلى انهيار معنويّات العملاء وإلى دعوات الفرار التي وجّهتها المقاومة لهم لتسليم أنفسهم والتخلّي عن العمالة والعودة إلى أحضان الوطن، وكانت

بدأت تروج في الأوساط المختلفة لا سيّما في الجنوب أخبار المعاملة الطيّبة التي يلقاها الفارّون إلى المقاومة.

لم يكن مطلوبًا من العميل الثاني بحسب ما أرادته المقاومة سوى تأكيد إخلاص العميل الأوّل للإسرائيليّين وصحّة ما يزوّدهم به من معلومات، وهو ما قام به على أتمّ وجه بعد تهديد وترغيب من المقاومة له عبر طرف ثالث ليصبح الطريق معبّدًا أمام ابتلاع السمكة الإسرائيليّة لطعم المقاومة والسقوط في الفخّ... فخّ العبّاس.

لم يكن استدراج المقاومة للإسرائيليّين مسألة بسيطة، نظرًا للاحتياطات الهائلة التي يتّخذونها، ولكن ما جمعوه من معلومات ووثائق واستندوا إليه من أدلّة كان أكثر من كاف بنظرهم لضمان نجاح عمليّة سيكون لها وقع مدوٍّ ويعيد البريق إلى سنين عجاف باهتة لجيش العدوّ واستخباراته. وكان على العميل الأوّل أن يلتقط صورًا عديدة لرجل المقاومة وفي أماكن عدّة كي يطمئنّ الإسرائيليّون الذين لم يكتفوا بذلك، بل إنّهم قاموا من خلال أجهزتهم المختلفة بمسح المكان كاملاً ورسم خريطة تفصيليّة تُظهر بوضوح جليّ البيت السرّي الذي يأوي إليه أحد قياديّي المقاومة. وقد حفظها أفراد قوّة البحريّة عن ظهر قلب.

قبل أسبوع من ملحمة انصاريه، كثّف الطيران المروحيّ الصهيونيّ وطائرات الاستطلاع طلعاتهما فوق منطقة الزهراني وصولاً إلى انصاريه – خيزران - عدلون، وكانت طلعات الطيران ذات دلالة ما، لدى الناس العاديّين الذين بدأوا يتهامسون حولها، لكنّ الدلالة الأكبر كانت لدى قوّة الوحدات الخاصّة في المقاومة التي كانت تتابع الخطّة لحظة بلحظة، وأكّدت أنّ الأمور تجري حسب ما هو مرسوم.

وكانت التحضيرات قد اكتملت لليوم الموعود.

مجموعة من القوّات البحريّة في المقاومة تكمن بين البساتين على الشـاطئ، مقـابل انصاريه بشكل بالغ التمويه، ولا تُؤتي أيّ إشارة تـدلّ علـى وجـود حركـة هنـاك. فيمـا كانت مجموعات عدّة من رجال المقاومة قد أقـامت مكـامن عـدّة فـي محيـط المنطقـة، وكـانت مـزوّدة بأسلحة مختلفـة، وكـان ثمّـة شـحنتين صـغيرتين مموّهتيـن بشـكل بـالغ لاستيعاب جثث الصهاينة، وفي محيط البيت السرّي كان الهدوء يلفّ المكان. ولـم يكـن هناك سوى أربعة من رجال المقاومة يكمنون خلـف تلّـة مموّهـة بعـد أن قـاموا بـزرع الطرقات المؤدّية إلى البيت بعدد كبير من العبوات الناسفة التي يجري التحكّم فيها عـن بعد.

في الساعة الثانية عشرة والربع من بعد منتصف ليل الخميس ٥ أيلـول ـ سـبتمبر ١٩٩٧، اقـترب زورقـان إسـرئيليّان مطّاطيّـان إلـى الشـاطئ مقـابل انصاريـه وأنـزلا مجموعتَيـن مـن قـوّات نخبـة النخبـة الإسـرائيليّة. وفـي اللحظــة التــي لامسـت أقـدام المجموعتَين الشاطئ، كانت الإشارة الأولى قد انطلقت من أوّل كميـن بحـريّ للمقاومـة في أقلّ من ثوان إلى قائد الكمين، بأنّ "البضاعة وصلت وهي في طريقها إليكم". وكـان الردّ حازمًا ومذكّرًا بأوامر سابقة تقضي بالامتناع عن التعرّض للقوّة الاسرائيليّة مهمـا كانت الأسباب وتركها تمرّ بسلام. وفي لحظات كانت المجموعتان الإسرائيليّتان تمرّان على بعد أمتـار مـن عيـون تغلـي كـالجمر منتظـرة أوّل إشـارة للفتـك، ولكـنّ حسـابات المقاومة لا تجري أبدًا على هذا النحو، لقد فضّلت المقاومة مواجهة الإسرائيليّين بعيدًا عن الشاطئ ممّا يضيّق هامش المناورة والحركة لديهم ويوسّع خياراتها فـي ملاحقتهم ويبعدها عن الانكشاف أمام النيران الإسرائيليّة من البحر والجوّ.

كانت معلومات الإسرائيليّين تفيد بأنّ الرجل المستهدف موجود في البيـت السـرّي، وكانت الخطّة تقضي باختطافه، أو في أسوإ الأحوال نسـف البيـت فـوق رأسـه، وزرع

عبوات ناسفة متفرّقة يمكن استخدامها لاحقًا ثمّ المغادرة، ولكنّ حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر. لقد مشت القوّة الإسرائيليّة في خطّ مستقيم وعبرت الشارع العامّ باتّجاه البساتين وبدأت الاقتراب من البيت السرّي، وعند نقطة محدّدة في طرف البستان توقّفت القوّة عند بوّابة حديديّة صغيرة تقدّم قائدها وفتحها فأكملت سيرها، ثمّ اجتمعت في خطّ أفقيّ منتظرة لحظة الانقضاض على الهدف...

يقع البيت السرّي المستهدف عند الطرف الشماليّ الغربيّ لانصاريه ويبعد عنه بيت صغير لناطور بستان قد غلب عليه الكبر. كان الهدوء مخيّمًا على المكان، وبدت انصاريه تلك الليلة ساكنة الربوع وادعة ككلّ البلدات والقرى الجنوبيّة، ولم يكن أحد يتصوّر أنّ تلك الليلة الوادعة الأنفاس كانت حبلى بمخاض سيولد إحدى أهمّ الملاحم المسطّرة في تاريخ العرب ضدّ الصهاينة...

ما أن تجاوزت الساعة الثانية عشرة والنصف حتّى كان قائد القوّة الإسرائيليّة يستعدّ للمرحلة الأخيرة من خطّته، وهي التوجّه مباشرة إلى البيت المستهدف. في هذه الأثناء كان أربعة من مجاهدي المقاومة على سلاحهم ومضاغط عبواتهم. وما هي إلاّ ثوان على انطلاق القوّة الإسرائيليّة نحو الخطوة الأخيرة في رحلتها حتّى أصبحت خطوتها هذه هي رحلة أفرادها الأخيرة... لقد فجّر المجاهدون عبوتَين ناسفتين كبيرتَين بالقوّة الإسرائيليّة فتطايرت أشلاءً وتناثرت دماءً وعلا الصراخ والعويل... وأتبع المجاهدون عبواتهم بنيران غزيرة على القوّة الإسرائيليّة... وسرعان ما أبيد معظم أفراد القوّة ساقطًا بين قتيل وجريح. ولم ينجُ إلاّ جنديّ الاتّصال الذي أبلغ قيادة العمليّة بمجريات الوضع.

في هذا الوقت كانت مجموعات أخرى من المقاومة تتقدّم من الكمائن المنتشرة للإطباق على مَن تبقّى مِن فلول القوّة الإسرائيليّة المدحورة. غير أنّ طوقًا من النيران

الكثيفة كان قد زنّر المنطقة بأكملها من طـائرات العدوّ ومروحيّاتـه وبارجاتـه الحربيّـة تسهيلاً لإجلاء القتلى والجرحى وأشـلاء الجنـود المتطـايرة فـي بسـاتين انصاريـه، وإذ حاولت طوّافة أن تحطّ في مكان قريب من أرض العمليّة، تولّت قوّة الإسناد الناريّ في المقاومة استهدافها بالقصف المدفعيّ، فأصيبت المروحيّة فـي أنحـاء عـدّة مـن هيكلهـا، لكنّها استطاعت الإقلاع والعودة إلى البوارج الإسرائيليّة في عرض البحر. وقد حـاول الإسـرائيليّون البحـث عـن بعض جثث جنودهم دون فـائدة، فـاتّخذوا قـرارًا عـاجلاً بالانسحاب تحت الغطاء الناريّ الكثيف...

إنجلى فجر انصاريه يوم الجمعة في ٥ أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٧ عن هزيمـة قاسـية لنخبة نخبة القوّات الإسرائيليّة، وتدافع الناس إلى مكان العمليّة لمشاهدة أرض المعركـة وللبحث عن أشلاء المفقودين، فيما اختفى رجال المقاومة عن الصورة، فكان أن حيكت روايات حول اكتشاف قوّة العدوّ وإفشال إنزالها، ولم يأت الخبر اليقين للناس إلاّ عندمـا تبيّن أنّ معظم أجزاء أجساد وأشلاء جنود القوّة المغيرة وأسلحة أفرادها ومعدّاتهم هـي بحوزة حزب الله الذي عرضها جميعًا في حارة حريك[1].

١ ـ فخّ العبّاس، أسرار وحقائق عمليّة انصاريه، دار الندى (بيروت، ١٩٩٨) ص٨٧ ـ ١٠٧.

دِعَايَات التّضليل

كان الموساد قد أنشأ في بنائيّته دائرة للحرب النفسيّة تحت إسم "لاب"، وقد رأى مؤسّس هذا الجهاز مائير عميت الذي ترأس الموساد بين ١٩٦٣ ـ و١٩٦٨ أنّ الدائرة قد أنشأت في عهده شبكة كونيّة من العلاقات الإعلاميّة واستخدمتها بمهارة عظيمة. فإذا وقعت حادثة إرهابيّة في أوروبّا، استدعى ذلك الدعوة إلى اتّصال بالمنظّمة الاخباريّة ومدّها بـ"الخلفيّة" التي تحظى بما يكفي من الاهتمام لإدغامها بالقصّة، فيصبح لها النسج الذي ترغب فيه "لاب". كما أنتجت الوحدة معلومات كان الملحقون الإعلاميّون في السفارات الاسرائيليّة يمرّرونها إلى أحد الصحافيّين أثناء تناول الشراب أو طعام العشاء عندما يكون ممكنًا تقاسم السرّ بهدوء، ويجري تشويه سمعة شخص ما بحذر.

وفي حين بقي جوهر تلك الحملات الدعائيّة القذرة على حاله، فإنّ ثمّة فرقًا عظيمًا في الأهداف أو الضحايا التي تُختار لتلك الحملات. ويرى مائير عميت أنّ القرار غالبًا جدًّا ما قام على مقتضيات سياسيّة كالحاجة إلى تحويل الانتباه عن مناورة ديبلوماسيّة تعتزم إسرائيل القيام بها في الشرق الأوسط لخدمة مصالحها الأنانيّة أو استعادة شعبيّتها المتقلّبة خصوصًا في الولايات المتّحدة الأميركيّة.

عندما تحطّمت الرحلة ٨٠٠ لطائرة الخطوط الجويّة TWA قرب الساحل الجنوبي ـ الشرقي للونغ آيلند في ١٧ تمّوز ـ يوليو ١٩٩٦، فقتل ٢٣٠ شخصًا كانوا على متنها، نظّمت دائرة "لاب" الاسرائيليّة حملة للإيحاء بأنّ إيران أو العراق، وكلاهما

عدوّ لإسرائيل، هما العقل المدبّر للمأساة. وسرعان ما نشرت آلاف القصص الإعلاميّة التي تروّج للخرافة. وبعد حوالى السنة، وبعد إنفاق حوالى خمسمائة ألف دولار وعشرة آلاف ساعة عمل، استبعد كبير المحقّقين في مكتب التحقيقات الفدرالي الأميركي FBI جيمس كالستروم أن يكون السبب في سقوط الطائرة انفجار قنبلة زرعها الإرهابيّون، كما استبعد أيّ دليل لعمل إجراميّ في تلك الحادثة. وقد نُقل عنه قوله لزملائه في مجالس خاصّة: "لو انّ هنالك طريقة لاعتقال أولئك اللقطاء في تلّ أبيب على إضاعتهم وقتنا لكنت حتمًا رغبت في ذلك. لقد اضطررنا إلى أن نتحقّق من صحّة كلّ خبر سرّبوه إلى وسائل الإعلام".

ومرّة أخرى ضربت دائرة "لاب" ضربتها بعد تفجير "الألعاب الأولمبيّة" في أطلنطا. فقد أشيعت القصّة الخياليّة القائلة بأنّ القنبلة تحمل كلّ الدلائل على أنّ من صنعها اكتسب خبرته من خبراء المتفجّرات في وادي البقاع في لبنان. وجرى تصديق القصّة، وجعلت "لاب" شبح الإرهاب واضحًا لدى رأي عامّ أميركيّ يمكن تفهّم خوفه. كان المشتبه به الوحيد حارسًا سيّء الطالع يعمل في الألعاب الأولمبيّة، وكان ظاهرًا أن ليس له أيّ علاقة بالإرهاب الدوليّ. وعندما برّئ، ماتت القصّة، وتبيّن تضليل "لاب"[1].

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٨٤ ـ ٨٥.

فَضيحَةَ يَهودَا غيل

الحادثـة الثانيّـة التـي قـرّرت نتائجهـا اقتـلاع دانـي يـاتوم مـن منصبـه فـي رئاســة الموساد، كانت فضيحة عميل الموساد المحتال "يهودا غيل".

في تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٩٧، انكشف أمر أحد كبار ضبّـاط الموسـاد ويدعـى يهودا غيل الذي لفّق على مدى عشرين عامًا سابقًا تقارير غاية في السريّة مصدرها عميل لا وجود له في دمشق.

كان غيل قد صرف مبـالغ طائلـة مـن صنـدوق الرشـاوى التـابع للموسـاد للإنفـاق على العميـل المزعـوم واحتفـظ بالمـال لنفسـه. وقـد كُشـف أمـر الخديعـة عندمـا انتـاب الشكّ أحد محلّلـي الموسـاد الـذي كـان يـدرس آخـر تقـارير "العميـل"، وفيـه أنّ سـوريا توشـك أن تهـاجم إسـرائيل. فواجـه يـاتوم غيـل بـالموقف فـاعترف هـذا بالحقيقـة كاملة.

وُلد يهودا غيل في ليبيا عـام ١٩٣٤، حيث كـان والـده ضابطًـا ماليًّـا فـي القـوّات الفاشيّة الإيطاليّة ـ جيش موسوليني، التي غزت ليبيا واحتلّتها عام ١٩١١، ما أفسح في المجال ليهودا أن يتكلّم العربيّة والفرنسيّة إضافة إلى الإيطاليّة والإنكليزيةّ بشكل جيّد.

هاجر يهودا مع الكثير من اليهود من ليبيـا إلـى فلسطين المحتلّـة، وكـان عمـره لا يزيد على ١٤ عامًا. كان اسمه آنذاك "يهودا جناح بن موشـي جنـاح"، وقـد غيّر اسمه لدى وصوله إلى فلسطين، أسوة بالكثيرين، إلى يهودا غيل.

تجنّد غيل في البداية كضابط في المدرسة الحربيّة، وعُيّن مسؤول انضباط في تلك المدرسة حيث كان والده يعمل، وكان والده مشهورًا بأسلوب القوّة والتبجّح والتفاخر، فكان يضرب تلاميذه في المدرسة الحربيّة.

في عام ١٩٧٠، انضمّ يهودا إلى الموساد كضابط جمع معلومات حيث كان اللواء "زفي زامير" مسؤولاً عن الموساد في تلك الحقبة التي كان يتفاخر فيها بأنّها زمن أسطورة الموساد الخرافيّة.

كان ليهودا غيل طموح كبير، وقد سعى لتحقيق ذلك منذ أوّل حياته العسكريّة، حيث عمل دليلاً للاستخبارات في صفوف اليهود أنفسهم عندما كان طالبًا في مستوطنة "تسفايحيم". وقد استطاع من خلال عمله في الموساد أن يرضي غروره، ويلبّي ما يطمح إليه من زيارات إلى الدول العربيّة، وارتياد المطاعم الفاخرة، وتحقيق الملذّات والمسرّات، وجمع الأموال الطائلة. وفي تلك المستوطنة، أحبّ يهودا غيل شابّة إسمها "روحا"، هي ابنة الطليعي الإنكليزي "غيريتس" الذي كان من أوائل مؤسّسي مستوطنة تسفايحيم.

سُرّح غيل من الخدمة عام ١٩٨٩ بناء على طلبه بعد أن أصيب بخيبة أمل حيث وجد رفاقه يتدرّجون في مناصب عالية ومراكز هامّة، وهو يراوح مكانه. وبعد تسريحه من الخدمة، حاول غيل أن يرضي غروره عن طريق العمل في السياسة، لذلك انضمّ إلى حركة "موليدات" اليمينيّة المتطرّفة. وهذه الحركة ضدّ "عمليّة السلام"، وضدّ الانسحاب من الجولان، لكنّه فشل تمامًا في الوصول إلى القيادة. فرشّح نفسه في الانتخابات البلديّة وفشل أيضًا، وإذ بدأ يعاني حالة نفسيّة سيّئة، اقترح عليه ابنه، الذي كان ضابطًا في الجيش الإسرائيليّ برتبة ملازم أوّل في سلاح الطيران، أن يقوم برحلة إلى الخارج.

وبالفعل، فقد توجّه غيل في رحلة إلى الخارج عاد منها متوجّهًا فورًا إلى الموساد، وقدّم رزمة من التقارير مفادها: أنّ المصدر الذي كان يعمل معه من قبل، وهو سوريّ، وافق مرّة ثانية على تقديم معلومات، مع العلم أنّ يهودا غيل كان قد قدّم تقريرًا عام ١٩٨٩ يقول فيه أنّ المصدر هذا قد تقاعد من عمله، ولم يعد يستطيع تقديم معلومات منه. وعلى ما يبدو، فإنّ يهودا غيل أراد متابعة هذه الكذبة التي بدأها من قبل، عندما ادّعى أنّ هناك مصدر معلومات سوريًّا يقدّم له معلومات هامّة عن سوريا. ومع ذلك، وافقت قيادة الموساد على إعادة غيل إلى العمل وبدأ يتابع مشواره، ويقدّم المعلومات الكاذبة التي كان يسمعها من وسائل الإعلام، ومن رفاق شعبة الاستخبارات وشين بيت.

إستطاع غيل طوال سنوات من الخداع والكذب والتضليل سحب مبالغ طائلة من الموساد، وقد عُثر في شقّته يوم القبض عليه على مبلغ ١٥٠ ألف دولار، ناهيك عن حسابه في الخارج الذي لا يزال سرًّا على وسائل الإعلام، لكنّ هذه الأسرار ليست خافية بالطبع على لجنة التحقيق وعل الموساد بشكل عام الذي يُفترض أن يكون لديه إيصالات القبض الخاصّة بيهودا غيل، وبتواريخها المحدّدة. علمًا بأنّ محامي يهودا غيل ذكر أنّه انهار منذ اليوم الأوّل للتحقيق، واعترف بأنّه كاذب ومخادع فاشل طوال حياته العمليّة[1].

انقضّ نتنياهو على ياتوم واستجوبه بقسوة في خلال اجتماع عاصف في مكتب رئيس الوزراء حول كيفيّة إدارته لجهاز الموساد. ولم يكترث نتنياهو للقول بأنّ غيل أخفى خديعته بنجاح عن أربعة مديرين عامّين سابقين للموساد. وكان ردّه بصوت عال

---

١ ـ النمر مروان توفيق، ورشيد ربيع سليمان، الموساد والإخفاقات الأخيرة، ص١١، ١١٥ ـ ١١٦.

أنّه كان على ياتوم أن يعرف. وقد وقع تشابك آخر في الموضوع نفسه بين الرجلين، وقال موظّفو مكتب رئيس الوزراء إنّهم لم يشهدوا تأنيبًا شديدًا مثله من قبل. وقد تسرّبت التفاصيل إلى أجهزة الإعلام ما زاد في إحراج ياتوم[1].

اليوم، يبلغ يهودا غيل من العمر سبعين عامًا، قضى نصفها في العمل في صفوف الموساد، وحسب الصحف الإسرائيليّة كان يُعتبر ضابط جمع معلومات جيّدًا، ولكنّه لم يتقدّم في صفوف الموساد إلاّ بعد أن شرع باختلاق المعلومات...

أمضى غيل ستّة أيّام في التحقيق قبل أن يرى محاميه "بيغال شبيرا" الذي كان من رجال الموساد سابقًا. وقد أدانته المحكمة العليا الإسرائيليّة بإيذاء أمن الدولة بشكل خطير، وبسرقة عشرات آلاف الدولارات من أموال الموساد بدعوى تسليمها معلومات منسوبة إلى "عميل سوريّ رفيع المستوى". وبعد أيّام من صدور الحكم بسجنه لمدّة خمس سنوات، سمحت المحكمة العليا الإسرائيليّة بنشر قرار قضائيّ برفض الاستئناف الذي قدّمه عميل الموساد غيل، ضدّ الحكم الذي أصدرته المحكمة المركزيّة. أمّا الجهات الرسميّة المسؤولة عن سلامته، فإنّها أصدرت توجيهات لوضع حراسة مشدّدة له على مدار الساعة، ولتركيب عدسات تصوير لمتابعة تحرّكاته[2].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٥٧.

٢ ـ النمر مروان توفيق، ورشيد ربيع سليمان، الموساد والإخفاقات الأخيرة، ص١٢٥.

المُحَاوَلة الكُبرى الفَاشلَة لاغتيَال عبدَالله الزَّين

فجر يوم الخميس ١٦ كانون الثاني ـ يناير ١٩٩٨، خرجت سيّارة حكوميّة من منزل ذي طلاء أبيض يقع في ضاحية راقية قريبة من السياج المكهرب القائم على الحدود بين إسرائيل والأردن. في إحدى تطوّرات التاريخ غير المتوقّعة كان المنزل يقوم على أرض استُخدمت من قَبل مقرًّا يعدّ فيه جواسيس إسرائيل مهامّهم لجمع المعلومات السريّة لتمكين الاسرائيليّين من تحقيق الغلبة على العرب. أمّا الآن فها هو داني ياتوم ينطلق منه لوضع اللمسات الأخيرة على عمليّة تحمي منصبه من الانهيار.

كان ياتوم في خلال الأشهر السبعة الأخيرة التي ابتدأت بالهزيمة الكاملة في شوارع عمّان في تمّوز ـ يوليو ١٩٩٧ عندما أخفق فريق قتلة الموساد في اغتيال زعيم "حماس" خالد مشعل، كالمنتظر قطع رأسه، كما وصف حاله لبعض الوقت. أمّا السيّاف فكان رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو. وقد كانت تربطهما صداقة وثيقة لكنّها تأزّمت في الآونة الأخيرة، حتّى لم يعد يمرّ يوم من دون أن يهمس المنتقدون في مكتب رئيس الوزراء قائلين بأنّ طرد رئيس الموساد لن يتأخّر كثيرًا... غيره كان استقال، أمّا ياتوم الأبيّ المهيب فكان حاضرًا للاحتكام إلى سجلّ أعماله. لقد أُمر بالقيام بعمليّات ناجحة عدّة لم يعرف عنها أحد. وقد أبلغ أصدقاءه قوله بمرارة "إنّهم لا يحاسبونني علنًا إلاّ على الأخطاء". كما لاحظ أصدقاؤه وأفراد عائلته أنّه في شدّة. فكان يمضي بعض الليالي ساهرًا، وكان يصاب بنوبات غضب مفاجئة لكنّه سرعان ما

يهدأ. وكان يذرع المكان بلا توقّف ويطيل الصمت، وكلّ هذه علامات *الإجهاد الهائل* الذي كان يعانيه.

كان قد مضى على تسلّم ياتوم منصبه قرابة عامين، ولكنّه لا يزال يواجه ضغوطًا لم يعرفها غيره من رؤساء الموساد. وأدّى ذلك إلى تراجع مستمرّ في معنويّات موظّفيه فلم يعد ممكنًا التعويل على ولائهم. وكانت وسائل الإعلام تحوم حوله وقد أحسّت بأنّه جريح، لكنّها كانت تحجم بانتظار أن ترى كيف سيستخدم الشخص الوحيد الذي وثق به ياتوم مرّة، الفأس التي يحملها. وحتّى حينه، كان موقف بنيامين نتنياهو يتّسم بالبرودة الظاهرة.

في صباح ذلك اليوم البارد من أيّام شهر شباط ـ فبراير كان ياتوم يعرف أنّ أجل منصبه يقترب. ولذا كان يعوّل على نجاح هذه العمليّة التي رعاها كلّ هذه الأسابيع الماضية. فهي سوف تُري رئيس الوزراء أنّ رئيس جواسيسه لا يزال بارعًا. لكنّ كلّ هذه المشاعر بقيت حبيسة في داخله على رغم ما تحمّله، فلم يظهر على وجهه أيّ ما من شأنه أن يفصح عمّا يجول في نفسه. كان منظره وهو يجلس برباطة جأش في زاوية على المقعد الخلفيّ لسيّارة الـ"بيجو" مخيفًا، وهو يرتدي سترة جلديّة سوداء اللون على قميص مفتوح القبّة وبنطال رماديّ. هكذا كان ياتوم عندما يذهب إلى العمل، فلم يكن يهتمّ بالملابس أبدًا. وكان إلى جانبه على المقعد صحف الصباح، وللمرّة الأولى منذ أسابيع لم يكن فيها أيّ تكهّن حول مستقبله.

شقّت السيّارة بسرعة طريقها عبر التلال إلى تلّ أبيب، وكانت أشعّة الشمس تتلألأ على هيكل السيّارة الذي كان سائقه يعتني ليل نهار بتلميعه حتّى يصبح كالمرآة. كان زجاج السيّارة مضادًّا للرصاص وهيكلها مصفّحًا وأرضها محصّنة ضدّ الألغام. وحدها السيّارة الرسميّة لرئيس الوزراء تتمتّع بمثل هذه التحصينات.

بدأ التخطيط للعمليّة العتيدة قبل شهر، عندما التقى مخبر في جنوب لبنان مسؤوله المباشر في الموساد وأبلغه أنّ "عبدالله الزين" قام بزيارة قصيرة إلى بيروت حيث اجتمع مع زعماء حزب الله. وبعدها اتّجه بسيّارته جنوبًا ليرى والدَيه بعد غياب طال عامًا كاملاً في بلدة كفررمّان، فأقيمت له الأفراح. وهناك أطلع الزين أقاربه على صورة زوجته الإيطاليّة الشابّة وشقّتهما في أوروبّا.

لم يستعجل عميل الموساد مخبره لتجاوز التفاصيل الصغيرة التي تتعلّق بما حمّل والدا عبدالله الزين ابنهما من حلوى وهدايا لزوجته، وبمرافقة عناصر من حزب الله له طوال رحلته إلى مطار بيروت، حيث ركب الطائرة عائدًا إلى سويسرا. وسأل عميل الموساد مخبره عمّا إذا كانت سويسرا وجهة عبدالله الزين الأخيرة، فردّ بالإيجاب: نعم، برن في سويسرا. وسأل عمّا إذا كان الزين يعيش هناك، فردّ المخبر بأنّه يعتقد ذلك، لكنّه لا يقطع به. ومع ذلك فقد كان هذا أول خبر مؤكّد تلقّاه الموساد عن عبدالله الزين منذ غادر لبنان لتنظيم نشاطات جمع التبرّعات لحزب الله من المسلمين الشيعة الأغنياء في أوروبّا. كانت هذه الأموال لتغطّي حرب الاستنزاف التي يخوضها المقاومون في حزب الله للاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان. وكانت التقارير المختلفة التي تلقّاها ياتوم تفيد بأنّ الزين ينشط من باريس ثمّ من مدريد ثمّ من برلين، وكلّما أرسل ياتوم مَن يتحقّق من ذلك لم يعثر على الشابّ الأنيق ذي الإثنتين وثلاثين سنة.

أرسل ياتوم ضابط موساد إلى برن من بروكسيل التي حلّت مؤخّرًا محلّ باريس كمركز لإدارة عمليّات الموساد الأوروبيّة. أمضى ضابط الموساد يومين وهو يبحث بلا طائل عن الزين، ثمّ قرّر توسيع بحثه، فاتّجه جنوبًا إلى "ليبيفلد"، وهي بلدة مهجعيّة لطيفة. كانت آخر مرّة عبر فيها ضابط الموساد شوارع تلك البلدة قبل خمس سنوات،

عندما غادر سويسرا بعد مشاركته فريقًا من العملاء في تدمير رواقيد معدنيّة في شركة للهندسة البيولوجيّة قرب زوريخ كانت إيران قد اشترتها لأغراض مخبريّة. وبعد التفجير عمَدت الشركة إلى إلغاء جميع عقودها مع إيران.

في ليبيفلد اعتمد ضابط الموساد على السير الدؤوب على الأقدام، وهي أفضل طريقة لجمع المعلومات السريّة. فجاب الشوارع باحثًا عن أيّ شخص يشير مظهره إلى أنّه من منطقة الشرق الأوسط. وبحث في دليل الهاتف عن مشتركين باسم الزين، واتّصل هاتفيًا بالمكاتب العقاريّة ليعرف منها أيّ عقار أجّرت أو باعت لأحد أصحاب هذا الإسم. واستفسر من مستشفيات المنطقة وعياداتها إذا كان أحد المرضى بهذا الإسم قد أُدخل إلى أيّ منها. وكان في كلّ مرّة يزعم أنّه من أقرباء الشخص المعنيّ.

بعدما أمضى يومًا كاملاً بلا جدوى، قرّر ضابط الموساد أن يقوم بجولة شاملة مرّة أخرى، مستعينًا بالسيّارة هذه المرّة. كان قد أمضى بعض الوقت وهو يجوب الشوارع عندما لمح رجلاً داكن البشرة متلحّفًا لاتّقاء برد الليل وهو يقود سيّارة فولفو في الاتّجاه المقابل. كانت لمحة عابرة، لكنّ ضابط الموساد كان على قناعة بأنّ السائق هو الزين. لكنّه أضاع بعض الوقت قبل أن يعثر على منعطف في الطريق للالتفاف واللحاق بالسيّارة التي كانت قد اختفت.

عاد ضابط الموساد في الليلة التالية، وركَن سيّارته في موقع ينطلق منه للتعقّب. وبعد قليل ظهرت سيارة الفولفو فلحق بها، وبعد مسيرة ميل واحد توقّفت أمام مبنى سكنيّ وخرج منها السائق، ثمّ دخل المبنى رقم ٢٧ شارع "فابر ساكر شتراسه". لم يخالج ضابط الموساد أيّ شكّ بأنّ هذا الرجل هو عبدالله الزين، فتبعه إلى داخل المبنى، حيث وجد وراء الباب البلّوريّ بهوًا صغيرًا فيه صناديق بريديّة كان أحدها لساكن الشقّة في الطابق الثالث ويدعى "زين".

كان أحد أبواب البهو يؤدّي إلى منطقة المرافق في الطـابق السفليّ تحت مستوى الأرض، فعبر ضابط الموساد منه هابطًا إلى تحت، وهناك على أحد الجدران لاحظ وجود صندوق وصل لجميع خطوط الهاتف في المبنى. وبعد لحظات عاد إلى السيّارة المستأجرة.

في اليوم التالي استأجر ضابط الموساد بيتًا سريًّا على بعد نصف ميل من شارع "قابر ساكر شتراسه"، وأخبر المكتب العقاري أنّه يتوقّع أن ينضمّ إليه بعض أصدقائه ليذهبوا معًا في رحلة تزلّج.

تابع داني ياتوم التخطيط، فأرسل خبيرًا بالاتّصالات إلى ليبيسفلد لفحص صندوق الوصل الهاتفيّ، فالتقط مجموعة من الصور للقسم الداخليّ من الصندوق وعاد بها إلى تلّ أبيب حيث تولّى درسها قسم الأبحاث والتطوير، وتبعًا لذلك أُدخلت تعديلات على الأدوات التي كانت قيد التحضير. كان بين هذه الإدوات جهاز صغير متطوّر يمكّن من مراقبة جميع المكالمات في شقّة الزين. وقد رُبط هذا الجهاز بآلة تسجيل ضئيلة الحجم تختزن ساعات من المكالمات الهاتفيّة. وكانت لآلة التسجيل قدرة ذاتيّة على التفريغ الإلكتروني بإشارة معدّة مسبقًا تأتيها من البيت السرّي. وهناك في هذا البيت يجري نقل المكالمات خطيًّا وترسل إلى تلّ أبيب عبر جهاز فاكس سرّي.

في الأسبوع الأوّل من شباط ـ فبراير ١٩٩٨، كانت الخطط التقنيّة قد وضعت قيد التنفيذ، فانتقل ياتوم إلى المرحلة الحاسمة من العمليّة وهي اختيار فريق التنفيذ.

كانت الخطّة على مرحلتين: الأولى جمع الأدلّة الكافية عن أنّ الزين لا يزال أحد كبار الضالعين في نشاطات حزب الله، والثانية قتله. وفي أواسط شباط ـ فبراير كانت الاستعدادات قد اكتملت.

قُبيل السادسة والنصف من صباح يوم الاثنين ١٦ شباط ـ فبراير دخلت سيّارة البيجو إلى المرآب في الطابق الأسفل من مقرّ الموساد في تلّ أبيب، وصعد ياتوم بالمصعد إلى قاعة الاجتماعات في الطابق الرابع حيث كان في انتظاره رجلان وامرأتان. كانوا يجلسون حول طاولة وقد انقسموا أزواجًا كما سيظهرون على الناس في سويسرا. كانوا في أواخر العشرينات من أعمارهم صبَغت الشمس جلودهم ويبدون على لياقة بدنيّة جيّدة. كانوا قد أمضوا الأيّام القليلة الماضية على الثلج في شمال فلسطين وهم يستعيدون مهاراتهم في التزلّج. وكانوا في الليلة الفائتة قد اطّلعوا بصورة وافية على مهمّتهم وعيّنت لهم هويّاتهم المزيّفة. فالرجلان سيزعمان أنّهما متعاملان ناجحان في سوق الأسهم، وهما يمضيان إجازة قصيرة بعيدًا عن قائمة التعامل مع صديقتيهما، لكنّهما لن ينقطعا بالكليّة عن أعمالهما، وهو ما يفسّر إحضار أحدهما جهاز كومبيوتر محمول معه. كان هذا الجهاز قد زُوّد بتوصيلات تمكّنه من الوصل بين آلة التسجيل التي أخفيت داخل الطابق الأسفل من مبنى الزين وبين البيت السرّي. وقد كلّف زوجان بمراقبة التسجيل على مدار الساعة حالما يبدأ عمله، أمّا الزوجان الآخران فكانا عضوين في فريق القتلة الذي يفترض أن يستخدم أفضل الوسائل لاغتيال الزين. وقد جاؤوا إلى سويسرا عزّلاً على أن يزوّدهم مكتب بروكسيل لاحقًا بالمسدّسات.

كان جهاز التنصّت وآلة التسجيل على الطاولة فتفحّصهما ياتوم وقال إنّهما أكثر تطوّرًا ممّا رآه في حياته من قبل. كان شرح المهمّة الأخيرة قصيرًا، فسأل كلاًّ من الحضور عن الإسم المستعار الذي يختاره من القائمة المحفوظة، فاختار الرجلان إسمَي "صولي غولدبيرغ" و"ماتي فنكلستين"، واختارت المرأتان إسمَي "ليا كوهين" و"راحيل جايكوبسون". فسيستخدمون جوازات السفر الاسرائيليّة ثمّ يتسلّمون في سويسرا جوازات السفر المزيّفة التي تحمل أسماءهم المستعارة.

كان الأربعة جميعًا قد استحقّوا التكريم، على حدّ قول أحد المصادر الإستخباراتيّة الإسرائيليّة في ما بعد. لكنّ الحقيقة هي أنّه بعد الهزيمة الكاملة في عمّان كانت تشكيلة العملاء الصالحين لمثل هذه العمليّة محدودة. فقد كان فريق عمّان أفضل فريق استخدمه الموساد، وتمكّن أفراده من إقناع الناس بأنّهم كنديّون، وكانوا جميعًا قد خاضوا تجربة العمل في الميدان الدوليّ. أمّا الأربعة الذين اختيروا للمهمّة السويسريّة فلم يعملوا إلاّ في القاهرة، وهي حاليًّا هدف آمن نسبيًّا في نظر الموساد. ولم يكن لأيّ منهم معرفة مبنيّة على الخبرة بالعمل السرّي في سويسرا. وربّما لذلك، وفقًا لتقرير نشرته صحيفة "صانداي تايمز" اللندنيّة، أنهى ياتوم توجيهاته بتذكير الحضور بأنّ لدى السويسريّين الذين يقيمون في الكانتونات الألمانيّة اللغة، كحال ليبيفلد، "ميلاً لإبلاغ الشرطة بأيّ أمر يرتابون به". وسوف تصحّ توقّعات ياتوم الذي صافحهم وتمنّى لهم التوفيق في مهمّتهم، وهي "البركة" التقليديّة التي تُمنح لكلّ فريق يُرسَل في مهمّة. ثمّ تسلّم أفراد المجموعة تذاكر السفر وأمضوا الأربع والعشرين ساعة التالية في بيت سرّي من بيوت الموساد في المدينة.

يوم الجمعة في ٢٠ شباط - فبراير صعد الفريق إلى طائرة العال المسافرة على الرحلة ٣٤٧ إلى زوريخ، وكانوا قد وصلوا إلى مطار بن غوريون قبل ساعتين من موعد الإقلاع امتثالاً لمطالب الشركة، وانضمّوا إلى قائمة المسافرين ومعظمهم من السويسريّين أو الإسرائيليّين، في اجتيازهم المعابر الأمنيّة. وعند الساعة التاسعة صباحًا كان الأربعة يجلسون في مقاعدهم ويحتسون الشمبانيا ويناقشون "إجازاتهم" المقبلة... وكانت أدوات التزلّج في مخزن الطائرة. وعندما وصلت الطائرة إلى مطار "كلوتن" في زوريخ كان بانتظارهم ضابط الموساد من قسم بروكسيل، وقد جاء بباص صغير، فقام بدور مرشدهم السياحيّ وسمّى نفسه "أفرايم روبنشتاين".

قبل انتهاء بعد الظهر، استقرّ الجميع في البيت السرّي في ليبيفلد، فأعدّت المرأتان طعام العشاء وجلسوا جميعًا يشاهدون التلفاز. وفي العشيّة وصلت سيّارتان مستأجرتان من زوريخ يقودهما متطوّعان لخدمة الموساد. وإذ انتهى دورهما غادرا بالباص الصغير. وعند الساعة الواحدة من صباح السبت في ٢٠ شباط ـ فبراير غادر الفريق البيت السرّي، كلّ زوجين في سيّارة، وجلس روبنشتاين في السيّارة الأولى ليقود الفريق إلى شارع فابر ساكر شتراسه. وحالما وصلوا رُكنت السيّارتان مقابل المبنى.

لم تكن شقّة الزين مضاءة. ومضى صولي غولدبيرغ وراحيل جايكوبسون وأفرايم روبنشتاين مسرعين نحو الباب الزجاجيّ للمبنى. وكان الأخير يحمل لفّة من البلاستيك، وغولدبيرغ يحمل الكومبيوتر الصغير، وجايكوبسون كيسًا فيه أدوات التنصّت.

في هذه الأثناء بدأت ليا كوهين وماتي فنكلستين بحماسة أعمال المراقبة. وعلى الجهة الأخرى من الشارع كانت امرأة عجوز تعاني من الأرق، وقد أصرّت الشرطة السويسريّة في ما بعد على الإشارة إليها فقط باسم "مدام إيكس"، كانت تجد صعوبة في النوم. ومن شبّاك غرفة نومها حملقت في منظر غريب. كان رجل (روبنشتاين) يلصق البلاستيك المتدلّي على الباب الزجاجيّ حتّى لا يرى أحد ما يجري في المبنى المقابل. وخلف الستار البلاستيكي كانت تتراءى لها هيئة شخصين آخرين. وفي الشارع كانت سيّارة مركونة فيها زوجان مظلّلان. وكما نبّه داني ياتوم، كان المنظر غير مألوف فعلاً... فاتّصلت المرأة السويسريّة الألمانيّة بالشرطة.

بُعَيد الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلت سيّارة BMW تابعة للشرطة. وسرعان ما ضبط رجالها كوهين وفنكلستين وهما في غمرة العناق، متظاهرين بأنّهما عشيقان، فأمروهما بالبقاء في السيّارة. وفي الوقت نفسه وصلت سيّارة إسناد للشرطة،

وسُئل الثلاثة الذين كانوا داخل البهو إيضاح ما يفعلون، فقال غولدبيرغ وجايكوبسون أنّهما ظنّا أنّهما في المبنى الذي يقيم فيه أصدقاء لهما، وأصرّ روبنشتاين على أنّه كان يزيل ستار البلاستيك ولم يكن يعلّقه... واتّخذت الأمور بعدها طابعًا هزليًّا. فاستأذن غولدبيرغ وجايكوبسون للذهاب إلى سيّارتهما للتحقّق من عنوان أصدقائهما، فلم يرافقهما إلى هناك أيّ شرطيّ. وفي الوقت نفسه انطرح روبنشتاين أرضًا فبدا كمن أصيب بنوبة قلبيّة. فتجمّع كلّ رجال الشرطة لنجدته وجرى استدعاء الطبيب. ولم يحاول أحد إيقاف السيّارتين اللتين فرّتا مسرعتين في شارع فابر ساكر شتراسه في تلك الليلة الجليديّة. وبعد قليل توقّفت السيّارتان وانتقل أحد الزوجين إلى السيّارة الأخرى، وعبر الأربعة الحدود إلى فرنسا في الساعات الأولى من الصباح. في هذه الأثناء، نُقل روبنشتاين إلى المستشفى حيث تبيّن أنّه لم يصب بنوبة قلبيّة، فقُبض عليه.

أيقظ الضابط المناوب في مقرّ الموساد في تلّ أبيب عند الساعة الرابعة والنصف فجرًا داني ياتوم وأبلغه بما جرى. فسارع ياتوم إلى قيادة سيّارته بنفسه دون استدعاء سائقه إلى مقرّ الموساد وقد طار صوابه...

يقول باحثون إنّه بعد العمليّة الفاشلة التي جرت على يد الموساد في عمّان، جرى تبنّي خطّة لمعالجة أيّ كارثة مماثلة قد تقع في المستقبل. والخطوة الأولى، وفقًا لتلك الخطّة، تقضي بالاتّصال بكبير المناوبين بوزارة الخارجيّة الذي يتّصل بدوره بمدير مكتب رئيس الوزراء الذي يبلّغ بنيامين نتنياهو.

إتّصل نتنياهو بعد تلقّيه الخبر بسفير إسرائيل في المجموعة الأوروبيّة في بروكسيل "أفرايم هاليفي"، وهو دبلوماسي إنكليزي المولد أمضى حوالى ثلاثين سنة كأحد كبار ضبّاط الموساد، وكانت من أبرز مسؤوليّاته الحفاظ على علاقات حسنة مع أجهزة الأمن في الدول الأجنبيّة التي تقيم علاقات دبلوماسيّة مع إسرائيل. وكان قد

لعب دورًا مهمًّا في رأب الصدع في العلاقات مع الأردن بعد العمليّة الخرقاء في عمّان. ويُنسب إلى نتنياهو قوله لهاليافي وقتها: "عالج هذه المشكلة وستكون صديقي مدى الحياة".

راجع السفير مفكّرته التي ينقلها أينما ذهب قبل اتّخاذ قرار بمن يباشر اتّصالاته، فقرّ رأيه على "جاكوب كلربرغر"، أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجيّة السويسريّة. تكلّم هاليفي مع كلوبرغر بغاية الدبلوماسيّة، فقال إنّه وقع حادث مؤسف شارك فيه الموساد. فسأله: "إلى أيّ حدّ هو مؤسف؟"، فقال هاليفي"إلى أقصى حدّ". وهكذا تبلور روح الحديث فبدا أنّ هناك تفاهمًا في الأفق... أو هذا ما ظنّه على الأقلّ هاليفي قبل أن يتّصل كلوبرغر هاتفيًّا بالمدّعي العام الفدرالي السويسري، وكان المدّعي العام يومها قاضية تدعى "كارلا دل بونتي".

كانت دل بونتي تشبه داني ياتوم بشفتها السفلى الناتئة ونظّاراتها ذات الإطار الفولاذيّ، وكانت ضمن النظام القضائي السويسري شخصيّة مرعبة كما كان ياتوم في ميدان الاستخبارات الإسرائيليّة. وأوّل سؤال طرحته أوحى باتّجاهها، قالت: "لماذا لم تقبض شرطة ليبفيلد على جميع عملاء الموساد؟". لم يكن كلوبرغر يعلم السبب. وأثار سؤال دل بونتي التالي مخاوف كانت مألوفة لديه: "هل يحتمل أن يكون لعملاء الموساد مهمّة إيرانيّة؟".

ذلك أنّه منذ حرب الخليج وإسرائيل كانت تكرّر الزعم بأنّ عددًا من الشركات السويسريّة يزوّد إيران بما تحتاجه من تكنولوجيا لإنتاج الصواريخ. فهل يُحتمل أن تكون للعمليّة علاقة بما يشغل إسرائيل الشاغل الآخر، وهو ما بات يُعرف باسم "فضيحة الذهب اليهودي"؟ ذلك أنّ المصارف السويسريّة كانت قد وجدت من مصلحتها التستّر على أموال ضخمة أودعها في خزائنها

عدد من اليهود الألمان قبل الحرب العالميّة الثانية وقبل أن يسقطوا ضحايا للنازيّة...

في خلال عطلة نهاية الأسبوع ٢١ ـ ٢٢ شباط فبراير استمرّت دل بونتي في طرح الأسئلة، بينما عمل هاليفي جاهدًا لتهدئة الأمور، فتابع على مدى ثلاثة أيّام أخرى مناشدة كلوبرغر ومجادلته لإبقاء الحادثة طيّ الكتمان. لكنّ كارلا دل بونتي لم تقتنع.

وفي يوم الأربعاء الواقع فيه ٢٥ شباط ـ فبراير عقدت مؤتمرًا صحافيًّا دانت فيه الموساد، وممّا قالته:

"ما حدث أمر غير مقبول ويُفسد العلاقات بين دولتين صديقتين"[١].

كانت هذه الشعرة التي قصفت ظهر البعير الذي كان يمتطيه داني ياتوم في رئاسته للموساد.

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٥٥ ـ ٣٥٦، ٣٥٩ ـ ٣٦٥.

نِهاَيةُ عَهد داني يَاتُوم

لم يكن سفير إسرائيل في المجموعة الأوروبيّة في بروكسيل أفرايم هاليفي أثناء معالجته لفضيحة عمليّة الموساد الفاشلة في سويسرا يحسب حساب القوى المتضافرة ضدّ داني ياتوم داخل إسرائيل... ولم يكن يعلم بأنّه سيخلف داني ياتوم بعد أيّام قليلة على رأس الموساد.

مع رشوح حادث فشل عمليّة الموساد في سويسرا إلى داخل الموساد، هوت المعنويّات مرّة أخرى. لم يكن لياتوم هذه المرّة أيّ عذر لإلقاء اللوم على نتنياهو لفشل عمليّة ليبيفلد، فلم يكن رئيس الوزراء على علم مسبق بالعمليّة. ومن مكتب رئيس الوزراء بدأ الهمس يصل إلى وسائل الإعلام الإسرائيليّة بأنّ ياتوم هالك لا محالة.

قبل نهاية شباط ـ فبراير ١٩٩٨ كان ياتوم هو من استقال. ولم يبعث رئيس الوزراء نتنياهو إلى رئيس استخباراته المهزوم رسالة الشكر المعتادة على ما قدّمه من خدمات.

لقد قُضي على مستقبل داني ياتوم المهنيّ وأصبحت سمعة الموساد في الحضيض. وفي آخر لحظات عمله كمدير عام للموساد فاجأ ياتوم موظّفيه الذين كانوا متجمّعين في مطعم الموساد. اختفت نبرة العسكري البروسي الباردة واستُبدلت بنبرة عاطفيّة: إنّه آسف لاضطراره إلى الرحيل عنهم في مثل هذا الوقت، لكنّه حاول أن يكون لهم القائد الأفضل. وينبغي أن يتذكّروا دائمًا أنّ الموساد أكبر من الأشخاص. وأنهى كلامه بتمنّيات لمن سيحلّ محلّه بالحظّ الوافر الذي سحتاج إليه. وقد كان هذا أقرب تعبير

صدر عن ياتوم عن موقفه من رئيس وزراء ظلّ يعتقد بإمكان سيطرة مكتبه على الموساد مهما يطل الزمن.

خرج ياتوم من المطعم الساكن، ولم يبدأ التصفيق إلاّ عندما دخل الممرّ، ولم يلبث أن توقّف بسرعة كما بدأ.

عام ١٩٩٩ وجد ياتوم لنفسه موضعًا لائقًا في صناعة الأسلحة المزدهرة في إسرائيل، وأصبح بائعًا لإحدى أكبر شركات صناعة الأسلحة في البلاد. ولا تزوّد الشركة تشكيلة من الأسلحة للاستخدام المحلّي فحسب، بل لها حصّة كبيرة في الصادرات الموجّهة إلى بلدان العالم الثالث. ويقوم ياتوم بزيارات منتظمة إلى البلدان الأفريقيّة وبلدان أميركا الجنوبيّة، وبين الحين والآخر، يزور واشنطن[1].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٦٥ ـ ٣٦٦.

الحقبة التّاسعة من تاريخ الموساد

الموساد في عهدِ أفرايم هَاليفي

عندما قال رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو لأفرايم هاليافي عبر الهاتف من تلّ أبيب إلى بروكسيل: "عالج هذه المشكلة وستكون صديقي مدى الحياة"، في إشارة إلى معالجة ذيول المشكلة التي نشأت في سويسرا بعد فشل عمليّة الموساد التي كانت تقضي باغتيال أحد مسؤولي حزب الله عبدالله الزين، لم يدرك هاليفي ما عناه نتنياهو أو ما كان يقصده من ترجمة عمليّة للصداقة الموعودة. ولم تمضِ أيّام قليلة على هذا الوعد بالصداقة، حتّى عيّن بن يامين نتنياهو أفرايم هَاليفي رئيسًا أو مديرًا عامًّا للموساد خلفًا لداني ياتوم.

أفرايم هَاليفي هذا إنكليزيّ المولد، أمضى حوالى ثلاثين سنة كأحد كبار ضبّاط الموساد قبل أن يلعب دورًا مركزيًّا في المفاوضات التي أدّت إلى توقيع معاهدة السلام مع الأردن عام ١٩٩٤، ثمّ عيّن سفيرًا لإسرائيل في المجموعة الأوروبيّة في بروكسيل، وكانت من أبرز مسؤوليّاته الحفاظ على علاقات حسنة مع أجهزة الأمن في الدول الأجنبيّة التي تقيم علاقات دبلوماسيّة مع إسرائيل. وكان قد لعب دورًا مهمًّا في رأب الصدع في العلاقات مع الأردن بعد العمليّة الخرقاء التي قام بها الموساد في

عمّان عندما حاول اغتيال زعيم حركة "حماس" خالد مشعل في أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٧. لكنّ هاليفي كان قد بقي سنوات عدّة بعيدًا عن عمل الاستخبارات الفعليّ.

بعد أسبوع على استقالة داني ياتوم، وافق إفرايم هاليفي على تولّي إدارة جهاز الموساد بعدما اعترف بنيامين نتنياهو في سابقة سجّلها رئيس الوزراء الإسرائيليّ بقوله: "إنّني لا أستطيع نكران أنّ صورة الموساد قد تضرّرت من فشل بعض المهام". وعلى نهج السياسيّين البارعين، سار نتنياهو، فأغفل الدور الذي لعبه هو في هذا الفشل.

أصبح أفرايم هاليفي تاسع مدير عامّ للموساد يوم الخميس ٥ آذار ـ مارس ١٩٩٨. وقد خرج على التقاليد فلم يستدع كبار الموظّفين لديه لسماع رأيه في كيفيّة إدارة الجهاز في السنتين المقبلتين. فعندما أعلن نتنياهو تعيين هاليفي، أعلن أيضًا أنّه في ٣ آذار ـ مارس ٢٠٠٠، سيتولّى نائب المدير العام "أميرام ليفين" مسؤوليّة إدارة الجهاز. وقد قوبِل النبأ ببعض الاستغراب، فهذه أوّل مرّة يعيّن فيها مدير عامّ لولاية محدّدة، وأوّل مرّة يوعَد فيها نائب المدير العام بتولّي المنصب الأرفع[1]. ولكنّ بعض الأوساط المقرّبة من نتنياهو أفاد بأنّ ترتيبًا سياسيًّا معيّنًا فرض على نتنياهو اتّخاذ هذا التدبير، أضف إلى ذلك أنّ هاليفي كان سيبلغ السنّ التقاعديّة في خلال عامَين. ومن المعروف أنّ ليفين كان كسلفه الأسبق مائير عاميت، بلا خبرة مسبقة بأعمال المخابرات، لكنّه كان الآمر المتميّز للجيش الإسرائيلي في شمال فلسطين وجنوب لبنان.

كانت المهمّة الأولى الملقاة على عاتق هاليفي تخفيض التوتّر الهائل وحالات الاستياء الرهيبة داخل الموساد التي أضرّت كثيرًا بصورة الجهاز داخل إسرائيل

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٦٦ .

وخارجها. وقد تلقّى المدير العامّ الجديد اتصالات هاتفيّة من وكالة CIA الأميركيّة وجهاز MI 6 البريطاني تهنّئه بالمنصب الجديد، كما جرت العادة، لكنّ المهنّئين أبلغوه أنّ جهازيهما يفضّلان التريّث لرؤية كيفيّة معالجته للأزمة القائمة داخل الموساد قبل أن يُلزموا جهازيهما التزامًا تامًّا بالتعاون المؤسَّس على الثقة والصراحة. وأحد عوامل هذه الأزمة هم المتطرّفون في الحكومة الإسرائيليّة وخصوصًا رئيس وزرائها...

السؤال الذي طرح نفسه آنذاك: هل سيتمكّن هاليفي، وهو الأكبر سنًّا بسنوات من أيّ من أسلافه في هذا المنصب، من منع نتنياهو من التدخّل المباشر في شؤون الموساد؟ وهو الذي كان قد بقي سنوات عدّة بعيدًا عن عمل الاستخبارات الفعليّ. فمنذ أيّام خدمته في الموساد أظهر الجهاز دلائل متزايدة على وقوعه في الفوضى نتيجة محاولات كبار الضبّاط العمل على الترقّي في مراتبه. وقد بقي معظم هؤلاء الذين كانوا في منتصف أعمارهم في مناصبهم. فهل يستطيع هاليفي أن يتعامل معهم بحزم؟ هل يمتلك المهارات الفنيّة الضروريّة لرفع المعنويّات؟

إنّ الاختلاط بالناس في مرابع حفلات الكوكتيل في بروكسيل لم يكن من أفضل الاستعدادات للقيام بمهمّة إبعاد كبار العملاء عن حافّة الاستقالة. وقد أشار منتقدو هاليفي إلى أنّه لا يمتلك أيّ خبرة ميدانيّة عملانيّة شخصيّة، فقد كان رجلاً مكتبيًّا في الحقبة السابقة التي أمضاها في الموساد. ثمّ ماذا يستطيع أن يحقّق في سنتين؟ أم تراه سيوقّع على بياض لنتنياهو أو ربّما لزوجة نتنياهو، سارة؟

إنّ تحقيق كلّ ما عليه تحقيقه قبل الرحيل عن الجهاز، يبقى اختيارًا صعبًا لمقدرة هاليفي الجسديّة والعقليّة على الصمود. لقد استغلّ جهازا أمان وشين بيت فرصة الاضطرابات داخل الموساد لتحسين موقعيهما ليتقدّما على الأجهزة الأمنيّة كافّة. لكنّ أحدًا لم يقترح انتزاع دور جهاز الموساد كعين إسرائيل السريّة على العالم. فقد كان

الجميع في إسرائيل يعتبر، بمن فيهم رئيسا أمان وشين بيت، أنّه إذا استغنت إسرائيل عن مهاراتها في التجسّس الخارجيّ، فقد تواجه الهزيمة على أيدي أعدائها في الألفيّة الثالثة... فإيران والعراق وسوريا قد طوّرت جميعًا تكنولوجيا تجب مراقبتها عن كثب...

في البداية، كان أسلوب الموساد العملاني "عمل ما يجب عمله، ولكن في سريّة". وفي أحد اجتماعاته الثنائيّة مع أحد الموظّفين، قال هاليفي إنّه يتمنّى أن يرى أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة وقد تحولّت مرّة أخرى إلى عائلة موحّدة، و"يكون الموساد العمّ الذي لا يتكلّم عنه أحد".

سرت تكهّنات في أجهزة الاستخبارات الإسرائيليّة بأنّ سارة زوجة نتنياهو قد لعبت دورًا في إزاحة داني ياتوم الذي لم تكن ترتاح له. إلاّ أنّ هاليفي قد نجح في إثارة إعجابها، إذ أهدى إليها رقاقة كومبيوتر طوّرها علماء الأبحاث في الموساد، فإذا زُرعت تحت جلدها ساعدتها على النجاة في حال وقوعها في المحافل في أيدي الإرهابيّين. فالإشارة التي تصدر عن الرقاقة والتي تعمل بطاقة الجسم الطبيعيّة تتّصل بأحد الأقمار الاصطناعيّة الإسرائيليّة الجديدة، الأمر الذي يساعد على تحديد مخبإ من يحملها. وليس معلومًا ما إذا كانت سارة قد زرعت الرقاقة داخل جسمها بالفعل.

فشَلُ مُحاولَة إقَامة شبَكة تجَسُّس في قبرُص

سرعان ما برزت مسائل أشدّ إلحاحًا من جذب سارة زوجة رئيس الوزراء نتنياهو. فالعمليّة الرئيسيّة الأولى التي صادق هاليفي عليها بحماسة، وهي محاولة إقامة قاعدة تجسّس في قبرص، واجهت الفشل الذريع.

كان أمر عميلين للموساد يتظاهران بأنّهما مدرّسان يمضيان إجازتهما قد افتُضح لجهاز الأمن القبرصيّ اليوناني الكفؤ على صغره، فاقتحم شقّة العميلَين واكتشف أنّها مليئة بالمعدّات العالية التطوّر القادرة على التجسّس على خطط قبرص لتعزيز دفاعاتها في وجه جارتها تركيا. كان ذلك في السابع من تشرين الثاني – نوفمبر ١٩٩٨، وأكّد المتحدّث باسم الشرطة القبرصيّة أنّ العميلَين اللذين عرفا باسم "عودي هارغوف" (٣٧سنة) و"ييغال داماري" (٤٩ سنة) متّهمان بالتجسّس على أنشطة الحرس الوطنيّ القبرصيّ. وأوضحت الشرطة أنّها قامت فجر يوم السبت في ٧ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٩٨ باقتحام إحدى الشقق في بلدة "زيغي" الساحليّة، حيث عثرت على وثائق تؤكّد قيام هذين العميلين بأنشطة تجسّسيّة. وأبلغ ضابط الشرطة القبرصيّ "كيرياكوس"

---

١ - إنّ اختيار العميلين لقرية "زيغي" يحمل أبعادًا كبيرة وأهدافًا غير بريئة، باعتبار أنّ شقق استجمام للإيجار أقيمت فيها، بيد أنّ هذه المنطقة هي منطقة عسكريّة في جوهرها، وتنتشر فيها وحدات الأسطول القبرصيّ، ومشاة البحريّة والكوماندوس.، وبقرب شقّة الاستجمام التي استأجرها الإسرائيليّان توجد بطّاريّة صواريخ من طراز "أكسوست" المضادّة للسفن.

المحكمة بأنّه تمّ العثور على كاميرات ومعدّات لاسلكيّة ووثائق داخل شقّة اليهوديّين اللذين كانا تحت المراقبة بعد الاشتباه بقيامهما بالتجسّس على الجيش القبرصيّ لمصلحة الكيان اليهوديّ. وكان قد تمّ تقديم العميلين إلى المحكمة بعد ساعات من اعتقالهما.

أرسل هاليفي نائبه إلى قبرص اليونانيّة للتفاوض في شأن إخلاء سبيل العميلَين. ولعلّه تمنّى في ما بعد لو أنّه ذهب بنفسه، فرئيس إسرائيل "عازر وايزمان" كان صديقًا شخصيًّا حميمًا للرئيس القبرصي "بيفاكوس كلاريدس"، إذ كان الرجلان قد عملا معًا في شبابهما في القوّة الجويّة الملكيّة البريطانيّة... إلاّ أنّ رئيس اللجنة القانونيّة في البرلمان القبرصيّ "بانايوتي ديمتريو" أكّد رفض قبرص إطلاق سراح العميلين، وقال: "إنّ الجهود التي يبذلها الإسرائيليّون ودول أخرى من أجل إطلاق سراحهما لن تؤدّي إلى نتيجة، لأنّ القانون القبرصيّ هو الذي سيحاكمهما لأنّهما أضرّا بأمن قبرص. وأشار إلى أنّ نشاطات هذين العميلين استهدفت مواقع عسكريّة قبرصيّة في أكثر من مكان، وخاصّة تلك التي لها علاقة بنشاطات سلاح الجوّ القبرصيّ. وأوضح أن نشاط عميلي الموساد زاد في قبرص، بشكل خاص، أثناء إجراء مناورات جويّة وبحريّة، حيث دخلا إلى قبرص قُبيل بدء المناورات القبرصيّة ـ اليونانيّة الأخيرة في تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٩٨.

كذّبت الوقائع ادّعاء شيمون بيريز بأنّ نشاط العميلين كان يستهدف مواجهة النشاط الإسلاميّ والتصدّي له... فقد كشف النقاب عن أنّ العميلين زارا قبرص مرّتين في الآونة الأخيرة، وكانت المرّة الأولى بين ١٥ و٢٢ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٩٨،

---

١ ـ جريدة "السفير" اللبنانيّة، عدد ٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٨، ص١ و١٨.

عندما أجرت قبرص مناورات بريّة، وقد غادر الإثنان قبرص في ٢٢ تشرين الأوّل ـ أكتوبر وعادا إليها يوم الجمعة في ٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٨. ثمّ إنّ الشرطة القبرصيّة قد اعتقلت العميلَين متلبّسين أثناء قيامهما بمهمّة تجسّس ضدّ إحدى القواعد البحريّة القبرصيّة. وقد ضبطت معهما أجهزة تصوير وأجهزة اتّصال لاسلكيّ وأجهزة تسجيل وباحثًا إلكترونيًّا متطوّرًا لرصد اتّصالات الأجهزة الهاتفيّة واللاسلكيّة وتسجيلها، واحتوت أشرطة التسجيل التي ضبطت معهما على مكالمات لاسلكيّة للقوّات البحريّة القبرصيّة باللغة اليونانيّة، الأمر الذي يثبّت، حسب قول السفير القبرصيّ في إسرائيل "يوريفيدس أفريفياديس"، أنّهما كانا يتجسّسان على مناورات الجيش القبرصيّ[1]. كذلك قال رئيس الأركان القبرصيّ "ديميتريو ديمو" إنّ الإثنين ضبطا أثناء نشاط بالغ الحساسيّة للجيش القبرصيّ.

إثر تلك العمليّة الفاشلة، وفشل معالجتها من قبل هاليفي، أرسل وايزمن رئيس أركانه "ليذلّ نفسه في قبرص"، ثمّ هاجم هاليفي بصورة كان نتنياهو سيتردّد دون استخدامها ضدّ ياتوم[2]...

وقد ذكر بعض التقارير أنّه نتيجة لهذه الفضيحة، استقال رئيس قسم العمليّات في جهاز الموساد من منصبه، وقد قبل رئيس الموساد هاليفي إستقالة هذا المسؤول الذي عُرف فقط باسم "يود"، وهو الحرف العبريّ الأوّل من إسمه[3].

---

١ ـ وكالتا ويتر، وأ.ف.ب.، ١١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٨.

٢ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٦٦ ـ ٣٦٧.

٣ ـ جريدة "السفير" اللبنانيّة، عدد ٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٨، ص١٥.

فَضيحَةُ فشَل خطَّة اغتيَال صدَّام حُسَين

لم تكن آثار فضيحة الموساد في قبرص قد زالت من أجواء الموساد عندما أعقبها حدوث فضيحة عمليّة أخرى عندما اضطرّ الموساد إلى إلغاء خطّة كانت تقضي باغتيال الرئيس العراقيّ صدّام حسين أثناء زيارته لعشيقته، بعدما تسرّبت تفاصيل الخطّة إلى أحد الصحافيّين الإسرائيليّين. ولم يعرف نتنياهو بما حدث إلاّ عندما اتّصل الصحافيّ بمكتبه طالبًا التعليق. ومرّة أخرى وجد هاليفي السيّء الطالع نفسه في مواجهة عمليّة تأنيب قاسية.

وفي السادس عشر من كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣، كشفت مصادر أمنيّة إسرائيليّة أنّ قوّات إسرائيليّة خاصّة خطّطت لاغتيال الرئيس العراقي صدّام حسين في خلال جنازة كان من المتوقّع أن تجري في العراق بعد حرب الخليج عام ١٩٩١. لكنّ العمليّة أُحبطت بعد مقتل خمسة جنود أثناء التدريب.

فقد رفعت هيئة الرقابة العسكريّة الاسرائيليّة يوم الإثنين في ١٥ كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣ حظرًا استمرّ عشر سنوات على نشر الخطّة ما سمح للصحف بنشر تفاصيل المهمّة المحبَطة بعد أيّام من اعتقال القوّات الأميركيّة للرئيس العراقي المخلوع صدّام حسين في الثالث عشر من كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣.

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٦٨.

وقد بيّنت التفاصيل التي نُشرت أنّ الحكومة الإسرائيليّة لم تكن قد وصلت إلى حدّ الموافقة على الخطّة التي كان هدفها الانتقام بعد هجمات عراقيّة بصواريخ سكود على إسرائيل أثناء حرب الخليج.

وكانت الخطّة تقضي بنزول قوّات إسرائيليّة خاصّة في عمق الأراضي العراقيّة على مسافة بضعة كيلومترات من مدفن كان من المتوقّع أن يزوره صدّام في خلال تشييع عمّ له علمت المخابرات العسكريّة الإسرائيليّة أنّه موشك على الموت. وكان من المقرّر أن يُطلق الجنود الاسرائيليّون صواريخ خاصّة "ذكيّة" مزوّدة بكاميرات تمكّنهم من استهداف صدّام وسط حشد من المسؤولين وأفراد أسرته وحرسه الخاص لدى حضوره الجنازة. لكنّ العمليّة أُحبطت بعد مقتل خمسة جنود إسرائيليّين بصاروخ أثناء التدريب على تنفيذ الخطّة في قاعدة في جنوب إسرائيل يوم الخامس من تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٩٢. وقال الميجر "ناداف زئيفي" ضابط المخابرات السابق الذي كان مسؤولاً عن المهمّة للإذاعة الإسرائيليّة "أدركنا أنّ علينا أن نجد شيئًا يهمّ صدّام من الناحية العاطفيّة بدرجة تمنعه من إرسال شبيه له". ذلك أنّه عُرف عن صدّام أنّه كان يستخدم أشباهًا له في بعض المناسبات العامّة خوفًا من الاغتيال.

وقال "زئيفي" الذي كان مسؤولاً عن جمع معلومات عن الفرص المتاحة لاغتيال صدّام إنّه خلص إلى أنّ الفرصة المثلى هي ضربه في خلال الجنازة المنتظرة لعمّ يحبّه كان يعاني من مرض السكّري وكان على فراش الموت. وأضاف: "أدركنا أنّ الجنازة ستكون مهمّة بالنسبة له وأنّه سيذهب بنفسه".

وقد وُضعت خطّة اغتيال صدّام بعد حرب الخليج التي أطلق خلالها العراق عشرات من صواريخ سكود على المدن الإسرائيليّة. وقال مصدر أمنيّ إسرائيليّ طلب عدم نشر اسمه: "كان هناك اعتقاد بأنّ قدرة إسرائيل على الردع تضرّرت بشدّة

بقرارها عدم الردّ على الهجمات بصواريخ سكود. وضرب صدّام كان يُعتبر ضروريًا من الناحية الاستراتيجيّة". ووصف المصدر الإسرائيلي الخطّة بأنّها تكملة للغارة الاسرائيليّة عام ١٩٨١ التي دمّرت مفاعلاً نوويًا عراقيًا كان تحت الإنشاء.

لم يُطلَع الإسرائيليّون بالكامل على خلفيّة "الكارثة" التي وقعت في قاعدة التدريب في صحراء النقب في جنوب إسرائيل. وقال المحلّل العسكريّ "رون بن يشاي" إنّ "المهمّة كانت ستحقّق إنجازًا كبيرًا لإسرائيل"[١].

عمليّةُ خَطفِ أوجالان وتَدَاعيَاتُها

في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٨، اتّصل رئيس الوزراء التركي "بلند أجاويد" هاتفيًّا برئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو وسأله إذا كان الموساد مستعدًّا للمساعدة على اعتقال "عبدالله أوجالان" الزعيم الكردي الذي تصفه البلدان الأخرى بأنّه إرهابيّ، وتحمّله تركيا المسؤوليّة عن مقتل ٣٠ ألف شخص على أرضها.

على مدى عشرين عامًا خاض حزب العمّال الكردي BKK بقيادة أوجالان حرب عصابات تهدف إلى تحقيق الحكم الذاتيّ للإثني عشر مليون كردي في تركيا الذين لا يتمتّعون بحقوق الأقليّات كالتعليم أو السماح لهم باستخدام لغتهم في البثّ الإذاعي. وقد نجح أوجلان باستمرار في مراوغة جهاز الأمن التركي بلا عناء. كان زعيمًا بثّ في شعبه حماسة شديدة. كان كلّ منهم رجلاً كان أم امرأة أم طفلاً مستعدًّا للموت من

١ ـ رويترز، ١٦ كانون الأول ـ ديسمبر ٢٠٠٣.

أجلـه. وكـان العديد منهم يعتبرونـه رمـزًا أسطوريًّا للجرأة والدهـاء. وكـانت أعمالـه البطوليّة تُروى بلا كلل كلّما اجتمع كرديّان أو أكـثر. كـانت هنـاك عاطفـة صادقـة فـي خطبه وتحدّيًا جريئًا في مواجهته تركيا.

في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٨، وبعدما انتقـل أوجـالان بسـرعة عبر موسـكو، ظهر في روما، فرفضت الحكومة الإيطاليّة اسـترداده إلـى تركيـا. كمـا رفضـت أيضـًا طلبه الحصول على حقّ اللجوء السياسيّ.

كان الإيطاليّون قد اعتقلوا أوجالان بموجب مذكّرة توقيف ألمانيّة لاستخدامه جـواز سفر مزوّرًا. لكن أُخلي سبيله عندما سحبت بون طلب استرداده مخافة إغضاب جاليتها التركيّة الكبرى. في تلك اللحظة، اتّصل رئيس الوزراء التركيّ بلندا بنتنياهو.

تعتبر إسرائيل قيام علاقـة تعـاون مـع تركيـا عنصـرًا مهمًّـا مـن عنـاصر خطّتهـا الاستراتيجيّة والدبلوماسيّة للبقاء، ولذلك وافق نتنياهو، واتّصل في نهاية تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٩٨ برئيس الموساد الجديد هاليفي وأمر بـالعثور علـى أوجـالان فـي عمليّـة أخرى لا يظهر تـورّط الموسـاد فيهـا جليًّـا. فـإذا نجحـت ادّعـت الاسـتخبارات التركيّـة الفضل كلّه لنفسها في ذلك.

أطلق الموساد على العمليّة إسمًا رمزيًّا "اليقظة"، وهـو إسـم يعكـس اهتمـام هـاليفي نفسه بعدم التسبّب بتعطيل عمليّته القائمة في العراق حيث يتعاون ضبّـاط الموسـاد مـع المتمرّدين الأكراد على زعزعة نظام صدّام حسين.

أرسل هاليفي ستّة عملاء من الموساد إلى روما كـان فـي عدادهـم مسـاعدة عميـل وفنيّان من وحدة الاتّصالات في الموساد. ومن منزل سرّي قـرب الـ"بـانتيون" أخضـع الفريق للمراقبة شقّة أوجالان القريبة من الفاتيكان. وكُلّفت المرأة السعي للإتّصـال بـه،

فاتّبعت التعليمات الثابتة التي تستخدمها غانيات الموساد لإغواء ضحاياهنّ. لكنّ الخطّة لم تنجح هذه المرّة لأنّ الزعيم الكرديّ قرّر مغادرة إيطاليا فجأة. وراح فريق من الموساد يبحث عن أوجالان في حوض المتوسّط: في إسبانيا والبرتغال وتونس والمغرب وسواها من البلدان...

كان أوجالان قد زار كلّ تلك البلدان وغادرها بعدما أحجمت عن منحه اللجوء السياسيّ. وفي ٢ شباط ـ فبراير ١٩٩٩، عُثر على الزعيم الكرديّ وهو يحاول دخول هولندا، لكنّ الحكومة الهولنديّة منعته. وأبلغ ضابط أمن هولنديّ في مطار "شيبول" في أمستردام رئيس فرع الموساد المحلّي أن أوجالان رحل على طائرة تابعة لشركة KLM متّجهة إلى نيروبي. فانطلق متعقّبو أوجالان وراءه نحو العاصمة الكينيّة التي وصلوها صباح يوم الخميس في الخامس من شباط ـ فبراير.

أنشأت كينيا وإسرائيل على مرّ السنين "تفاهمًا" وثيقًا يتعلّق بشؤون الاستخبارات. وإذ كانت كينيا جزءًا من رحلة القنص التي يقوم بها الموساد في أفريقيا الوسطى، فقد كشف الجهاز الإسرائيلي للكينيّين نشاطات شبكات التجسّس الأجنبيّة الأخرى. وفي المقابل استمرّت كينيا بمنح الموساد وضعًا خاصًّا فسمحت له بالاحتفاظ ببيت سرّي في المدينة، وسهّلت له الاتّصال بجهاز الأمن الكينيّ الكفؤ برغم صغر حجمه.

لم يلبث فريق الموساد أن عثر على مكان إقامة أوجالان في مجمّع مباني السفارة اليونانيّة في نيروبي. كان الأكراد الذين افترض فريق الموساد أنّهم حرّاسه الشخصيّون يدخلون المجمّع ويخرجون منه بين الحين والآخر. وكان رئيس فريق الموساد يرفع تقريرًا يوميًّا إلى تلّ أبيب. أمّا الأمر الدائم الذي كان يتلقّاه من مقرّ الموساد في تلّ أبيب فكان: "راقبوا ولا تأتوا بأيّ حركة". ثمّ تغيّر الأمر تغيّرًا مثيرًا: "إستخدموا كلّ

الوسائل المتاحة" لإخراج عبدالله أوجالان من مجمّع السفارة اليونانيّة وإرساله إلى تركيا. وكان هاليفي هو من أصدر الأمر.

ساعد الحظّ في إنجاح مهمّة الفريق. فقد خرج أحد الأكراد من السفارة وسار بسيّارته إلى حانة قريبة من فندق "تورفولك" الراقي. واستخدم أحد عناصر الفريق حيلة من حيل الموساد المعروفة، فسار إلى جانب الكرديّ واستغلّ لون بشرته الداكن وإتقانه اللغة الكرديّة ليزعم أنّه كرديّ يعمل في نيروبي. ومنه علم أن أوجالان بدأ يتململ... فلم يأته الردّ على طلبه اللجوء السياسيّ في جنوب أفريقيا، وهناك دول أفريقيّة أخرى مثلها تنفر من منح الزعيم الكرديّ تأشيرة دخول إلى أراضيها.

استخدم فريق التنصّت في الموساد أجهزته للإصغاء إلى الاتّصالات التي تجري مع المجمّع ومنه، فاتّضح أنّ اليونان ترفض أيضًا منح أوجالان حقّ اللجوء. عندها ضرب عميل الموساد الذي التقى الكرديّ في الحانة ضربته.

إتّصل العميل هاتفيًا بالكردي في مجمّع السفارة اليونانيّة ودعاه إلى "اجتماع عاجل"، فالتقيا مرّة أخرى في الحانة حيث أبلغه أنّ حياة أوجالان في خطر إذا بقي مقيمًا في المجمّع، ولا أمل له إلاّ بالالتحاق بإخوانه الأكراد، ليس في تركيا، بل في شمال العراق، حيث الرحابة الجبليّة تقيه من الخطر وتوفّر له فرصة إعادة تنظيم قوّاته. ويبدو أنّ أوجالان نفسه كان قد بدأ يدرس مثل هذه الخطّة بالفعل، وقد سمع فريق المراقبة الإسرائيليّ ذلك. وأقنع عميل الموساد الكرديّ بالعودة إلى مجمّع السفارة والعمل على إقناع أوجالان بالخروج إليه لمناقشة المقترَح. وهكذا نُصب الشرك القاتل. ولم يبق إلاّ الانتظار لتبيّن كم سيصمد أوجالان أمام إغراء الطعم.

علم فريق الموساد من اعتراض الاتّصالات اللاسلكيّة من وزارة الخارجيّة اليونانيّة في المجمّع أنّ مضيفي أوجالان المتمنّعين لن يلبثوا أيّامًا قليلة حتّى يطلبوا منه

الرحيل. وفي رسالة سريّة جدًا لإطلاع السفير شخصيًا دون سواه، قال رئيس وزراء اليونان "كوستاس سيمتيس" إنّ استمرار بقاء أوجالان في المجمّع سيحدث مجابهة سياسيّة وربّما عسكريّة في اليونان.

في صباح اليوم التالي حطّت طائرة خاصّة من طراز "فالكون ـ ٩٠٠" في مطار "ويلسون" في نيروبي، وقال قائدها إنّه جاء لينقل مجموعة من رجال الأعمال سيسافرون لحضور مؤتمر في أثينا. وما حدث بعدئذٍ لا يزال مثار جدل واسع. فقد زعم محامي أوجالان الألماني في ما بعد أنّه "بالاستناد إلى تشويه حقائق الموقف من جانب السلطات الكينيّة، فقد جرى انتزاع أوجالان بالقوّة من المجمّع". لكنّ الحكومة اليونانيّة وسفارتها في نيروبي أنكرتا ذلك بشدّة، وأصرّ اليونانيّون على أنّ الزعيم الكرديّ قد غادر المجمّع مخالفًا نصيحتهم له بالبقاء. لكنّ المؤكّد هو أنّ الطائرة الخاصّة أقلعت من نيروبي وهي تقلّ أوجالان. وحالما خرجت من المجال الجوّي الكيني بدأ طرح الأسئلة: هل اتّبع فريق الموساد أسلوبه المعتاد فحقن أوجالان بعقار شلّ حركته حالما خرج من المجمّع؟ أم أنّ خطف أوجالان قد جرى كما جرى من قبل خطف أدولف أيخمن في بوينس أيرس؟ وهل تعامت كينيا عن عمل يخالف جميع القوانين الدوليّة؟

بعد ساعات من احتجاز أوجالان في أحد السجون التركيّة، ظهر رئيس الوزراء التركيّ بلند أجاويد على شاشة التلفزة متهلّلاً ليتحدّث عن "انتصار إستخباراتيّ... وعن عمليّة مراقبة ذكيّة جرت في نيروبي على مدى اثني عشر يومًا". ولكنّ أجاويد لم يأت على ذكر الموساد كما قضى الشرط.

كان على أفرايم هاليفي أن يوازن نجاح العمليّة بخسارة شبكة تجسّس في العراق كانت تعتمد كثيرًا على الدعم الكرديّ لها. ولم يكن هاليفي أوّل رئيس للموساد يتساءل

ما إذا كانت حماسة بنيامين نتنياهو لتحويل الموساد إلى جهاز مرتزقة ستؤدّي إلى عواقب بعيدة المدى في الميدان الواسع لجمع المعلومات السريّة[1].

حزبُ الله يخترق الموسَاد

عمليّة استدراج ضابط الموساد الإسرائيليّ "ألخنان تانينبوم" من قبل حزب الله إلى لبنان في تشرين الأوّل - أكتوبر ٢٠٠٠، وبالتالي احتجازه من قبل الحزب، تعتبَر من أنجح العمليّات في تاريخ المخابرات والتجسّس، كما تُعتبر نصرًا باهرًا أحرزه جهاز أمن حزب الله ضدّ جهاز الموساد الذي يكثر من ادّعاءاته بأنّه جهاز أسطوريّ يصعب اختراقه أو هزيمته أو التغلّب على بعض أساليبه في عالم المخابرات وعالم الجاسوسيّة...ولكن من الصعب على هذا الجهاز أنّ يقرّ بالهزيمة ويعترف بالإخفاق والفشل...

فبالرغم من أنّ العمليّة كانت واضحة تمام الوضوح، خاصّة بعد إعلان تفاصيلها من قبل أمين عام حزب الله السيّد حسن نصرالله في مؤتمر صحافيّ عقده لهذه الغاية في ١٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ٢٠٠٠، فقد توسّع الإسرائيليّون في فزلكة المسألة وتوسيع اجتهاداتهم الروائيّة ودائرة اتّهاماتهم لتطال سوريا وإيران، بينما الذي خطّط للعمليّة ونفّذها كان جهاز الأمن في حزب الله بتوجيهات من قيادته.

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٦٨ ـ ٣٧١.

تختصر هذه العمليّة في أنّ العقيد الإسرائيليّ العامل في الموساد ألخنان تانينبوم، العامل في بلد أوروبيّ، حاول عبر أحد الوسطاء الأوروبيّين اختراق حزب الله من خلال استيعاب أحد كوادره العليا، مدّعيًا أنّه يعمل لحساب استخبارات أجنبيّة غير إسرائيليّة. وقد تمكّن الحزب من نصب فخّ ذكيّ للعميل الإسرائيليّ شرحنا تفاصيله في موضوع الاستخبارات اللبنانيّة، فتمّ استدراجه إلى لبنان حيث تمّ توقيفه والتحقيق معه حتّى أقرّ بحقيقت هويّته.

في هذا الصدد، نشرت جريدة "هآرتس" الإسرائيليّة أنّ التقديرات في إسرائيل تشير إلى مشاركة "عماد مغنيّة"، الذي وصفته الصحيفة بـ"وزير خارجيّة حزب الله" في عمليّة أسر ضابط الموساد. ومغنيّة، بحسب الصحيفة، هو المسؤول عن العمليّات الخارجيّة للحزب. وكان أيضًا وراء تفجير سفارة إسرائيل في الأرجنتين، ومقرّ الجالية اليهوديّة هناك، عامي ١٩٩٢ و١٩٩٤، وهو كذلك المسؤول عن تفجير قيادة الجيش الإسرائيليّ في صور عام ١٩٨٣، وتدمير السفارة الأميركيّة في بيروت ومقرّ المارينز. وبالاستناد إلى الصحيفة فقد انتقل مغنيّة في نهاية ثمانينات القرن العشرين إلى طهران خوفًا على حياته... وعمل زمنًا بتغطية إيرانيّة...

وبغضّ النظر عمّا إذا كان مغنيّة متورّطًا في عمليّة استدراج ألخنان تانينبوم واحتجازه أم لا، فإنّ اسمه يثير قلقًا شديدًا في إسرائيل.

لقد تعدّدت الروايات في الصحف الإسرائيليّة حول مسألة ألخنان تانينبوم، واجتهد الإسرائيليّون في تكثيف الملابسات حول الحادث، في محاولة لتغطية فضيحة الموساد هذه. فقد ذكرت صحيفة هآرتس أنّ هناك أكثر من رواية واحدة في شأن اختفاء ألخنان تانينبوم، منها أنّه اختلف أخيرًا مع أفراد عائلته وسافر إلى أوروبّا... وفي رواية أخرى أنّه سافر في رحلة عمل إلى أوروبّا... وربّما إلى سويسرا. وليس من

الواضح ما إذا كان تانينبوم غادر للقاء أشخاص كان يعرفهم... وإن هو فعل ذلك فليس من المستبعد أن يكون شركاؤه في العمل اختلفوا معه واحتجزوه، وسلّموه في ما بعد لقاء مبلغ من المال إلى أطراف آخرين من بينهم حزب الله...

فيما ذكرت الإذاعة الإسرائيليّة أنّ تانينبوم قد يكون متورّطًا في صفقات مع الفلسطينيّين، وجرى اعتقاله من جهات موالية لإيران... وتمّ نقله إلى حزب الله في لبنان.

ليست المرّة الأولى التي يتخلّى فيها الموساد عن عملائه عندما يقعون في الفخّ. فهو يفضّل التبرّؤ من عميل له ولو كان برتبة ضابط، على الإقرار بإخفاقه وبتفوّق الآخرين عليه. على أيّ حال، فإنّ هذه العمليّة قد صفعت رئيس الموساد هايفي دون أن ينبث ببنت شفة[1].

---

١ ـ جريدة "هآريتس" الإسرائيليّة، عدد ١٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ٢٠٠٠؛ جريدة "جيروزالم بوست" الإسرائيليّة، عدد ١٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ٢٠٠٠.

عِقدةُ الذنبِ النوَويّ الإسرائيليّ

ليس من دولة في العالم مصابة بعقدة ذنب نوويّة كما هي الحال في إسرائيل. ومن أوضح الأمثلة على ذلك قصّة الاستخبارات الاسرائيليّة مع العالم لإسرائيليّ "إسحق ياكوف".

ولد إسحق ياكوف في تلّ أبيب عام ١٩٢٦، وبعد انتهاء دراسته عام ١٩٤٤، التحق بقوّات الـ"بالماخ". وبعد حرب ١٩٤٨ تعلّم الهندسة، وتخصّص في قسم الميكانيك في معهد "التخنيون" في حيفا. وعمل في الجيش الإسرائيليّ مساعدًا لـ"عاموس جوريف" مؤسّس وحدة تطوير الوسائل القتاليّة في هيئة الأركان العامّة. وبعد ذلك عمل مسؤولاً عن المصانع الحربيّة التابعة لسلاح التسليح. وغادر إسرائيل للدراسة لمدّة ثلاث سنوات في معهد ماساتشوستس في الولايات المتّحدة الأميركيّة ليعود منها عام ١٩٦٣ وينال رتبة عقيد ويغدو رئيسًا لوحدة تطوير الأسلحة في الجيش الإسرائيليّ. وفي عام ١٩٦٨، تمّ تعيينه نائبًا لكبير علماء المؤسّسة العسكريّة الإسرائيليّة. ومن هذا المنصب، كان بوسعه الإطلال على ما يجري في مفاعل ديمونة الإسرائيليّ النوويّ القائم في صحراء النقب. وفي عام ١٩٧١، أوكلت إليه مهمّة تأسيس "وحدة الأبحاث والتطوير" في الجيش الإسرائيليّ وتمّ ترفيعه إلى رتبة جنرال. وكان في هذا المنصب إلى ما قبل أسبوع من نشوب حرب تشرين، وبعدها ترك الخدمة العسكريّة ليتولّى منصب كبير العلماء في وزارة الصناعة والتجارة. وبعد حين،

انتقل ياكوف إلى الولايات المتّحدة حيث غدا رئيسًا لشركة برمجة معلوماتيّـة أميركيّـة. وتعمل هذه الشركة على تطوير برامج والقيام بأبحاث في كلّ من إسرائيل وروسيا.

لعلّ هذا الأمر بالذّات هو ما أثار الشبهات حول ياكوف. فقد انطلقت الشبهات أوّلاً من حقيقة أنّ الجنرال إسحق ياكوف يعيش مع امرأة روسيّة باتت تطّلع على معلومـات سريّة. وقد ظهرت هذه المرأة في ٢٢ نيسان ـ إبريـل ٢٠٠١ فـي إسـرائيل أثنـاء قيام محكمة إسرائيليّة بالنظر في أمر رفع السريّة عن معطيـات هـذه القضيّـة. ومـن غير المعروف متى تعرّف إسحق ياكوف على هذه المرأة الروسيّة ومَن هي. وكان يـاكوف قد سبق وأعلن طلاقه من زوجته الإسرائيليّة قبل سنوات.

ففي ٢٨ آذار ـ مارس ٢٠٠١، تمّ اعتقال ياكوف بأمر من وحدة الأمن فـي وزارة الدفاع الإسرائيليّة، وراح يخضع للتحقيق معه على أيدي رجـال جهـاز الأمـن الداخلـي الإسرائيلي "الشاباك". ذلـك أنّ يـاكوف كـان لـه دور فـي التطويـر النـوويّ الإسـرائيليّ سواء أثناء خدمته في الجيش الإسرائيليّ أو فـي منصـب كبير علمـاء وزارة الصناعـة والتجارة.

يقول مقرّبون من ياكوف "إنّ التحقيـق مـع هـذا العجـوز السـاذج يشـير إلـى حالـة مرضيّة إسرائيليّة تتعاطى إسرائيل من خلالها بخوف مع كلّ القضايا الأمنيّة"... ويقول باحثون "إنّه جنون الارتياب الإسرائيليّ"... ويبدو أنّ جنون الإرتياب هذا قد طال كبـار رجال الدولة في إسرائيل، ففي تصريحات لإذاعة الجيش الإسرائيليّ بتاريخ ٢٢ نيسان ـ إبريل ٢٠٠١، قال وزير الخارجيّة الإسرائيليّ شـيمون بـيريز ردًّا علـى سـؤال رُجّـه إليه بأربع صيغ مختلفة: "ليس لديّ ما أقولـه فـي هـذا الشـأن... ولست مستعدًّا للتفـوّه بكلمة واحدة". كما نفـى النـائب السـابق لقـائد الجيـش الإسـرائيليّ والعضـو فـي مجلـس الوزراء المصغّر يومذاك "ماتان فيلناي" علمه بهذه القضيّة وقال: "آمل ألاّ يكون الأمـر

خطيرًا، إلاّ أنّني حقيقة لا أعرف شيئًا... ولا أعرف ياكوف... ربّما كان في المسألة ضرر واقع حتّى ولو كان ذلك قبل سنوات كثيرة".

تجمع وسائل الإعلام حول أنّ ياكوف هو أرفع ضابط إسرائيليّ رتبة توجّه إليه تهم بالتجسّس لمصلحة جهة أجنبيّة. وفيما يثير بعض الجهات ذات الصلة بإسحق ياكوف شكوكًا حول الاتّهامات بالتجسّس ويرى أنّ هذه مجرّد "هزّة عصا" من جانب أجهزة الأمن الإسرائيليّة ضدّ رجل أعمال ناجح... كشفت المحكمة الإسرائيليّة عن أنّ إسحق ياكوف متّهم بتهم تقع في خانة "التجسّس" في القانون الإسرائيليّ. وتشير لائحة الإتّهام إلى أنّ الأجهزة الأمنيّة الإسرائيليّة تنظر بخطورة بالغة إلى أفعال ياكوف، وأنّها قدّمت لائحة الإتّهام ضدّه إلى المحكمة المركزيّة في تلّ أبيب، وتحتوي على ثلاثة بنود اتّهام تتعلّق جميعًا بتسليم معلومات سريّة من دون تفويض وبقصد الإضرار بأمن الدولة اليهوديّة... ولكنّه لم يتسرّب شيء عن الجهة التي تتّهم أجهزة الأمن ياكوف بأنّه سلّمها تلك المعلومات[1].

---

١ ـ جريدة "السفير" اللبنانيّة، عدد الإثنين ٢٣ نيسان ـ إبريل ٢٠٠١، ص٩، عن جريدة "صانداي تايمز" البريطانيّة، عدد ٢٢ نيسان ـ إبريل ٢٠٠١.

فَضيحَة محاولَة الموسَاد تفجير الكُونغرس المكسيكيّ

في العاشر من تشرين الأوّل ـ أكتوبر ٢٠٠١، بعد أقلّ من شهر على عمليّة ١١ أيلول ـ سبتمبر في نيويورك وواشنطن، اعتُقل إسرائيليّان داخل مبنى مجلس الكونغرس المكسيكيّ وفي حوزتهما تسع قنابل يدويّة وأصابع ديناميت شديد الانفجار وصواعق ومسدّسات من عيار ٩ ملم.

في ذلك الوقت كانت الحملة الأميركيّة العسكريّة على أفغانستان باسم "الحرب ضدّ الإرهاب" وما رافقها من حملة محمومة على العرب والمسلمين في أوجها، ومع ذلك تمّت لفلفة هذه المؤامرة التي أغفلها الإعلام الأميركيّ والغربيّ لأنّ من شأن نشر تفاصيلها أن يضع أمام أعين العالم أخطر المؤامرات الإسرائيليّة التي تهدف إلى تصعيد الحملة المحمومة على العرب والمسلمين.

وفي تفاصيل الحادث التي نشرتها صحيفة "لا فوز دي اتسلان" المكسيكيّة في ٢٦ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ٢٠٠١، أنّ رجلين إسرائيليّين، أحدهما برتبة عقيد، والآخر ضابط في الموساد، تمّ اعتقالهما داخل مبنى الكونغرس المكسيكيّ في العاشر من تشرين الأوّل ـ أكتوبر وفي حوزتهما مسدّسان ومتفجّرات، وأُطلق سراحهما بعد ضغوط كبيرة مارستها سفارة إسرائيل.

ويقول "إرنستو سينفويغوس" مراسل الصحيفة: في تطوّر مذهل علمت الصحيفة أنّ الجنرال "رافائيل دي لاكوشا" وزير القضاء المكيسكيّ أمر بإطلاق سراح العقيد في

الإحتياط في الجيش الإسرائيليّ "سالفادور سميكية" الذي يعتبر ضابطًا في الموساد، وزميله المهاجر "شاؤول بن تشفي"، رغم أنّ الإثنين تسلّلا إلى الكونغرس المكسيكيّ وبحوزتهما متفجّرات وقنابل. واتّصلت الصحيفة هاتفيًا بالناطقة الصحافيّة باسم الكونغرس "أدريانا لوبيز" التي أكّدت اعتقال الإسرائيليّين بعد أن نجحا في التسلّل إلى الكونغرس حين اندسّا بين عدد من ممثّلي نقابة عمّال صناعة السكّر وتجاوزا بسهولة ضمن هذا الحشد ممرّات الأجهزة التي تكشف عن وجود المتفجّرات والموادّ المعدنيّة. وحين تنبّه ممثّلو نقابة عمّال السكّر المكسيكيّة إلى وجودهما، زعم الاثنان أنّهما مصوّران صحافيّان، لكنّ الارتباك الذي ظهر عليهما، أثار الشكوك لدى الممثّلين العمّاليّين، فأحاط بهما عشرة منهم وفتّشوا حقائبهما فوجدوا المتفجّرات والقنابل والصواعق. وواصل الممثّلون العمّاليّون احتجازهما حتّى حضر قائد أمن الكونغرس واعتقلهما. وأكّد "سلفادور ألدرسون" المسؤول عن أمن مبنى الكونغرس وجود كلّ هذه الأسلحة في حوزة الإسرائيليّين. ثمّ أكّدت السيّدة لوبيز، الناطقة الصحافيّة باسم الكونغرس المكسيكيّ، تسليمهما للقضاء المكسيكي، وقالت "إنّ الإرهابيَّين الإسرائيليَّين سميكيّة (٣٤ عامًا) وبن تشفي (٢٧ عامًا) أصبحا من اختصاص القضاء المكسيكيّ". وقد ذكر هذا القضاء في أوّل تقرير له عن القضيّة أنّ الإثنين كانا يعملان لوكالة أمنيّة خاصّة وفّرت لهما ترخيصًا بحمل المسدّسين، وبعد ذلك أُطلق سراح الإثنين بعد أن دفع بن تشفي الذي كان قد تقدّم بطلب للهجرة إلى المكسيك غرامة بقيمة أربعة آلاف دولار، أعطيت لدائرة الهجرة.

غير أنّ رائحة وجود مؤامرة في عمليّة إطلاق سراح العميلَين الإسرائيليَّين ظهرت تمامًا حين فوجئت الناطقة الصحافيّة باسم الكونغرس بإطلاق سراحهما حين اتّصلت بها صحيفة لا فوز دي اتسلان. وقد علمت هذه الصحيفة أنّ السفارة

الاسرائيليّة استخدمت لغة متشـدّدة حين طلبت من القضـاء المكسيكيّ إطلاق سراح الرجلين، وهدّدت باتّخاذ إجراءات غير عاديّة ضدّ المكسيك إذا لم يحصل ذلك. وكان رئيس الوزراء الاسرائيليّ إرييل شارون قد أرسل مبعوثًا خاصًّا إلى رئيس وزراء المكسيك وعُقد اجتماع بين هذا المبعوث الخاص وبين "خورغيه غوتمان" وزير خارجيّة المكسيك بحضور وزير القضاء الجنرال "ماسيدو دي لاغوشا"، وناقش هؤلاء مسألة إطلاق سراح الإسرائيليّين. وذكرت الصحيفة أيضًا أنّ "إيلياس لوف"، أحد الموظّفين في السفارة الاسرائيليّة لدى "مكسيكو سيتي" كان ينشط في الليل والنهار بين حزبين سياسيَّين في المعارضة المكسيكيّة، هما حزب "BRA" و"BRD" من أجل دعم مسألة الإفراج عن العميلين.

لقد استنتجت صحيفة لا فوز دي اتسلان المكسيكيّة أنّ الرئيس جورج بوش الإبن وقادة الحركة الصهيونيّة في الولايات المتّحدة كانوا يلحّون بشدّة على انضمام المكسيك إلى الحرب ضدّ أفغانستان، والمشاركة بالحملة الإعلاميّة ضدّ المسلمين، لأنّ الإدارة الأميركيّة كانت ترى أنّه إذا اتّخذت الحرب مجرى آخر وظهر لها مضاعفات كبيرة في الشرق الأوسط، مثل حظر النفط العربيّ عن الولايات المتّحدة، فعند ذلك ستجد في المكسيك بديلاً، خصوصًا وأنّ شركة "بيميكس"، وهي أكبر شركة نفط مكسيكيّة، يقع نفطها قرب حدود الولايات المتّحدة. ولذلك ساد الاعتقاد المنطقيّ عند جميع الأوساط السياسيّة المكسيكيّة بأنّ الإرهابيَّين الإسرائيليَّين كانا يريدان تفجير مبنى المجلس التشريعيّ المكسيكيّ بلا أدنى جدل أو شك، كمرحلة أولى، تتلوها فورًا مرحلة ثانية هي حشد كلّ وسائل الإعلام المكسيكيّة والأميركيّة في توجيه التهمة إلى المنظّمات الإسلاميّة وتنظيم القاعدة بشكل خاصّ. ثمّ تتهيّأ على هذا النحو الأرضيّة المناسبة لحكومة المكسيك للإعلان عن مشاركتها في الحرب ضدّ أفغانستان وترسل قوّاتها

وتشكّل احتياطيّ النفط للولايات المتّحدة مهما كانت مضاعفات تلك الحرب ونتائجها على الدول العربيّة المصدّرة للنفط.

أحد المحامين المكسيكيّين، ويدعى "ماريو أندراديه"، عقّب على ما نشرته الصحيفة قائلاً: "إنّ هذا الاستنتاج مؤكّد تمامًا، بل إنّ ذلك يؤكّد الشكوك التي تحدّثت عنها هذه الصحيفة حول علاقة الموساد نفسه بعمليّة تفجيرات ١١ أيلول ـ سبتمبر في نيو يورك وواشنطن. ألم تقل الصحيفة إنّ مجموعة من الإسرائيليّين كانت تحمل معها أجهزة تصوير فيديو وكاميرات تصوير فوتوغرافيّ أثناء اختراق المبنيَين في نيو يورك فوق أحد أسطح المباني في نيو يورك قرب موقع التفجير؟ وهل تحدّث أحد عن هؤلاء الإسرائيليّين؟"....

أمّا حكومة المكسيك فقد ذكرت أنّ الإرهابيَّين الإثنين من الموساد ظهرت بحقّهما لائحة اتّهام تتعلّق بالبند رقم ١٢٣ ورقم ١٤٣ بموجب القوانين القضائيّة (١) و(٨) و(٩) و(١٣) وأُطلق سراحهما...

والسؤال هو: مَن مِن المكسيكيّين يعرف تفاصيل ما تنصّ عليه تلك البنود؟ ولماذا تجاهلت السلطات المكسيكيّة ذكر المتفجّرات والصواعق؟ وكيف تمّ القبض على ضابط الموساد ومساعده؟ فلا أحد يعلم... حتّى الآن، سوى الضالعين في المؤامرة[1].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٢٢٥ ـ ٢٣٣؛ مجلّة "الصيّاد" اللبنانيّة، العدد ٢٩٨٠، ١٤ كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠١، ص٧٤؛ مجلّة "المحرّر العربيّ"، العدد ٣٤٦، ٢٤ ـ ٣٠ أيّار ـ مايو ٢٠٠٢، ص٢٠.

تَهريبُ الموادّ النوويَّة الروسيَّة إلى إسرائيل عَبر هولَندا

واجه الموساد مشكلة غير متوقّعة في أوروبّا في حزيران ـ يونيو ١٩٩٩، عندما بلغه احتمال أن يُطلب إليه نقل مقرّه الأوروبيّ من هولندا في أعقاب إفادات مربكة للغاية بأنّه كان يبتاع البلوتونيوم والموادّ النوويّة الأخرى سرًّا من المافيا الروسيّة. وقد أطلق هذه المعلومات قسم صغير، ولكنّه مخيف، من أقسام الاستخبارات الهولنديّة يدعى "إنتل". ولم تتشفّع بالموساد نتائج الفرصة التي سنحت لهاليفي بأن يقدّم معلومات سريّة للبلدان التسعة عشر التي شكّلت التحالف مع بدء هجوم حلف شمال الأطلسيّ ـ "الناتو" الربيعيّ ضدّ صربيا عام ١٩٩٩. إذ كان الموساد قد أقام علاقات قديمة في المنطقة لخشيته من أن تتحوّل بلاد البلقان في نهاية المطاف إلى جيب إسلاميّ، ممّا يتيح لأعداء إسرائيل العبور من الباب الخلفيّ لشنّ الهجمات عليها. وأُتيحت لهاليفي فرصة ثمينة لزيارة مقرّ الناتو في بروكسيل والاجتماع بنظرائه... ثمّ سافر إلى واشنطن للتباحث مع وكالة CIA، وعندما عاد إلى إسرائيل، راح يعمل لساعات طويلة كلّ يوم ولا يأخذ يوم راحة واحدًا في الأسبوع.

أجرت "إنتل" تحقيقاتها في غرفة محصّنة تحت الأرض بُنيت لإيواء العائلة المالكة الهولنديّة في حال تعرّض أمستردام لهجوم نوويّ سوفياتيّ. وتقع الغرفة المحصّنة بالقرب من محطّة القطار المركزيّة في المدينة. وقد أظهرت تحقيقات إنتل أنّ في المحطّة الأخيرة لخطوط السكّة الحديديّة كانت تنتهي رحلة بعض الموادّ النوويّة

المسروقة من مختبرات الأسلحة الروسيّة، ومنها "تشليابيسك ــ ٧٠" في جبال الأورال و"أرزاماس ـ ١٦" في "تيجنيل نوفغورد" التي كان اسمها "غوركي".

كان ردّ بعض كبار ضبّاط الموساد على إنتل أنّ علماء الاستخبارات الاسرائيليّة اشتروا تلك الموادّ المدمّرة من المافيا الروسيّة لأنّها بالضبط كانت مسروقة. فهذه هي الطريقة الوحيدة لمنع بيع تلك الموادّ إلى المجموعات الإسلاميّة وغيرها من المنظّمات "الإرهابيّة".

اعترف محقّقو إنتل بأنّه من الممكن تصديق زعم الموساد، لكنّهم باتوا مقتنعين بأنّ الموادّ النوويّة شُحنت سرًّا عبر مطار "شيبول" في أمستردام إلى إسرائيل لتعزيز مصنع الأسلحة النوويّة الإسرائيليّ في ديمونة. ووفقًا للتقديرات فإنّ عدد الأسلحة المخزونة هناك وصل عام ١٩٩٩ إلى ٢٠٠ سلاح نوويّ.

أعادت أخبار تعاون الموساد مع المافيا الروسيّة من جديد ذكرى كابوس نوويّ لم يكن قد تبدّد كليًّا. وبينما زال مبدأ الحرب الباردة "ماد" أي "الدمار المتبادل المضمون"، فقد حلّ محلّه سيناريو أخطر يجري وفقه بيع التقنية والمواد النوويّة. إنّها الرأسماليّة على الطريقة الشرقيّة الرهيبة حيث تتعاون عصابات الجريمة المنظّمة والمسؤولون الحكوميّون الفاسدون على إيجاد أسواق جديدة للموادّ النوويّة، ويكون المعروض للبيع بعض أخطر الأسلحة في العالم.

يتولّى معهد "ترانسيورانيوم" الأوروبّي في "كارلسرووَه" في ألمانيا الجزء الكبير من عمليّات تتبّع خطّ سير المواد النوويّة المسروقة. في ذلك المعهد يستخدم العلماء أحدث المعدّات لمعرفة ما إذا كانت الموادّ المسروقة جاءت من مصدر عسكريّ أو مدنيّ. لكنّهم يعترفون بأنّ الأمر "يشبه التعرّف إلى هويّة لصّ لم تؤخذ بصمات أصابعه".

وحتّى يتجنّب هاليفي تلقّي أسئلة ستكون محرجة، بلا شكّ، إذا عُثر على بصمات أصابع الموساد، قام بزيارة سريّة إلى هولندا في أوائل حزيران - يونيو ليشرح لإنتل دور الموساد. لكنّ الاستخبارات الهولنديّة ظلّت غير مقتنعة. فعاد هاليفي إلى إسرائيل ليخبر رئيس الوزراء الجديد "أيهود باراك" أنّ على الموساد أن تستعدّ لنقل مقرّها الأوروبّي من مجمّع مباني شركة طيران العال في مطار شيبول.

لقد جعل الموساد مقرّه هناك منذ سنوات. فمن مكاتب تقع في الطبقة الثانية من المجمّع المعروف في شيبول باسم "إسرائيل الصغرى"، يدير ثمانية عشر ضابطًا في الموساد العمليّات الأوروبيّة. ووفقًا لأحد مصادر الجهاز فإنّ موقف هاليفي كان واضحًا وهو: إنّ رحيل الموساد عن هولندا أفضل من طردها كما حدث لها في بريطانيا في عهد حكومة تاتشر...

كان قرار الموساد إدارة عمليّاته ضمن بريطانيا من دون إبلاغ حكومتها بالأمر هو ما أدّى إلى تدهور العلاقات مع لندن. ومن المفارقات أنّه إذا رحل الموساد عن شيبول فربّما تكون العودة إلى لندن على الرحب والسعة في ظلّ تأييد رئيس الوزراء "طوني بلير". فهذا يعتقد بأنّ وجود الموساد القويّ سيعزّز جهود جهاز MI-5 لمتابعة مراقبة المجموعات الشرق أوسطيّة التي تتّخذ مقرًّا لها في لندن.

من العناصر الحاسمة في اتّخاذ قرار خطوة الانتقال إلى بريطانيا نقلُ شركة العال مقرّها من شيبول إلى مطار "هيثرو" البريطانيّ. ففي ضوء رواج تجارة الشحن التي تتولاّها العال يُتوقّع أن تعزّز الخطوة موقف مطار هيثرو بصورة لافتة.

كان قد تأكّد لإنتل أنّ العلاقة بين الموساد والعال تشكّل جزءًا من حركة نقل المواد النوويّة. وتصرّ الوكالة الهولنديّة على أنّه ما كان للموساد أن يبدأ تجارة شراء الموادّ النوويّة المحفوفة بالمخاطر لولا وجود خطّة نقل هذه الموادّ بأمان وسريّة إلى إسرائيل.

يرى مساعد وزير الدفاع الأميركيّ السابق "غراهام إليسون"، الذي عمل في ما بعد مديرًا لـ"مركز هارفرد للعلوم والشؤون الدوليّة"، أنّ "بوسع أيّ مجموعة إجراميّة أو إرهابيّة أن تشحن سلاحًا إلى الولايات المتّحدة بعد تفكيكه إلى قطع صغيرة وخفيفة إلى حدّ يمكن إرسالها معه عبر البريد". تشير هذه الكلمات بصورة غير مباشرة إلى أنّ منظّمة عالية الكفاءة كالموساد تضع إسرائيل بتصرّفها إمكانات هائلة، لن تجد صعوبة تُذكر في تهريب الموادّ من شيبول.

كان شكّ إنتل في شأن مثل هذا التهريب قد أثير لأوّل مرّة عندما بلغتها معلومات تفيد بأنّ طائرة الشحن التابعة لشركة العال التي تحطّمت بعد إقلاعها بقليل من مطار شيبول في تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٩٢، كانت تحمل موادّ كيميائيّة. وقد عرضنا لهذا الحادث في مكان آخر.

منذ ذلك الحين، جمعت الوكالة ما وصفه مصدر في إنتل بأنّه "دلائل ظرفيّة قويّة في أقلّ تقدير" عن أنّ الموساد شحن موادّ نوويّة بصورة منتظمة من شيبول.

وقد أبلغت إحدى الساعيات، التي قدّمت تعاونها مقابل ضمان بعدم الملاحقة القضائيّة، إلى إنتل أنّها هرّبت موادّ نوويّة من أوكرانيا عبر ألمانيا وصولاً إلى هولندا. وزعمت الساعية لإنتل أنّ شخصًا استقبلها في المحطّة المركزيّة في أمستردام. وعندما عُرض عليها بعض الصور، أشارت الساعية إلى الشخص المعني، فكان ضابطًا في الموساد، كانت إنتل تعرف أنّه يقيم في شيبول.

وبذلك تثبّت جهاز إنتل الهولندي من أنّ الموساد كان يقوم بتهريب الموادّ النوويّة عبر هولندا[1].

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، ص٣٧٤ ـ ٣٧٨.

الحقبة العاشرة من تاريخ الموساد

في عهد مائير داغان

لم يخلُ عهد هاليفي، كما سردنا، من هزّات أمنيّة كبيرة، وقد انتهت خدمة هاليفي في آب ـ أغسطس ٢٠٠٢، ليصبح رئيسًا لمجلس الأمن القوميّ التابع للحكومة الإسرائيليّة، وحلّ محلّه في رئاسة جهاز الموساد الميجر جنرال "مائير داغان".

إنّ ما يسعى لتحقيقه جهاز الموساد من قلب المعادلات والموازين والقيم في تفكير المواطن العربي وما يسعى لفرضه من ابتزاز سياسي على الحكومات العربيّة بوسائل الإرهاب دائمًا، والترغيب أحيانًا، ترتّب عليه قبول جزئيّ بالكيان الإسرائيلي والتطبيع معه كأمر واقع وكجزء من حياة المنطقة، وهذه الإنجازات التي حققتها أجهزة المخابرات المعادية للعرب، ساعدها في ذلك تهاوي التضامن العربي وتفشّي حالات التفتيت والشرذمة وعدم الإتفاق على اتخاذ القرارات والمواقف الصارمة المدافعة عن المصالح القومية العليا.

إنّ أجهزة المخابرات الإسرائيليّة تعمّم تفسيرًا مضللاً ومخادعًا حول مسألة الصراع العربيّ الصهيونيّ، فهي تحاول أن تشيع بأنّه ناجم عن رفض الدول العربيّة

المجاورة لعقد سلام مع إسرائيل، وذلك تشويهًا لحقيقة الصراع بأنه صراع وجود وليس صراع حدود، وصراع من أجل اعتراف إسرائيل بحقّ الفلسطينيين اللاجئين في العودة لفلسطين.

كما تروّج المخابرات الإسرائيليّة حاليًا لمسألة تهويد القدس وتضغط على الولايات المتّحدة الأميركيّة في كلّ مناسبة للاعترتف بأنّ القدس عاصمة أبديّة لإسرائيل، وبينما رفضت هذه المزاعم الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، استمرّ المخطّط بتجاهل الهيبة الدوليّة وبالاعتماد على الإدارة الأميركيّة في المبادرة بالاعتراف بأنّ القدس عاصمة شرعيّة لإسرائيل، وبضرورة استمراريّة سيطرة اليهود عليها. وفي هذا الصدد نجحت الضغوط الصهيونيّة في إحداث تراجع في الموقف الأميركيّ تجاه القدس لصالح إسرائيل، حيث اتّخذ مجلس الشيوخ الأميركيّ قرارًا بأنّ القدس عاصمة إسرائيل، وينبغي نقل السفارة الأميركيّة إلى القدس تأكيدًا لذلك.

وفي الوسط الأفريقي يروّج جهاز الموساد الاعتقاد بأن إقامة علاقات طيّبة مع إسرائيل من شأنه، تلقائيًا، ضمان علاقات طيّبة مع الولايات المتّحدة الأميركيّة، حيث قامت إسرائيل بإعادة العلاقات بين ديكتاتور زائير "موبوتو" والإدارة الأميركيّة من خلال استغلال نفوذ المنظّمات اليهوديّة داخل أميركا.

إلاّ أنّ الحقائق توضح بأن هناك حالات تشير إلى انخفاض الروح المعنويّة وإلى تراجع الإرادة القتاليّة لمعظم أفراد جيش الدفاع الإسرائيليّ، وهم الذين فقدوا الثقة في الزعماء السياسيّين، وأصبحوا يشكّكون في قدرتهم لتحقيق حالة أمن واستقرار ووفاق مع الدول العربيّة. ولاحت في الأفق خيبة أمل ناتجة عن عدم قدرة القوّات الإسرائيليّة على تحقيق انتصار حاسم ونهائيّ على العرب. كما بدا أنّ مقاومة الاحتلال العسكريّ الإسرائيليّ لفلسطين المحتلّة تتزايد، وكذلك ارتفاع وتطوّر الوعي العربيّ الشعبيّ

لطبيعة الصراع العربيّ الإسرائيليّ، ولوجوب التمسّك بحقّ الفلسطينيّين في العودة لأراضيهم، ما أوجد شعورً عامًّا لدى الإسرائيليّين بأنّ حلمهم في السيطرة على كامل فلسطين سيذهب أدراج الرياح، وأنّ الانتفاضة الشعبية الفلسطينية لن تجهض[1].

وبذلك وجد جهاز الموساد نفسه أمام مهمّة مستحيلة في عمليّة مواجهة هذه التطوّرات البالغة الخطورة. فإنّ العمليّات التي تدرّب الموساد على القيام بها بكافّة أجهزته لم تلحظ الوصول إلى مثل هذه الحالة من الارتباك الشامل.

شارون وتورّطه في الفساد

أسفرت الانتخابات العامّة الإسرائيليّة التي جرت عام ١٩٩٩ عن فوز إيرييل شارون بشكل مكّنه من تولّي رئاسة مجلس الوزراء. وفي ٦ شباط ٢٠٠١، كان الفوز الكاسح لشارون على منافسه "أيهود باراك" إلى رئاسة الحكومة الإسرائيليّة. غير أنّ شكوكًا كثيرة راجت حول تورّط شارون بفضائح غير قانونيّة مكّنته من الحصول على هذا الفوز. وفي الثالث عشر من كانون ـ الثاني يناير ٢٠٠٤ نشرت وكالة "أ.ف.ب." خبرً مفاده أنّ قضيّة تورّط رئيس الوزراء الإسرائيليّ إيرييل شارون بقضايا الفساد قد عادت إلى الواجهة، بعد الكشف عن ملابسات جديدة تتعلّق بقضيّة تمويل حملته الانتخابيّة. وطالب النائب في حزب "ميريتس" اليساري "ران كوهين" باستقالة شارون بعدما اتّهمه مستشار سابق بالتورّط في فضيحة تتعلّق بتمويل حملته الانتخابيّة عام

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢١٦ ـ ٢١٧.

١٩٩٩. وقال كوهين: "من واجبه أن يستقيل من مسؤوليّاته". وأضاف: "لا يمكن السماح باستمرار غرق رأس السلطة بكلّ هذه الأوحال... فيما يبقى رئيس الوزراء في منصبه".

ودعا رئيس الكتلة البرلمانيّة العمّاليّة "عوفر بينيس" من جهته شارون إلى الاستقالة فورًا. وقال: "لقد اشترى رئيس الوزراء السلطة بالمال ومن الواضح الآن أنّ الصيغة التي قدّمها للمحقّقين هي كذبة".

وبثّت القناة الثانية في التلفزة الاسرائيليّة مساء الإثنين في الثاني عشر من كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤ تسجيلاً صوتيًّا كان سجّله المستشار السابق لشارون للشؤون الاستراتيجيّة "ديفيد سبكتور" الذي كان يرأس في تاريخ البثّ وكالة تحريّات من دون معرفة رئيس الوزراء. وقال سبكتور إنّ التسجيل يكشف أنّ شارون كان على اطّلاع تامّ على مصدر بعض المبالغ التي استُخدمت لتمويل الحملة الانتخابيّة التي أوصلته إلى رئاسة حزب الليكود. وقال سبكتور: "كان متورّطًا في كلّ شيء، وكان يهتمّ بكلّ شيء بالتفصيل". وأضاف: "لو كنت أريد الانتقام لما كان شارون رئيس حكومة اليوم".

وبثّت القناة الثانية في التلفزة الإسرائيليّة في السادس من كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤ مقاطع من شريط فيديو تمّ تصويره في أيلول - سبتمبر ١٩٩٩ يشير إلى تورّط "عمري شارون" نجل رئيس الوزراء الذي يظهر في الشريط في حديث مع "ديفيد سبكتور" وعضو آخر في الليكود هو "أوري شاني". ويبدو شاني وهو يقترح استخدام أموال من الحزب لتمويل حملة إرييل شارون لرئاسة الحزب، فيما يظهر عمري جالسًا يستمع دون أن يقول شيئًا[1].

---

١ - أ.ف.ب.، ١٣ كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤.

وفي الثالث من كانون الثاني ــ ينـاير ٢٠٠٤، نقلت وكـالات الأنبـاء أنّ الضغـوط تزايدت داخل الائتلاف الحاكم الذي يتزعّمه إرييل شارون لكي يستقيل رئيس الـوزراء الإسرائيليّ إذا وجّه إليه الادّعاء الاتّهام في قضيتَي الرشوة التي تهدّد بأن تلقي بظلالها على جهود السلام في الشرق الأوسط. وفي ما وصفه بعض المعلّقين الإسرائيليّين بأنّـه محاولة لتحويل الانتباه عن الفضيحة، أشارت تقـارير إلـى أنّ شـارون يخطّـط لإجـراء محادثات في واشنطن قريبًا مع الرئيس الأميركيّ جورج بوش بشأن "خارطة الطريـق" للسلام في الشرق الأوسط التي تؤيّدها الولايات المتّحدة الأميركيّـة. وأظهـر اسـتطلاع للرأي نشرت نتائجه صحيفة "معاريف" أنّ شعبيّة شـارون قد هبطت إلـى ٢٣ ٪ فـي تراجع قياسيّ يماثل المستوى الذي تدنّى إليه في كـانون الأوّل ـ ديسـمبر ٢٠٠٣، وأنّ ٥٣ ٪ من الإسرائيليّين يعتقدون بأنّه متورّط في الفساد. لكنّ شـارون قـال لمؤيّديـه فـي حزب ليكود اليمينيّ إنّه لا يخطّط للاستقالة بعد توجيه الاتّهام إلى "ديفيـد إيبيـل" مقـاول العقـارات وصـانع السياسيّين المتّهم بمحاولـة رشـوة رئيـس الـوزراء. إلاّ أنّ وزيـر الداخليّة "أبراهام بوراز"، عضو حزب "شينوي"، وهو حزب ينتمي لتيّار الوسط، وأكبر شريك لشـارون فـي الائتـلاف أشـار إلـى أنّ الجنرال السـابق قـد يواجـه تمـرّدًا داخـل الحكومة في ما بعد. وعندما سئل إذا كان يتعيّن على شارون الاستقالة إذا وجّهـت إليـه اتّهامات قال بوراز لراديو إسرائيل "إنّ عليه أن يفعل ذلك بالتأكيد".

وفي وقت سابق قال "يوسف لابيد" زعيم حزب "شينوي" إنّـه سيتعيّن علـى رئيـس الـوزراء أن "يسـتخلص النتـائج" إذا وُجّهـت إليـه اتّهامـات... وقـال مصـدر فـي وزارة العدل "إنّ توجيه أيّ اتّهام إلى شارون قد يستغرق أسابيع عدّة إن لم يكن أشهرًا عدّة".

وفي الوقت نفسه تحدّث فلسطينيّون عن مخاوفهم من حـدوث فوضـى سياسـيّة فـي إسرائيل، وأعربوا عن عدم ثقتهم منذ مدّة طويلة في شارون. وكتب المعلّق الفلسـطينيّ

"أشرف العجرمي" في صحيفة "الأيّام" الفلسطينيّة يقول "إنّ شارون قد يلجأ إلى التصعيد العسكريّ إذا وجد نفسه في مأزق لإبعاد الأضواء عن متاعبه"[1].

تخوّف الموسَاد من سَيطرَة الفلسطينيّين الرّاديكاليّين

أشار تقرير أعدّه قسم الدراسات الاستراتيجيّة في جهاز المخابرات الخارجيّة الإسرائيليّ "الموساد" كشف النقاب عنه في شباط ـ فبراير ٢٠٠٤ إلى أنّ نفوذ حركة المقاومة الإسلاميّة "حماس" و"الجهاد الإسلاميّ" تزايد بشكل مثير للقلق في مناطق السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة إلى حدّ يمكنها من تشكيل بديل للسلطة في المستقبل. وأكّد التقرير الاستخباريّ أنّ ٦٠ في المائة من الموظّفين في المؤسّسات الرسميّة الفلسطينيّة يدينون بالولاء المطلق لقيادة هذه المنظّمات الأصوليّة، وأنّ أكثر من ٢٠٪ منهم يتعاطفون مع التيّار المتشدّد، وما تبقّى من هؤلاء فإنّهم من أنصار السلطة الوطنيّة وتحديدًا لرئيسها ياسر عرفات.

وذكر تقرير الموساد أنّ تصاعد قوّة الحركتين في قطاع غزّة يتفوّق على ازدياد قوّتهما الشعبيّة في الضفّة الغربيّة. واعتبر التقرير نفسه أنّ خطّة الانفصال، أحاديّة الجانب، التي عرضها رئيس الوزراء الإسرائيليّ إرييل شارون تشكّل خطوة في الاتّجاه الصحيح، وستساهم في تحسين الوضع الأمنيّ ومقدرة السلطات الإسرائيليّة على جعل الفلسطينيّين يفهمون أنّ الطريق الوحيدة لإنهاء العمليّات العسكريّة تكمن في العودة إلى طاولة المفاوضات.

---

١ ـ أ.ف.ب؛ رويترز؛ ٢٣ كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤.

وأضاف معدّو التقرير الذي رُفع إلى رئاسة الحكومة الإسرائيليّة أنّ المعركة الأساسيّة التي تواجهها إسرائيل هي ضدّ العمليّات الفلسطينيّة والمواجهة شبه اليوميّة مع الانتفاضة.

ويعتقد جهاز الموساد أنّ إسرائيل تمرّ حاليًّا بأكثر مراحلها القاسية والمصيريّة، وأنّ عرفات يعود إلى مركز الحلبة ويجذب الخيوط بحيث تمّ تحييد الحكومة الفلسطينيّة الثانية برئاسة أحمد قريع، كما نجح في السابق في تصفية حكومة أبو مازن الأولى.

ويقول التقرير أنّ هناك ٥٠ تحذيرًا من نيّة التنظيمات الإسلاميّة الراديكاليّة تنفيذ عمليّات واسعة النطاق ضدّ إسرائيل، غير أنّ قوّات الأمن الإسرائيليّة بالتنسيق مع أجهزة المخابرات الداخليّة "الشاباك" والخارجيّة "الموساد" والعسكريّة "أمان" تمكّنت على مدار ثلاثة أشهر قبل عمليّة معبر "أرنز" من اعتقال ٢٧ مسلمًا استشهاديًّا في إسرائيل[١].

---

١ ـ الفغالي بدرا باخوس، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ١٠ شباط ـ فبراير ٢٠٠٤، ص١٨.

إستئناف عمليّات تهجير اليهود الفلاشا

في أواخر العام ٢٠٠٣، رصدت بعثات دبلوماسيّة غربيّة في إثيوبيا تحضيرات كانت تقوم بها القنصليّة الاسرائيليّة في مدينة "جوندار" الإثيوبيّة لاستكمال ترتيب عمليّات تهجير يهود الفلاشا الإثيوبيّين إلى الدولة العبريّة. وقالت المعلومات الأوروبيّة يومها إنّ يهود الفلاشا في إثيوبيا ينتظرون الرحيل إلى "أرض الأجداد" للحاق بسابقيهم، استكمالاً لعمليّة "موسن" التي تمّت في بداية ثمانينات القرن العشرين بالتواطؤ مع الرئيس السوداني الأسبق المخلوع "جعفر النميري". وأشارت المعلومات إلى أنّ أكثر من عشرة آلاف من يهود الفلاشا أحرقوا منازلهم في إقليمَي "جوندار" و"جوجام" شمال غرب إثيوبيا قاصدين مدينة "جوندار" إنتظارًا لدورهم في الرحيل إلى إسرائيل بعد أن أنهوا سلسلة من الدروس الدينيّة والمعارف الدنيويّة كاللغتين العبريّة والانكليزيّة وغيرها من البرامج التأهيليّة لتيسير اندماجهم في الحياة العامّة في المجتمع الاسرائيليّ، وليتحاشوا معاناة الذين سبقوهم من تفرقة عنصريّة من قبل يهود آخرين يتشابهون في الدين ويختلفون عنهم في العرق والثقافة والعادات والتاريخ المشترك[١].

يوم الثلاثاء في السابع من كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤، وصل وزير الخارجيّة الإسرائيليّة "سيلفان شالوم" في حكومة "إرييل شارون" إلى إثيوبيا في زيارة رسميّة استمرّت يومين، وكانت الزيارة الأولى من نوعها التي يقوم بها وزير خارجيّة

---

١ ـ الفغالي بدرا باخوس، باريس، صحيفة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٠ كانون الأول ديسمبر ٢٠٠٣، ص١.

إسرائيليّ إلى إثيوبيا، بل إلى منطقة أفريقيا جنوبي الصحراء منذ عام ١٩٩١. وقد ضمّ الوفد إلى شالوم عشرين من رجال الأعمال ورؤساء الشركات الإسرائيليّة التي تقيم علاقات مع إثيوبيا وخصوصًا في قطاعات الزراعة والاتّصالات والأمن. ولم يعلن عن الزيارة التي استمرّت ثلاثة أيّام في إثيوبيا، ولكنّ مسؤولاً إسرائيليًّا قال إنّ جزءًا كبيرًا من المحادثات التي جرت بين شالوم والقادة الإثيوبيّين، وخصوصًا الرئيس "جيرما ولد جوجس"، ورئيس الوزراء الإثيوبي "ميليس زيناري"، ووزير الخارجيّة "سيوم ميسفين"، تضمّن محادثات حول احتمال هجرة يهود "الفلاشا" الباقين في إثيوبيا إلى إسرائيل. وقيل يومها إنّ نحو ٨٠ ألف يهودي إثيوبي كانوا أصبحوا يعيشون في إسرائيل. وكانت أحدث هجرة جماعيّة ليهود إثيوبيا عام ١٩٩١ عندما نظّمت إسرائيل نقل ١٥ ألفًا كانوا قد فرّوا من القتال في نهاية الحرب الأهليّة الإثيوبيّة.

وقد تضمّن برنامج زيارة شالوم لقاء مع أعضاء الـ"فلاشا مورا"، وهم اليهود الإثيوبيّون الذين قيل إنّهم أُجبروا على اعتناق الديانة المسيحيّة في القرن العشرين، في إقليم "غوندار" شمال غرب إثيوبيا. ويقيم حوالى عشرين ألفًا من أفراد هذه الجالية في أديس أبابا وإقليم غوندار، ويطالبون بالاستفادة من "حقّ العودة" الإسرائيليّ الذي يسمح لكلّ يهوديّ في الشتات بالإقامة في إسرائيل.

وتثير مسألة ارتباط الـ"فلاشا مورا" بالديانة اليهوديّة جدلاً بين رجال الدين اليهود الذين يطالبون باعتناقهم اليهوديّة والمسؤولين السياسيّين. وكانت الحكومة الإسرائيليّة قد سمحت بهجرة هؤلاء، لكنّ وزير الداخليّة "أفراهام بوراز" الذي ينتمي إلى حزب "شينوي" العلماني يعارض هجرتهم[1].

---

١ ـ أ.ف.ب.، ٧ كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤.

الموساد في حَربِ العِراق

في الربع عشر من كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣، طالعتنا الصحف بأنّ واشنطن قرّرت رصد ميزانيّة تبلغ ١٦ مليون دولار لتشغيل علماء برامج التسلّح العراقيّة السابقين خوفًا من هربهم للعمل في دول أخرى، كما فتحت باب الهجرة إلى الولايات المتّحدة خصوصًا لأولئك الذين وافقوا على التعاون مع الخبراء الأميركيّين في الكشف عن برامج أسلحة الدمار الشامل في العراق، وحفاظًا على حياتهم من عمليّات تصفية يقوم بها عناصر من الموساد، كما حصل مع سبعة من ضبّاط "قسم إسرائيل" في المخابرات العراقيّة السابقة الذين جرت تصفيتهم على يد الموساد، ومن بينهم "مثنى مصطفى الألوسي" الخبير في الشؤون التكنولوجيّة العسكريّة، وكذلك الدكتور "محمّد الراوي" المتخصّص في الأسلحة البيولوجيّة. وكان من المؤكّد أنّ مثل هذه العمليّات مرشّحة للتصاعد خصوصًا بعد نجاح عالم الصواريخ العراقي "مظهر صادق التميمي" من الإفلات من كمين مسلّح نُصب له في بغداد وتمكّن من اللجوء إلى إيران.

---

١ ـ جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ١٤ كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣، ص١١.

لائحة المراجع

أوستروفسكي فيكتور، الوجه الآخر للخداع، ترجمة زينة كفروني ومحّد ناصر، منشورات بيسان (بيروت،١٩٩٥)

جريدة "الديار" اللبنانيّة.

جريدة "السفير" اللبنانيّة.

جريدة "جيروزالم بوست" الإسرائيليّة.

جريدة "صانداي تايمز" البريطانيّة.

جريدة "هآريتس" الإسرائيليّة.

الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، ج١، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

رافيف دان، وميلمان يوسي، أمراء الموساد، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١)

زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠)

فخّ العبّاس، أسرار وحقائق عمليّة انصاريه، دار الندى (بيروت، ١٩٩٨)

مجلّة "الصيّاد" اللبنانيّة.

مجلّة "المحرّر العربيّ".

المعلوف رفيق خليل، وتقيّ الدين رندة، جريدة "الحياة" اللبنانيّة، عدد ٦ أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٧.

النمر مروان توفيق، ورشيد ربيع سليمان، الموساد والإخفاقات الأخيرة، دار الفارابي (بيروت،١٩٩٨)

هيرش سيمور م.، خيَار شمشوم، الترجمة العربيّة، مكتبة بيسان (بيروت،١٩٩٢)

وكالة أ.ف.ب.

وكالة رويترز.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

